سلسلة تيسير طلب العلم
شرح كتاب
حلية طالب العلم
شرح فضيلة الشيخ
محمد بن صالح بن عثيمين
رحمه الله
منذر أبو سعيد
تحقيق
أبو مالك / محمد بن حامد بن عبد الوهاب
monzer_abo_sa3ed@hotmail.com
اعتنى به ترتيبا وجمعا
مكتب دار البصيرة
بالإسكندرية
فلسطين - غزة
2008-1429

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار البصيرة

جمهورية مصر العربية

الإسكندرية - ٢٤ ش كانوب - كامب شيزار - ت : ٥٩٠١٥٨٠

شرح كتاب

حلية طالب العلم

لفضيلة الشيخ
بكر بن عبد الله أبو زيد

شرح فضيلة الشيخ
محمد بن صالح بن عثيمين
رحمه الله

تحقيق
أبو مالك / محمد بن حامد بن عبد الوهاب

اعتنى به ترتيباً وجمعاً
مكتب دار البصيرة
بالإسكندرية

المقــدمة

الحمــد لله الذي امتنَّ علينا بإرســال رسوله ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤). والصلاة والسلام على سيــد المرسلين وإمام العالمين، القائل: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»، فهم ورثتــه ﷺ ، القائمــون في أمتــه بمهمــة البلاغ والتعليم، وتبــيين الحلال والحرام، أعلى الله قدرهم في الدنيا والآخــرة، وجعلهم لنا نجوماً نهتدي بهم في الظلمات، وحاجتنا إليهم أشد من حاجتنا إلى الطعام والشراب.

هم مناهل الأرض ومنابعــها، وهم نجــومهــا وزينتهــا، نجوم إذا انطمــست ضلَّ السائــرون طريقهم، وكــواكب إذا تهاوت تاهت عنهم مــسالكهم، أثنى الله علــيهم، ورفع مقامهم ونوَّه بذكرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة المجادلة: ١١). وخصهم نبينا محمد ﷺ بالفضل الأسنى في أحاديث شتى، فــي مثل قوله: «إنَّ الله وملائكته وأهل السَّماوات والأرض حتَّى النَّملة في جحرها وحتَّى الحوت ليُصلُّون على مُعلمي الناس الخير»[1]

هكذا شأن العلــماء، وطلبة العلم. ولكن شــتَّان بين عالــم وعالم، وبين طالب وطالب، وما هو حليتــه وزينته، فبها يعلو قدره، ويزين أمره وشــأنه، وعليه تتزاحم الركب، وتأتيه الأفواج من كل حدب.

---

(١) رواه الترمذي: (٢٦٨٥).

وما أحوج طلبة هذا الزمن بهذه الحلية المباركة النافعة إن شاء الله، لاسيما وإنها صادرة من عالم صنديد، جهبذ عتيد، شامخ في العلم متين. فإذا اجتمع معه شارحها علم الأعلام، وسيد العلماء، وبقية السلف سيدنا وشيخنا وإمامنا أبي عبد الله محمد بن صالح العثيمين - قدّس الله روحه - فشُدَّ عليها بيديك، وعُضَّ عليها بالنواجذ، عسى أن تنفعك وأنت سائر في مرحلة الطلب.

هذا وأسأل الله العلي العظيم أن ينفع بها كل من قرأها واطلع عليها، وأن يثيب مؤلفها وشارحها ومراجعها وناشرها خير الجزاء هو ولي ذلك ونعم الوكيل.

وكتب أبو مالك

محمد بن حامد بن عبد الوهاب

كفر الشيخ في ١/٤/١٤٢٢هـ

التعريف بالمؤلف

حفظه الله

❖ النشأة:

ولد فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد أول ذي الحجة عام ١٣٦٤ هـ من قبيلة بني «زيد» القبيلة القضاعية المشهورة في وسط نجد ، وهو من مدينة «شقرا» ثم «الدوادمي» حيث ولد فيها.

نشأ نشأة كريمة في بيت صلاح وثراء وعراقة نسب. درس بالكتاب ثم التحق بالمدرسة الإبتدائية وأكملها في مدينة الرياض حيث واصل جميع مراحل التعليم في الإبتدائي ثم المعهد العلمي ثم كلية الشريعة ثم المعهد العالي للقضاء.

❖ حياته العلمية ومشايخه:

أخذ اللغة العربية عن الشيخ صالح بن عبد الله بن مطلق القاضي المتقاعد في الرياض، وكان يحفظ من مقامات الحريري «٢٥» مقامة بشرحها لأبي العباس الشريشي، وقد ضبطها عليه، وأخذ عنه علم الميقات وحفظ منظومته المتداولة على ألسنة المشايخ، وقد انتفع انتفاعًا بالغًا من رحلته إلى مدينة رسول الله ﷺ منذ عام ١٣٨٣ هـ حيث أخذ علم الميقات أيضًا عن بعض المشايخ، ولازم شيخه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - وقرأ عليه عدد من الرسائل، ودرس عليه كتاب الحج من المنتقى في المسجد الحرام. ولازم شيخه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - المتوفى عام ١٣٩٣هـ عشر سنين دأبًا في المسجد النبوي وفي دروسه فيه في عصر رمضان وفي منزله وقرأ عليه بعض تفسيره «أضواء البيان» والجزء الأول من

«آداب البحث والمناظرة» ومواضع من «المذكرة في أصول الفقه» وعلم النسب في كتاب ابن عبد البر «القصد والأمم في أنساب العرب والعجم» ونُبَذٌ سواها، وقد أثر فيه الشيخ ـ رحمه الله ـ تأثيرًا بالغًا، وهو الذي حبب إليه النظر في لسان العرب وأصول اللغة العربية حتى صار لها التأثير الظاهر عليه في أسلوبه وبيانه. وبالجملة فقد كان مختصًا به وتخرج على يديه وكان مغرمًا بتحصيل الإجازات العلمية في كتب السنة وله ثبت في هذا.

وقد تخرج في كلية الشريعة ١٣٨٣ منتسبًا وكان ترتيبه الأول من بين الخريجين وأختير للقضاء، فعمل قاضيًا في محكمة المدينة النبوية الكبرى منذ عام ١٣٨٨ حتى نهاية عام ١٤٠٠ هـ، وفي عام ١٣٩٠هـ عين مدرسًا بالمسجد النبوي الشريف فدرَّس فيه الفرائض والحديث واستمر حتى عام ١٤٠٠هـ، ثم عين بعدها بسنة وكيلاً لوزارة العدل واستمرت الوكالة حتى عام ١٤١٣هـ، وعُين أيضًا عضواً لمجلس القضاء الأعلى بهيئته العامة ـ ثم ممثلاً للمملكة في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، وعُين رئيسًا له منذ عام ١٤٠٥هـ حتى تاريخه، وعين أيضًا عام ١٤٠٥ هـ عضواً في المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي وفي عام ١٤١٣هـ عُين عضواً في هيئة كبار العلماء وعضواً في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

وفي أثناء عمله في القضاء واصل دراسته منتسبًا في المعهد العالي للقضاء، فتحصَّل منه على الماجستير والدكتوراه.

❖ كتبه ومصنفاته:

للشيخ ـ حفظه الله ـ مؤلفات عدة امتازت بالدقة في البحث، والجزالة في الأسلوب طبع منها نحو «٥٠» مؤلفا، منها:

١ ـ ابن القيم ـ حياته وآثاره وموارده.

٢ ـ التقريب بعلوم ابن القيم.

٣ ـ فقه النوازل / مجلدان.

٤ ـ معجم المناهي اللفظية.

٥ ـ طبقات النسَّابين.

٦ ـ معرفة النُسخ الحديثية.

٧ ـ التحديث فيما لا يصح فيه حديث.

٨ ـ عقيدة بن أبي زيد القيرواني.

٩ ـ لا جديد في أحكام الصلاة.

١٠ ـ تحقيق كتاب «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» للعامري.

نسأل الله للشيخ بكر التوفيق والسداد، نفعنا الله بعلمه ومتعه بطاعته، هو ولي ذلك ونعم الوكيل.

التعريف بالشارح

رحمه الله

* نسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي.

* مولده:

ولد سماحة الشيخ - رحمه الله - في مدينة عُنيزة، إحدى مدن القصيم في ٢٧ رمضان ١٣٤٧هـ.

* نشأته:

قرأ القرآن الكريم على جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ، بحفظه ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب، وكان الشيخ قد رُزق ذكاءً، وهمة عالية، وحرصًا على التحصيل العلمي، في مزاحمته بالركب للعلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وكان الشيخ عبد الرحمن قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ علي الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوِّع، فقرأ الشيخ محمد - رحمهما الله - عليهما «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدي، و«منهاج السالكين في الفقه» للشيخ السعدي أيضًا، و«الآجروميه»، و«الألفية»، في النحو والصرف.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان في الفرائض والفقه.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الذي يعتبر شيخه الأول، حيث لازمه وقرأ عليه التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف.

❖ حياته العلمية:

لما فتحت المعاهد العلمية في الرياض التحق بها عام ١٣٧٢هـ، يقول الشيخ ـ رحمه الله ـ : «دخلت المعهد العلمي من السنة الثانية، والتحقتُ به بمشورة من الشيخ عليٍّ الصالحي، وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ عليه رحمة الله ـ وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين خاص وعام، فكنت في القسم الخاص، وكان في ذلك الوقت أيضًا من شاء أن يقفز ـ كما يعبرون ـ بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلة له في أثناء الإجازة ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها، وبهذا اختصرت الزمن» أ. هـ.

وبعد سنتين تخرج وعُين مدرسًا في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة الدراسة انتسابًا في كلية الشريعة مع مواصلة طلب العلم على يد الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ.

ولما توفي الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ عام ١٣٧٦هـ، تولى الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ إمامة الجامع الكبير بعنيزة والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية، بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي، ثم انتقل إلى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، ومازال بها حتى توفاه الله ـ رحمة الله عليه ـ بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.

❖ تصانيفه ومؤلفاته:

لسماحة الشيخ ـ رحمه الله ـ مؤلفات عديدة تجاوزت الثمانين، منها:

١ ـ إزالة الستار عن الجواب المختار لهداية المحتار.

٢ ـ أصول في التفسير.

٣ ـ الأصول في علم الأصول.

٤ ـ الضياء اللامع من الخطب الجوامع.

٥ ـ القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى.

٦ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد.

٧ ـ شرح العقيدة الواسطية.

٨ ـ شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري.

٩ ـ شرح كشف الشبهات.

١٠ ـ شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد.

❖ مرضه ووفاته:

توفي الشيخ ـ عليه سحائب الرحمة ـ يوم الأربعاء الموافق الخامس عشر من شوال عام ١٤٢١ هـ.

نسأل الله العلي القدير أن يتغمده برحمته، وأن يعلي قدره ومنزلته ويحشره مع الصالحين والشهداء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، اللهم صلِّ وسلم عليه، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه.

أما بَعْدُ:

فَأَقَيِّدُ مَعَالِمَ هذه «الحِلْيةِ» المُبارَكَةَ عام ١٤٠٨هـ، والمسلمُون - ولله الحمدُ - يُعايشون يَقظةً علميةً، تَتَهَلَّلُ لها سُبُحَاتُ الوجوه، ولا تزال تُنَشِّطُ - مُتَقَدِّمَةً إلى الترقِّي والنُّضوج - في أفئدةِ شبابِ الأُمَّةِ مَجْدَها وَدَمَها المُجَدِّدَ لحياتها؛ إذ نرى الكتائبَ الشبابيَّةَ تَتْرى، يتقلَّبون في أَعْطَافِ العلمِ مُثْقَلين بِحِمْلِهِ يَعُلُّون منه وَيَنهَلُون، فلديهم من الطُّموح، والجامعيةِ، والاطِّلاع المُدْهِش، والغَوْصِ على مكنونات المسائل، ما يَفْرَح به المُسلمون نَصْراً، فَسُبحان مَن يُحْيِي ويُميت قلوباً.

لكن؛ لابُدَّ لهذه النواةِ المباركةِ مِنَ السَّقْيِ والتعهُّدِ في مَسَارَاتِها كافَّةً نشراً للضماناتِ التي تكُفُّ عنها العَثَارَ والتعثُّرَ في مثاني الطَّلَبِ والعَمَلِ؛ من تموُّجاتٍ فكريَّةٍ، وعَقَدِيَّةٍ، وسلوكيَّةٍ، وطائفيَّةٍ، وحِزْبيَّةٍ..

هذا ما قاله صحيح .. في الآونة الأخيرة حصل الحمد لله من الشباب طموحات واسعة في شتى المجالات، لكنها قد تحتاج إلى ضمانات وكوابح تضمن بقاء هذه النهضة وهذا الطموح، لأن كل شيء إذا زاد عن حدِّه فإنه سوف يرجع

منذر أبو سعيد

إلى جدره، إذا لم يُضبط ويُكبح فإنه يكون دماراً، ربما دماراً في المجتمع، وربما دماراً حتى على صاحبه في قلبه. أرأيتم الخوارج[١]. عندهم من الإيمان بمحبة كون المسلمين على الحق ما لا يوجد في غيرهم، لكن هذا قد زاد حتى كفروا المسلمين وأئمة المسلمين وخرجوا عليهم، فصاروا كما قال النبي ﷺ: «**يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**»[٢]. فأنت اضبط قلبك إذا رأيته ينفر بعيداً وسوف يسلك مسلكاً صعباً، فعليك أن ترده وأن تعرف أن المقصود إقامة دين الله لا الانتصار للغيرة وثورة النفس، ومعلوم أنه إذا كان هذا هو المقصود - أعني الانتصار لدين الله لا الانتصار للغيرة - أن الإنسان سوف يسلك أقرب الطرق إلى حصول المقصود ولو بالمهانة إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

(١) ويقال لهم النواصب، والحرورية نسبة إلى الموضع الذي خرج فيه أولهم على عليٍّ بن أبي طالب بعد أن أجبروه على قبول التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان، وعندما قبله طلبوا منه أن يرفضه ويتوب، معللين لذلك بأنه كفر بسبب التحكيم، كما كفروا هم وتبايعوا، وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة، ويجمعهم القول بالتبرىء من عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وتكفير أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقًا واجبًا.
انظر: الملل والنحل للشهرستاني: (١/ ١١٤).

(٢) رواه مسلم (١٦٠٨).

وقد جعلت طوعَ أيديهم رسالةً في «التَّعالُم» تكشفُ المُندسِّين بينهم خشيةَ أن يُرْدُوهم، ويُضَيِّعوا عليهم أمْرَهم، ويُبَعْثِروا مسيرتَهم في الطلب، فيستلُوهم وهم لا يَشْعُرون.

واليوم أخوك يشدُّ عَضُدَك، ويأْخُذ بيدك، فأجعل طَوْعَ بنانِك رسالةَ تحمِلُ «الصِّفةَ الكاشِفةَ»[١]. لحلْيَتِك، فها أنَا ذَا أجعلُ سِنَّ القلم على القِرْطاس، فاتْلُ ما أرقُمُ لك أنْعَمَ اللهُ بك عَيْناً[٢]

قوله «**فأجعلُ طوع** ...» فيها التفات من الغيبة إلى الحضور، هذا ليس معتاداً عند العلماء من مؤلفاتهم العلمية، لكن كما قلنا أولاً أن الشيخ يعتمد على البلاغات اللغوية، ومعلوم أن الانتقال في الأسلوب من الخطاب إلى غيبة، أو من غيبة إلى الخطاب أو من مفرد إلى جمع - إذا صح الجمع - من المعلوم أن هذا سوف يوجب الانتباه، لأن الإنسان إذا كان يسير على أسلوب معين مستمر عليه، انسابت نفسه، لكن إذا جاء شيء يغير الأسلوب سوف يتوقف وينتبه، ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ (سورة المائدة: ١٢)، فقال «أخذ الله» هذا غيب، و«بعثنا» حضور.

(١) الصفة الكاشفة: هذه من مصطلحات كتب المواد لـ «لسان العرب» ومنه ما في مادة (ظبأ) من «القاموس»، قال الزبيدي في «تاج العروس» (١/ ٣٣٢): «الظبأة هي: الضبع (العرجاء) صفة كاشفة. أ. هـ. وهذا الوجه من الصفة هو الذي يُراد به تمييز الموصوف الذي لا يُعلم، ليميز من سائر الأجناس بما يكشفه. انظر: حرف الصاد من «الكليات»: (٣/ ٩٢).

(٢) أوضحتُ في حرف الألف من «معجم المناهي اللفظية» أن هذا اللفظ: (أنعم الله بك عينًا) لا يصح النهي عنه.

لقد تواردَتْ مُوجِباتُ الشرعِ على أنَّ التحلِّي بمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، والهَدْيِ الحسن، والسَّمْتِ الصالح: سِمَةُ أهل الإسلام، وأنَّ العلمَ - وهو أثمن دُرَّةٍ في تاج الشرع المُطهَّر - لا يصلُ إليه إلاَّ المُتَحلِّي بآدابه، المُتَخلِّي عن آفاته، ولهذا عناها العلماءُ بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إمَّا على وَجْه العموم لكافَّة العلوم، أو على وَجْهِ الخصوص؛ كآداب حَمَلة القرآن الكريم، وآداب المُحدِّث، وآداب المُفتي، وآداب القاضي، وآداب المُحتَسِب، وهكذا ..

والشأن هنا في الآدابِ العامَّة لمن يسلُكُ طريقَ التعلُّمِ الشرعي.

وقد كان العلماءُ السابقون يُلقِّنونَ الطلاب في حِلَقِ العلم آدابَ الطلب، وأدركتُ خَبَرَ آخرِ العِقْد في ذلك في بعض حَلَقَات العلم في المسجد النبويِّ الشريف؛ إذ كان بعضُ المُدرِّسين فيه، يُدرِّسُ طُلاَّبه كتاب الزَّرْنُوجي (م سنة ٥٩٣هـ) رحمه الله تعالى، المسمى: «تعليم المُتَعَلِّم طريق التعلُّم»[(١)].

فعسى أن يَصِلَ أهلُ العلم هذا الحَبْلَ الوثيقَ الهادي لأقوم طريق، فَيُدْرَجَ تدريسُ هذه المادَّة في فواتح دروس المساجد، وفي موادِّ الدراسة النظامية وأرجو أن يكونَ هذا التقييدُ فاتحةَ خَيْرٍ في التنبيه على إحياء هذه المادة التي تُهَذِّبُ الطالبَ، وتَسْلُكُ به الجادَّةَ في آداب الطلب وحمل العلم وأدبه مع نفسه، ومع مدرِّسه، ودَرسه، وزَميلِه، وكِتابِه، وثَمرة علمه، وهكذا في مراحل حياته.

فإليك حِلْيَةً تحوي مجموعةَ آدابٍ، نواقضُها مجموعةُ آفات، فإذا فات أدبٌ منها؛ اقترف المُفَرِّطُ آفةً من آفاته، فَمُقِلٌّ ومستكثرٌ، وكما أنَّ هذه الآدابَ دَرَجاتٌ صاعدةٌ إلى السُّنَّةِ فالوجوب؛ فنواقضُها دَرَكاتٌ هابطةٌ إلى الكراهةِ فالتحريمِ.

(١) طُبع مراراً، وهو مع إفادته فيه ما يقتضي التنبُّه، فليُعلَم، والله أعلم.

ذكر الآداب .. فإن كانت مسنونة فضدها مكروهة، وإن كانت واجبة فضدها محرمة. ولكن هذا ليس على إطلاقه، لأن ليس ترك كل مسنون يكون مكروهًا، وإلا لقلنا: إن كل من لم يأت بالمسنونات في الصلاة يكون قد فعل مكروهًا، لكن إذا ترك آدابًا من الآداب الواجبة فإنه يكون فعلاً محرمًا في نفس هذا الأدب فقط لأنه ترك فيه واجبًا، وكذلك إذا كان مسنونًا وتركه. فيُنظر، فإن تضمن تركه إساءة أدب مع المعلم أو مع زملائه فهذا يكون مكروهًا لا لأنه تركه، ولكن لأنه لزم منه إساءة الأدب.

والحاصل: أنه لا يستقيم أن نقول كل من ترك مسنونًا فقد وقع في مكروه، أو كل من ترك واجبًا فقد وقع في المحرم. على سبيل الإطلاق، بل يقيد هذا.

ومنها ما يشملُ عُمومَ الخلقِ من كل مكلَّف، ومنها ما يختصُّ به طالبُ العلم، ومنها ما يُدْرَك بضرورة لشرع، ومنها ما يُعرف بالطبع، ويدلُّ عليه عمومُ الشرع؛ من الحمل على محاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، ولم أعْنِ الاستيفاء، لكنَّ سياقتَها تجري على سبيلِ ضرب المثال؛ قاصداً الدلالة على المُهِمَّاتِ، فإذا وافَقَتْ نفساً صالحةً لها؛ تناولت هذا القليلَ فَكَثَّرَتْهُ، وهذا المُجْمَلَ فَفَصَّلَته، ومن أخذ بها انتفع ونفع، وهي بدورها مأْخوذةٌ مِن أدب مَن بارك اللهُ في عِلْمِهِم وصاروا أئمةً يُهتدَى بهم، جَمَعَنا الله بهم في جنَّتِه آمين[1].

بكر بن عبد الله أبو زيد

في ١٤٠٨/٨/٥هـ

(١) من هذه الكتب: «الجامع» للخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، و«الفقيه والمتفقه» له. و«تعليم المتعلم طريق التعلم» للزرنوجي، و«آداب الطلب» للشوكاني، و«أخلاق العلماء» للآجُرِّي، و«آداب المتعلمين» لسحنون، و«الرسالة المفصِّلة لأحكام المتعلمين» للقابسي، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، و«الحث على طلب العلم» للعسكري، و«فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر، و«العلم، فضله وطلبه» للأمين الحاج، و«فضل العلم» لمحمد رسلان، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم، و«شرح الإحياء» للزبيدي، و«جواهر العقدين» للسمهودي، و«آداب العلماء والمتعلمين» للحسين بن منصور ـ منتخب من الذي قبله ـ و«قانون التأويل» لابن العربي، و«العزلة» للخطَّابي، و«من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان، و«مناهج العلماء» لفاروق السامرائي، و«التعليم والإرشاد» لبدر الدين الحلبي، و«الذخيرة» للقرافي، الجزء الأول، والأول من «المجموع» للنووي، و«تشحيذ الهمم إلى العلم» لمحمد بن إبراهيم الشيباني، و«رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين، و«آثار محمد البشير الإبراهيمي». وغيرها كثير أجزل الله الأجر للجميع ـ آمين ـ.

❖ وقد بدأ سماحة الشيخ محمد بن عثيمين شرح هذا الكتاب في ١٤١٥/٧/٢٢هـ.

الفصل الأول

آداب الطالب في نفسه

١ ـ العِلْمُ عبادةٌ[1]:

أصل الأُصولِ في هذه «الحِلْيَة» بل ولكل أمرٍ مطلوبٍ: عِلْمُك بأنَّ العلمَ عبادةٌ؛ قال بعضُ العلماء: «العلمُ صلاةُ السرِّ، وعبادةُ القلبِ».

العلم عبادة لاشك، بل هو من أجلِّ العبادات، وأفضل العبادات، حتى أن الله تعالى جعله في كتابه قسيمًا للجهاد في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (سورة التوبة: ١٢٢). «ليتفقهوا» يعني بذلك الطائفة القائمة. وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقه في الدين»[2]. فإذا رزقك الله الفقه في دينه، والفقه هنا يعني به العلم الشرعي، فيدخل فيه علم العقائد والتوحيد وغير ذلك، فإذا رأيت أن الله منَّ عليك بهذا فاستبشر خيراً، لأن الله أراد بك خيراً.

وقال الإمام أحمد: العلم لا يَعْدله شيءٌ لمن صحت نيته. قالوا: وكيف تصح النية يا أبا عبد الله؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره.

(١) فتاوى ابن تيمية: (١٠/ ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ٤٩ـ٥٤)، و(١١/ ٣١٤) و(٢٠/ ٧٧ - ٧٨).
(٢) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

وعليه؛ فإن شرطَ العبادةِ:

١ـ إخلاص النيَّة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (سورة البينة: ٥). الآية.

وفي الحديث الفَرْدِ المشهور عن أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات ..» الحديث.

فإن فَقَدَ العِلْمُ إخلاصَ النِّيَّة؛ انتقل من أفضل الطاعات إلى أَحَطِّ المخالفات، ولا شيء يُحَطِّمُ العلمَ مثْلُ: الرياء؛ رياء شركٍ، أو رياء إخلاص[1]، ومثلُ التسميع؛ بأن يقول مُسَمِّعًا: علمتُ وحفظتُ ..

إذا قال قائل: بما يكون الإخلاص في طلب العلم؟ يكون في أمور:

الأمر الأول ـ أن تنوي بذلك امتثال أمر الله، لأن الله تعالى أمر بذلك فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة محمد: ١٩). يحث سبحانه وتعالى على العلم، والحث على الشيء يستلزم محبته والرضا به والأمر به.

الأمر الثاني ـ أن تنوي بذلك حفظ شريعة الله، لأن حفظ شريعة الله يكون بالتعلم ويكون بالحفظ في الصدور، ويكون كذلك بالكتابة، كتابة الكتب.

والثالث ـ أن تنوي بذلك حماية الشريعة والدفاع عنها، لأنه لولا العلماء ما ضمنت الشريعة ولا دافع عنها أحد، لهذا نجد شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم الذين تصدوا لأهل البدع، وبينوا ضلال بدعهم، نجدهم حصلوا على خير كثير.

والرابع ـ أن تنوي بذلك اتباع شريعة محمد ﷺ وأنك لا يمكن أن تتبع شريعته حتى تعلم هذه الشريعة.

---

(١) «الذخيرة» للقرافي: (١/ ٤٥). وفيه: «وحقيقة الرياء: أن يعمل الطاعة لله وللناس، ويُسمَّى: رياء الشرك، أو للناس خاصة، ويُسمَّى: رياء الإخلاص وكلاهما يُصَيِّر الطاعة معصية» انتهى.
وانظر مبحثًا في «تهذيب الآثار» للطبري: «٢/ ١٢١-١٢٢» طبع في مطابع الصفا عكة.

وعليه؛ فالتزم التخلُّصَ من كل ما يشوب نيتَك في صدق الطلب؛ كحُبِّ الظُّهور، والتفوُّق على الأقران، وجعله سُلَّمًا لأغراض وأعراض؛ من جاهٍ، أو مالٍ أو تعظيم، أو سُمعةٍ، أو طلبِ محمدةٍ، أو صرفِ وجوه الناس إليك؛ فإنَّ هذه وأمثالها إذا شابت النيةَ؛ أفسدتها، وذهبت بركةُ العلم، ولهذا يتعيَّن عليك أن تَحْمي نيَّتك من شَوْبِ الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحِمى.

ما قاله صحيح. حماية النية من هذه المقاصد السيئة فهو صحيح، ومن طلب علمًا وهو مما يبتغى به وجه الله لا يرد إلا أن ينال به عرضًا من الدنيا لم يجد رائحة الجنة، نسأل الله العافية، ثم إن هذه المحمدة والجاه والتعظيم وصرف وجوه الناس إليك، ستجده إن حصَّلت العلم حتى وإن كانت نيتك سليمة فهو أقرب إلى حصول هذا لك.

وللعُلماءِ في هذا أقوالٌ ومواقفُ بَيَّنتُ طَرَفًا منها في المبحث الأول من كتاب «التعالم»، ويُزاد عليه نهيُ العلماء عن «الطُّبوليات»، وهي المسائلُ التي يُراد بها الشُّهرة. وقد قيل: «زلَّة العالم مضروبٌ لها الطَّبْل»[1].

وعن سفيانَ ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: «كنتُ أُوتيتُ فهمَ القرآن، فلمَّا قبلتُ الصُّرَّة؛ سُلِبْتُه»[2].

«الطبوليات»: المسائل التي يراد بها الشهرة، لماذا سميت طبوليات؟ لأنها مثل الطبل لها صوت ورنين، فهذا إذا جاء بمسألة غريبة عن الناس واشتهرت عنه كأنها صوت الطبل، فهذه يسمونها: الطبوليات، ولم أسمع بهذا ولكن وجهها واضح.

---

(١) «الصوارم والأسنة» لأبي مدين الشنقيطي السلفي رحمه الله تعالى. وانظر: «شرح الإحياء»، وعنه «كنوز الأجداد»: (ص٢٦٣).
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم»: (ص١٩).

«الصُّرَّة»: يعني من السلطان، لما أعطاه سُلب فهم القرآن، وهؤلاء هم الذين يدركون الأمور، ولهذا يتحرز السلف من عطايا السلطان. يقولون: إنهم لا يعطوننا إلا ليشتروا ديننا بدنياهم، فتجدهم لا يقبلونه، ثم إنهم - السلاطين - فيما سبق قد تكون أموالهم مأخوذة من غير حِلها، فيتورعون عنها أيضًا من هذه الناحية.

ومن المعلوم أنه لا يجوز للعالم أن يقبل هدية السلطان، إذا كان السلطان يريد أن تكون هذه العطية مطية له يركبها متى يشاء بالنسبة لهذا العالم، أما إذا كانت أموال السلطان نزيهة، ولم يكن يقبل الهدية منه لبيع دينه بها فقد قال النبي ﷺ لعمر: **«ما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشرف ولا سائله فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك»**[1]. وغرض سفيان رحمه الله[2] من ذلك التحذير من هذا وتبكيت نفسه على ما سبق.

فاستمسك - رحمك الله تعالى - بالعُروة الوثقى العاصمة من هذه الشوائب؛ بأن تكونَ - مع بذل الجهد في الإخلاص - شديدَ الخوف من نواقضه، عظيمَ الافتقار والالتجاء إليه سبحانه. ويُؤْثَرُ عن سفيان بن سعيد الثَّوري - رحمه الله تعالى - قوله: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيتي».

الإخلاص شديد، لذلك فإنه من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه فإنه يدخل الجنة وهو أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ.

(١) رواه النسائي (٢٦٠٤).
(٢) شيخ الإسلام وسيد الحفاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري، علم من أعلام السنة، ولد في سنة ٩٧ وتوفي سنة ١٦١ هـ. «تذكرة الحفاظ ١/٢٠٣».

وعن عُمر بن ذر أنه قال لوالده: يا أبي! ما لك إذ وعظتَ الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرُك لا يبكون؟ فقال: يا بُني! ليستِ النائحةُ الثَّكْلى مثلَ النائحةِ المُسْتأجَرةِ[1].

هذا مثل عظيم، **النائحة الثكلى** التي فقدت ولدها هذه تبكي بكاءً من القلب، والنائحة المستأجرة ما يؤثر نوحها ولا بكاؤها، لأنها تصطنع البكاء، ولكن مثل هذا الكلام الذي يرد عن السلف يجب أن نحسن الظن بهم وأنهم لا يريدون بذلك مدح أنفسهم، وإنما يريدون بذلك حث الناس على إخلاص النية والبعد عن الرياء وما أشبه ذلك، وإلا لكان هذا تزكية للنفس واضحة، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (سورة النجم: ٣٢). لكن السلف رحمهم الله لعلمنا بمقامهم، وبإخلاصهم يجب أن نحمل ما ورد عنهم مما يحتمل هذا المعنى الفاسد لنحمله على المعنى الصحيح.

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه.

وفقك الله لرشدك آمين.

٢ـ الخَصْلَةُ الجامعةُ لخيري الدنيا والآخرة؛ «محبَّةُ الله تعالى ومحبَّةُ رسوله ﷺ»، وتحقيقُها بتمحُّضِ المتابعةِ وقَفْوِ الأثرِ للمعصوم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ٣١).

لاشك أن المحبة لها أثر عظيم في الدفع والمنع، إذ أن المحب يسعى غاية جهده في الوصول إلى محبوبه، فيطلب ما يرضيه وما يقربه منه، ويسعى غاية جهده لاجتناب ما يبغضه محبوبه، ويبتعد عنه. ولهذا ذكر ابن القيم في «روضة المحبين»: أن كل الحركات مبنية على المحبة. كل حركات الإنسان، وهذا صحيح لأن الإرادة لا تقع من شخص عاقل إلا لشيء يرجو نفعه أو لشيء يدفع ضرره. وكل إنسان يحب ما ينفعه، ويكره ما يضره. فالمحبة في الواقع هي القائدة والسائق إلى الله عزَّ وجلَّ تقود الإنسان وتسوقه، وانظر إلى الذين كرهوا ما أنزل الله، قال الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة محمد: ٩). كانت نتيجتهم الكفر، لأنهم كرهوا ما أنزل الله، فالمحبة كما قال الشيخ هي: الجامعة لخيري الدنيا والآخرة.

أما محبة الرسول ﷺ فإنها تحملك على متابعته ظاهراً وباطناً لأن الحبيب يقلد محبوبه حتى في أمور الدنيا، تجده مثلاً يقلده في اللباس .. في الكلام، حتى في الخط. نحن نذكر بعض الطلبة زماننا كانوا يقلدون الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في خطه، رغم أن خطه ـ رحمه الله ـ ضعيف، ما تقدر تقرأه، لكن من شدة محبتهم له قلدوه، فالإنسان كلما أحب شخصًا حاول أن يكون مثله في خصاله.

فإن أحببت النبي ﷺ فإن هذه المحبة سوف تقودك إلى اتباعه صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذكر الآية التي يسميها علماء السلف آية المحنة. يعني الامتحان، لأن قومًا ادَّعوا أنهم يحبون الله فقال الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (سورة آل عمران: ٣١). أين الجواب؟ الجواب المتوقع: فاتبعوني تصدقوا في دعواكم. لأن الآن الشرط والمشروط: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني تصدقوا في دعواكم، لكن جاء الجواب: فاتبعوني يحببكم الله، إشارة إلى أن الشأن كل الشأن أن يحبك الله، هذا هو الثمرة، وهو المقصود. لا أن تحب الله، لأن كل إنسان يدَّعي ذلك وربما يكون ظاهرك محبة الله، لكن في قلبك شيء، لا يقتضي أن الله يحبك، فتبقى غير حاصل على الثمرة.

وبالجُملةِ؛ فهذا أصلُ هذه «الحِلْيَةِ»، ويَقَعان منها موقعَ التاجِ من الحُلَّةِ.

فيا أيُّها الطُّلابُ! ها أنتم هؤلاء تربَّعْتُم للدرسِ، وتعلَّقْتُم بأنفسِ علْقٍ (طَلَبِ العلمِ)؛ فأُوصيكم ونفسي بتقوى اللهِ تعالى في السرِّ والعلانيةِ؛ فهي العُدَّةُ، وهي مهبطُ الفضائلِ، ومتنزَّلُ المحامدِ، وهي مبعثُ القُوَّةِ، ومِعْراجُ السُّمُوِّ، والرابطُ الوثيقُ على القلوبِ عن الفِتَنِ، فلا تُفَرِّطوا.
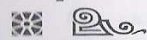
صدق ـ رحمه الله وعفا عنه ـ ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (سورة الأنفال: ٢٩). تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وبين الطاعة والمعصية، وبين أولياء الله وأعداء الله .. إلى غير ذلك وتارة يحصل هذا الفرقان بوسيلة العلم، يفتح الله على الإنسان من العلوم وييسر له تحصيلها أكثر ممن لا يتقي الله، وتارة يحصل له هذا الفرقان بما يلقيه الله في قلبه من الفراسة. قال النبي ﷺ: «إن يكن فيكم محدثون فعمر»[1]. فالله تعالى يجعل لمن اتقاه فراسة يتفرس بها، فتكون موافقًا للصواب.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٩). ومسلم (٢٣٩٨).

فقوله: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ يشمل الفرقان بوسائل العلم والتعلم، والفرقان بوسائل الفراسة والإلهام أن الله تعالى يلهم الإنسان التقي ما لا يلهم غيره، وربما يظهر لك هذا في مجراك في طلب العلم، تمر بك أيام تجد قلبك خاشعًا منيبًا إلى الله، مقبلاً عليه، متقيًا له فيفتح الله عليك مفاتح معالم كثيرة ويمر بك أيام غفلة ينفك قلبك، وكل هذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٢٩). إذا غفر الله للعبد أيضًا فتح عليه أبواب المعرفة قال تعالى. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ (سورة النساء: ١٠٥-١٠٦). ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي للإنسان إذا أُستفتي أن يقدم استغفار الله حتى يبين له الحق. لأنه قال: ﴿لِتَحْكُمَ﴾. ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾

٢- كُنْ على جادَّة السَّلَف الصالح:

كُن سَلَفيًا على الجادَّة؛ طريقِ السَّلَف الصالح من الصَّحابةِ رضي الله عنهم، فَمَن بعدهم ممن قَفَا أثَرَهم في جميع أبواب الدين؛ من التوحيد، والعبادات، ونحوها، مُتَمَيِّزًا بالتزام آثار رسول الله ﷺ، وتوظيفِ السُّنن على نفسك، وتَرْك الجدال، والمراءِ، والخوض في علم الكلام، وما يجلبُ الآثام، ويصدُّ عن الشرع.
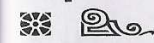
هذا من أهم ما يكون، أن الإنسان يكون على طريقة السلف الصالح في جميع أبواب الدين، من التوحيد والعبادات والمعاملات وغيرها، كذلك يترك الجدال والمراء، لأن الجدال والمراء هو الباب الذي يقفل طريق الصواب، فإن الجدال والمراء يحمل المرأ على أن يتكلم وينتصر لنفسه فقط، حتى لو بان له الحق تجده: إما أن ينكره، وإما أن يؤوله على وجه مستكره انتصاراً لنفسه وإرغامًا لخصمه على الأخذ بقوله، فإذا رأيت من أخيك جدال ومراء، بحيث يكون الحق واضحًا ولكنه لم يتبعه ففر منه فرارك من

الأسد. وقل: ليس عندي إلا هذا، اتركه وكذلك الخوض في علم الكلام مضيعة للوقت، لأنه يخوض في أشياء من أوضح الأشياء، مرَّ عليَّ اليوم في دراسة بعض الطلبة. يقول: ما هو العقل؟

عرفه لي لغة واصطلاحًا وعرفًا وشرعًا!! هذا ما له تعريف، لكن علم الكلام ادخل علينا الأشياء هذه، يجد الواحد مرة: إيش العقل هذا؟ سبحان الله!!

الظاهر أن الذي يقعد يفكر في تعريف العقل صار مجنونًا لأن هذا أمر واضح ما يحتاج إلى تعريف، لكن هؤلاء - أهل الكلام - صدوا الناس عن الحق وعن المنهج السلفي البسيط بما يوردونه من الشبهات والتعريفات والحدود وغيرها. وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في الرد على المنطقيين، يتبين لك الأمر، أو في «نقض المنطق» وهو مختصر وأوضح لطالب العلم، يتبين لك ما هم عليه من الضلال. ما الذي حمل علماء جهابذة على أن يسلكوا باب التأويل في باب الصفات؟! إلا علم الكلام. لو كان كذا لكان كذا، لو كان مستوٍ على العرش حقيقة لزم أن يكون محدودًا لماذا؟ لأن العرش محدود، لو كان يُرى لزم أن يكون في جهة، ولو كان في جهة لكان جسمًا وهلم جرَّه . . يعطونك من هذا الكلام الذي يضيعك، وهم يظنون أنهم يهدونك سواء السبيل.

فإذًا من المهم لطالب العلم أن يترك الجدال والمراء، وأن يترك ما يرد على ذهنه من الإيرادات، اترك هذه الأشياء، لا تتنطع، اجعل علمك سهلاً ميسرًا. يعني الأعرابي يأتي ببعيره يسأل النبي ﷺ عن مسائل الدين، ثم ينصرف بدون مشقة، لأنه ليس عنده إلا التصديق أما المناقشات والمراء والجدال، فهذا يضر الإنسان، الشيخ أبو بكر جزاه الله خيراً ألمح إلى هذا الأمر، وما يجلب الآثام ويصد عن الشرع.

قال الذهبيُّ ـ رحمه الله تعالى[١]: (وصحَّ عن الدارَقُطني أنه قال: ما شيءٌ أبغضَ إليَّ من عِلم الكلام. قلتُ: لم يدخُل الرجل أبدًا في علم الكلام ولا الجدِال، ولا خاض في ذلك، بل كان سَلَفيًا) أ هـ.

يبغضه مع أنه لم يدخل فيه، لكن لما له من مسالب وآثار سيئة، وتطويل بلا فائدة وتشكيك لما هو متيقن، وإرباك للأفكار، وهجر للآثار، ولهذا ليس شيء فيما أرى أضر على المسلمين في عقائدهم من علم الكلام والمنطق، وكثير من علماء الكلام الكبار أقروا في آخر حياتهم أنهم على دين العجائز ورجعوا إلى الفطرة الأولى، لِما علموا من علم الكلام.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «الفتوى الحموية»: وأكثر من يُخاف عليهم الضلال، هم المتوسطون من علماء الكلام، لأن من لم يدخل فيه فهو في عافية منه، ومن دخل فيه وعرف غايته فقد عرف بطلانه وفساده ورجع. أ هـ.

وصدق رحمه الله، وهذا هو الذي يُخاف في كل علم، يُخاف من الأنصاف الذين ما عرفوا الطريق لأنهم لم يروا أنفسهم أنهم لم يدخلوا في العلم فيتركوه لغيرهم، ولم يبلغوا غاية العلم والرسوخ فيه فيُضلون ويَضلون.

لكن علم الكلام خطير لأنه يتعلق بصفات الرب وذاته ولأنه يبطل النصوص تمامًا ويحكم العقل، ولهذا كان من قواعدهم: أن ما جاء في النصوص من صفات الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول ـ قسم أقره العقل، فهذا نقره بدلالة العقل لا بدلالة السمع.

---

(١) «السير»: (١٦/٤٥٧).

الثاني ـ قسم نَفَاهُ العقل، فيجب علينا نفيه دون تردد لأن العقل نفاه، ولكن عقل من؟! قال الإمام مالك رحمه الله: ليت شعري بأي عقل تنكر الكتاب والسنة أو ما كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أخذنا بقوله وتركنا من أجله الكتاب والسنة هذا لا يمكن.

الثالث ـ قسم لم يرد العقل بنفيه ولا بإثباته، فمن قال: إن شرط الإثبات دلالة العقل. قال: يُرد، لأن العقل لم يثبته، ومن قال: إن من شرط قبوله أن لا يرده العقل. قال: يُقبل. وأكثرهم يقول: إنه يرد ولا يقبل، لأن من شرط إثباته أن يدل عليه العقل.

وبعضهم يتوقف. قالوا: إذا لم يثبته العقل ولم ينفه، فالواجب علينا أن نتوقف وكل هذه قواعد ما أنزل الله بها من سلطان، ضلوا بها وأضلوا والعياذ بالله، وارتبكوا بها وشكُّوا وتحيروا، لذلك أكثر الناس شكًا عند الموت هم أهل الكلام. يترددون: هل الله جوهر أم عَرَض؟ هل هو قائم بنفسه أو بغيره؟ هل يفعل أم لا يفعل؟ هكذا .. عند الموت فيموت وهو شاكٌّ. نسأل الله السلامة والعافية لكن إذا كان الطريق، طريق السلف الصالح سهل عليه الأمر ولم يرد على قلبه شك ولا تشكيك ولا تردد.

وهؤلاء هم (أهلُ السنة والجماعة)، المُتَّبِعون آثارَ رسول الله ﷺ، وهم كما قـال شيـخُ الإسـلام ابن تيـميـّة ـ رحـمـه الله تعـالى ـ[1]: «وأهلُ السنة: نقاوةُ المسلمين، وهم خيرُ الناسِ للناس» اهـ.

فالزمِ السبيلَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٣).

اعلم أن من المتأخـرين من قال: إن أهل السنة ينقسمون إلى قسمين: مفـوضة ومـؤولة، وجعـلوا الأشاعـرة[2]. والماتريدية[3]. وأشـباههم من أهل السنة وجـعلوا المفوضة هم السلف، فأخطئوا في فهم السلف وفي منهجهم. لأن السلف لا يفوضون المعنى إطلاقًا، بل قـال شيخ الإسلام ابن تيمـية: إن القول بالتفـويض من شر أقوال أهل البدع، والإلحاد، واسـتدل بذلك بأننا إذا كنا لا ندري معاني مـا أخبر الله به عن نفسـه من أسماء وصفـات، جاءنا الفلاسـفة وقالوا: أنتم جـهال، نحن الذين عندنا العلم، ثم تكلموا بما يريـدون، وقالوا: إن المراد بالنص كذا وكذا. ومـعلوم أن معنىً للنص خيرٌ مـن التوقف فيه وأنه ليس له مـعنى. فانتبهوا لهذا، لأن بعض الناس يرى أن أهل السـنـة والجمـاعة يدخل فيهم المتكلمون من الأشـاعرة والماتريديـة وغيـرهم.

---

(١) «منهاج السنة»: (٥/ ١٥٨)، طبعة جامعة الإمام.

(٢) ينتسب الأشـاعرة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري البصري، وكـان معتزليًا فرجع عن الاعتزال وردَّ على المعـتزلة وبيَّن تناقضهم، ومن مذهبـه: أن الواجبات كلها سمعـية، وأن العقل لا يوجب شيئًا، وأن لله صفات أزلية قائمة بـذاته تعالى، دلت أفعاله عليهـا، لا يمكن جحدها ككونه تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة.
انظر: الملل والنحل للشهرستاني: (١/ ٩٤).

(٣) نسبة إلى أبي منصور محـمد بن محمد بن محمود الماتريدي الحنفي، من أئمـة علماء الكلام، نسبته إلى «ماتريد» وهي محلـة بسمرقند، ومن تصانيفـه: التوحيد، وأوهام المعتـزلة، والرد على القرامطة وقد خالف أبو منصور المـاتريدي أبا الحسن الأشعري في بعض الأصول: كمسـألة التكوين، ومسألة الاستثناء في الإيمان، ومسألة إيمان المقلِّد.
انظر: «مجموع الفتاوي»: (٧/ ٥١٠)، منهاج السنة (٢/ ٣٦٢، ٥٠٤).

ثم يقـول ـ من العـجب العـجـاب ـ أن طريقـة السلف أسلـم وطريقـة الخلف أعلم وأحكم. سبحان الله!! وكيف تكون طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم وهل يمكن أن تكون أعلـم وأحكم وليـست أسلم؟ بل يلزم من كـون طريقـة السلف أعلم وأحكم أن تكون أسلم بلاشك. لأن شخصًـا يقول: إن هذا النص له معنىً وأنا أؤمن به، أعلم بلاشك وأحكم من شـخص يقول: لا أدري. فلا سـلامة إلا بالعلم والحكمة. فهذا تناقض عظيم، ولهذا كان القـول الصحيح في هذه العبارة: أن طريقة السلف أعلم وأسلم وأحكم.

ويلزم من كوننا نحـث الطلبة على منهج السلف، يلزم من ذلك تحـريضهم على معرفة منهج السلف، فنطالع الكتب المؤلفة في ذلك كسـير أعلام النبلاء وغيرها حتى نعرف طريقهم، ونسلك هذا المنهج القويم.

٣ـ مُلازمةُ خَشْيَةِ الله تعالى:

التحلِّي بعمـارة الظاهـرِ والباطـنِ بخشيـةِ الله تعالى؛ مُحافظًا على شعـائر الإسلام، وإظهارِ السنة ونَشْرِها بالعَمَل بها والدعوة إليها؛ دالاً على اللهِ بعلمك وسَمْتِك وعَمَلك، متحليًا بالرجولةِ، والمساهلةِ، والسَّمْتِ الصالح. وملاكُ ذلك خشيةُ الله تعالى، ولهذا قال الإمام أحمدُ ـ رحمه الله تعالى ـ: «أصلُ العلمِ خشيةُ الله تعالى».

وهذا الذي قاله الإمام أحـمد صحيح: أصل العلم خشيـة الله، وخشية الله هي الخوف من الله المبني على العلم والتعظيم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: ٢٨). فالإنسـان إذا علم الله حق العلم وعرفه حق المعـرفة، فتجده يقوم بطاعة الله عزَّ وجلَّ في قلبه أتم قيام. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

والفرق بين الخشية والخوف: أن الخشية تكون من عظم المخشي، والخوف من ضعف الخائف، وإن لم يكن المخوف عظيمًا، لذلك يخاف الصبي من فتى أكبر منه قليلاً.

والحاصل: أن الخشية أعظم من الخوف، ولكن قد يقال: خاف الله. ﴿فَلا تخافُوهُمْ وخافُونِ إن كُنتم مُؤْمنينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٧٥). وهنا في مقابلة فعل هؤلاء الذين يخافون من الناس.
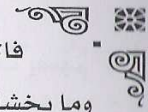
فالزمْ خشيةَ الله في السرِّ والعلَن؛ فإن خيرَ البريَّةِ من يخشى اللهَ تعالى، وما يخشاه إلاَّ عالمٌ، إذن فخيرُ البريَّةِ هو العالمُ، ولا يَغِبْ عن بالِكَ أنَّ العالم لا يُعَدُّ عالمًا إلا إذا كان عاملاً، ولا يعملُ العالمُ بعلمِهِ إلا إذا لزمته خشيةُ الله.

وأسند الخطيبُ البغداديُّ ـ رحمه اللهُ تعالى ـ بسندٍ فيه لطيفةٌ إسناديةٌ برواية آباءٍ تسعةٍ، فقال[1]: أخبرنا أبو الفَرَج عبد الوهَّاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسَد اللَّيْث بن سُليمان بن الأسود بن سفيان بن زيد بن أُكَينة بن عبد الله التميمي من حفْظِه؛ قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: «هَتَفَ العلمُ بالعمل، فإنْ أجابه، وإلا ارتَحَلَ» أهـ. وهذا اللفظُ بنحوه مرويٌّ عن سفيانَ الثَّوريِّ ـ رحمه الله تعالى ـ.

قوله: «لا يعد عالمًا» يعني عالمًا ربانيًا، وأما كونه عالم ضد الجاهل، فهذا يُقال أن الذي ألَّف «المنجد» رجل نصراني وفيه من معرفة اللغة العربية الشيء الكثير، وإن كان فيه غلطات كثيرة وأشياء تؤخذ عليه من الناحية الدينية، لكن العالم الذي

(١) «الجامع» للخطيب، و«ذم من لا يعمل بعلمه»: (رقم ١٥) لابن عساكر. وراجع لإسناده: «لسان الميزان»: (٤/٢٦-٢٧) للحافظ ابن حجر.

يعمل بعلمه هو الذي يصدق عليه أنه عالم رباني، لأنه يربي نفسه أولاً، وغيره ثانيًا. «هتف العلم ...» إذًا لابد من العمل، لأنه إذا لم يعمل بعلمه صار من أول ما تسعر بهم النار يوم القيام.

وعالم بعلمه لم يعمل ❖❖❖ معذبٌ من قبل عباد الوثن

هذه واحدة، إذا لم يعمل بعلمه أورث الفشل في العلم وعدم البركة والنسيان لقول الله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا مما ذكروا به﴾ (سورة المائدة: ١٣). وهذا النسيان يشمل النسيان الذهني والعملي، قد يكون بمعنى ينسونه دينيًا، أو بمعنى ينسون يتركونه لأن النسيان في اللغة العربية يطلق بمعنى الترك، أما إذا عمل الإنسان بعلمه فإن الله تعالى يزيده هدىً. قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدًى﴾ (سورة محمد: ١٧). ويزيده تقوى، ولهذا قال: «وآتاهم تقواهم» إذا عمل بعلمه ورَّثه الله علم ما لم يعلم ولهذا روى عن علي بن أبي طالب أنه قال: هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وتُروى هذه اللفظة: العلم يهتف بالعمل ـ يعني يدعوه ـ فإن أجاب وإلا ارتحل. وهذا واضح لأنك إذا عملت بالعلم تذكرته كلما عملت.

وأضرب مثلاً: رجل عرف صفة الصلاة من السنة وصار يعمل بها كلما صلى هل ينسى ما علم؟ لا ينسى، لأنه تكرر. لكن لو ترك العمل به نسي. وهذا دليل محسوس على أن العمل بالعلم يوجب ثبات العلم.
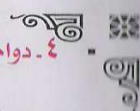
٤ ـ دوام المراقبة:

التحلِّي بدوام المُراقبَة لله تعالى في السرِّ والعلَن؛ سائرًا إلى ربِّك بين الخوف والرجاء؛ فإنهما للمسلم كالجناحين للطائر. فأقْبِل على الله بكُلِّيَّتك،

وَلْيَمتلىء قلبُك بمحبَّته، ولسانُك بذكره، والاستبشارِ والفرحِ والسرورِ بأحكامِهِ وَحِكَمِهِ سبحانه.

هذا من المهم: دوام المراقبة لله وهذا من ثمرات الخشية، أن الإنسان يكون مع الله دائمًا يعبد الله كأنه يراه، يقوم للصلاة فيتوضأ وكأنه ينفذ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (سورة المائدة:٦). يقوم يتوضأ وكأنه ينظر إلى رسول الله ﷺ وهو يتوضأ، ويقول: «من توضأ نحو وضوئي هذا»[1]. كمال المراقبة .. وهذا أمر مهم.

وقوله «**يكون سائرًا بين الخوف والرجاء فإنهما للمسلم كالجناحين للطائر**» هذا أحد الأقوال في هذه المسألة. وهي: هل الأولى للإنسان أن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء؟ أم يغلب جانب الخوف؟ أم يغلب جانب الرجاء؟

الإمام أحمد رحمه الله يقول: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه.

ومن العلماء من يُفَصِّل ويقول: إذا هممت بطاعة فَغَلِّب جانب الرجاء فإنك إذا فعلتها قبلها الله منك ورفعك بها درجات، وإذا هممت بمعصية فغلِّب جانب الخوف حتى لا تقع فيها. وعلى ذلك يكون التغليب لأحدهما بحسب حالة الإنسان.

ومنهم من قال: بحسب الحال على وجه آخر، فقال: أما في المرض فيغلِّب جانب الرجاء، لأن النبي ﷺ قال: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[2]. ولأنه إذا غلَّب في حالة المرض جانب الخوف فربما يدفعه ذلك إلى القنوط من رحمة الله. في حال الصحة يغلِّب جانب الخوف لأن الصحة مدعاة للفساد كما قال الشاعر الحكيم:

(١) رواه أحمد والنسائي وأبو داود وهو في صحيح الجامع برقم (٦١٧٦).
(٢) رواه أبو داود وأحمد وهو في صحيح الجامع برقم (٧٧٩٢).

إن الشباب والفراغ والجِدَة ❖❖❖ مفسدة للمرء أي مفسدة

والذي أرى: أن الإنسان يجب أن يعامل حاله بما يقتضيه الحال وأن أقرب الأقوال في ذلك أنه: إذا عمل خيرًا فيغلِّب جانب الرجاء، فإذا همَّ بسيئة فليغلِّب جانب الخوف. هذا أحسن ما أراه في هذه المسألة الخطيرة العظيمة.

إذا قال قائل: تغليب جانب الرجاء هل يجب أن يكون مبنيًا على سبب صالح للرجاء، أو يكون رجاء المفلسين. الإجابة: الأول.

إنسان مثلاً يعصي الله دائمًا وأبدًا ويقول: رحمة الله واسعة. هذا غلط، لأن إحسان الظن بالله ورجاء الله لابد أن يكون هناك سببًا ينبني عليه الرجاء وإحسان الظن. إلا كان مجرد أمنية، والتمني كما يقول عامة أهل نجد: التمني رأس مال المفاليس.

٥. خَفْضُ الجَناح ونَبْذُ الخُيَلاء والكبرياء:

تَحَلَّ بآداب النفس؛ من العفافِ، والحِلْمِ، والصبر، والتواضُعِ للحقِّ، وسكون الطائر؛ من الوَقَارِ، والرَّزانةِ، وخَفْضِ الجناح؛ مُتَحَمِّلاً ذُلَّ التعلُّم لعِزَّة العلم، ذليلاً للحقِّ.

قوله: «**تحلَّ بآداب النفس ...**» لأن المقام يقتضي هكذا أن يكون عند طالب العلم عفة عما في أيدي الناس، وعفة عما يتعلق بالنظر المحرم، وحلم لا يعاجل بالعقوبة إذا أساء إليه أحد، وصبر على ما يحصل من الأذى مما يسمعه إما من عامة الناس وإما من أقرانه وإما من معلمه فليصبر وليحتسب، **والتواضع للحق** وكذلك للخلق. يتواضع للحق بمعنى: أنه متى بان له الحق خضع له ولم يبتغ سواه بديلاً، وكذلك للخلق فكم من طالب فتح على معلمه أبوابًا ليست على بالٍ منه. ولا تحقرنَّ شيئًا.

وقوله: «وسكون الطائر، من الوقار ...» هذه أيضًا لطالب العلم أن يبتعد عن الخِفة سواء في المشية أو في معاملة الناس وألا يكثر من القهقهة التي تُميت القلب وتذهب الوقار، بل يكون خافضًا للجناح متحليًا بالآداب التي تليق بطالب العلم.

وقوله: «متحملاً ذل التعلم لعزة العلم» هذا جيد، يعني أنك لو أذللت نفسك للتعلم، فإنما تطلب عزَّ هذا العلم، فيكون تذليلها بالتعلم ينتج ثمرة طيبة.

وعليه؛ فاحذَرْ نواقضَ هذه الآداب، فإنَّها مع الإثم تُقيم على نفسِك شاهدًا على أنَّ في العقل علَّةً، وعلى حرمانٍ من العلم والعمل به، فإيَّاك والخُيَلاءَ؛ فإنَّه نِفاقٌ وكبرياءٌ، وقد بلَغَ من شدَّة التوقِّي منه عند السَّلَف مَبْلَغًا:

الخيلاء تحدث للإنسان طالب العلم، وللإنسان كثير المال، وللإنسان سديد الرأي، وكذلك في كل نعمة أنعم الله بها على العبد ربما يحدث له فيها خيلاء.

والخيلاء هي: إعجاب بالنفس مع ظهور ذلك على هيئة البدن، كما جاء في الحديث: «من جرَّ ثوبه خيلاء»[1]. فالإعجاب يكون بالقلب فقط، فإن ظهرت آثاره فإنه خيلاء.

وقوله: «فإنه نفاق وكبرياء» أما كونه كبرياء فواضح، أما قوله: «نفاق» فلأن الإنسان يظهر أكبر من حجمه الحقيقي، وهكذا المنافق يظهر بمظهر المخلص الناصح وهو ليس كذلك.

(١) رواه البخاري (٥٧٨٤). ومسلم (٢٠٨٥).

ومِن دقيقِهِ ما أسنده الذهبيُّ في ترجمة عَمرو بن الأسود العَنْسِي المتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان إذا خرج من المسجد قبَض بيمينِه على شماله، فسُئل عن ذلك؟ فقال: مخافةَ أن تُنافق يدي. قلتُ: يُمْسِكُها خوفًا من أن يَخْطُر بيده في مشيتِهِ؛ فإنَّ ذلك من الخُيَلاء[1]. اهـ.

وهذا العارضُ عَرَض للعَنْسي ـ رحمه الله تعالى ـ: واحْذَر داء الجبابرةِ: (الكِبْر)؛ فإنَّ الكِبْرَ والحرصَ والحَسَدَ أولُ ذنب عُصِيَ الله به[2]، فتطاولُك على مُعلِّمك كبرياءٌ، واستنكافُك عمَّن يفيدُك ممَّن هو دونك كبرياءٌ، وتقصيرُك عن العمَل بالعلم حَمأةُ كِبْرٍ، وعنوانُ حرمانٍ.

العلمُ حَرْبٌ للفتى المُتعالي * كالسَّيل حَرْبٌ للمكان العالي**

داء الجبابرة وهو «الكبر» وقد فسره النبي ﷺ بأجمع تفسير وأبينه وأوضحه فقال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[3]. وبطر الحق هو ردُّ الحق، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدرائهم؛ وقوله: «إن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عُصى الله به» يريد فيما نعلم لأننا نعلم أن أول من عصى الله عزَّ وجلَّ هو الشيطان حين أمره الله تبارك وتعالى أن يسجد لآدم لكن منعه الكبرياء. أبى واستكبر وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (سورة الإسراء: ٦١).

وقال: ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ (سورة الإسراء: ٦٢). وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٢).

(١) «السير»: (٤/٨٠).
(٢) «فهرس الفتاوى»: (٣٦/١٩٣).
(٣) رواه مسلم (٩١).

فقوله: «أول ذنب عُصى الله به» يعني باعتبار ما نعلم، وإلا فإن الله تعالى قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (سورة البقرة: ٣٠).

قال أهل العلم: إنما قال الملائكة ذلك لأنه كان على الأرض أمة قبل آدم وبنيه، وكانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

ثم ذكر أمثلة قال: «**تطاولك على معلمك كبرياء**» ويكون التطاول باللسان ويكون أيضًا بالإنفعال، قد يمشي مع معلمه وهو يتبختر، ويقول فعلتُ وفعلتُ، وكذلك أيضًا استنكارك عما يفيدك من علوم كبرياء، وهذا يقع أيضًا لبعض الطلبة إذا أخبره أحد بشيء وهو دونه في العلم يستكبر ولم يقبل.

وقوله: «**تقصيرك عن العمل بالعلم حمأة كبر، وعنوان حرمان**» نسأل الله العافية. هذا نوع من الكبر، ألا تعمل بالعلم.

وقوله: «**العلم حرب للفتى المتعالي**» يعني أن الفتى المتعالى لا يمكن أن يدرك العلم، لأن العلم حرب له. «**كالسيل حرب للمكان العالي**»، صحيح المكان العالي ينفض عنه السيل يمينًا وشمالاً ولا يستقر عليه.

فالْزَم - رحمك اللهُ - اللُّصوقَ إلى الأرض، والإزراءَ على نفسك، وهَضْمَها، ومُراغَمَتَها عند الاستشراف لكبرياءٍ أو غطرسةٍ، أو حُبِّ ظهورٍ، أو عُجْبٍ .. ونحو ذلك من آفاتِ العلم القاتلة له، المُذْهِبَة لهيبتِه، المُطْفِئَةِ لنورِه، وكلَّما ازددتَ علمًا أو رفعةً في ولايةٍ؛ فالْزَم ذلك؛ تُحرزْ سعادةً عظمى، ومقامًا يَغْبِطُك عليه الناسُ. وعن عبد الله بن الإمام الحُجَّة الراوية في الكُتُب السِّتَّة بكر بن عبد الله المُزَني - رحمهما الله تعالى - قال:

«سمعتُ إنسانًا يُحدِّث عن أبي، أنه كان واقفًا بعرفة، فَرَقّ، فقال: لولا أني فيهم؛ لقلتُ: قد غُفِر لهم». خرَّجه الذهبي[1]**، ثم قال: «قلتُ: كذلك ينبغي للعبدِ أن يُزْرِي على نفسه ويَهْضِمَها» أ هـ.**

وهذه العبارات التي تطلق على السلف، مثل هذا يريدون به التواضع، وليسوا يريدون أنهم يغلبون جانب سوء الظن بالله عزَّ وجلَّ أبدًا، لكنهم إذا رأوا ما هم عليه خافوا وحذروا وجرت منهم هذه الكلمات. وإلا فإن الأولى للإنسان أن يحسن الظن بالله ولاسيما في هذا المقام. وهو مقام عرفة الذي هو مقام تضرع إلى الله عزَّ وجلَّ ومقام استغفار. ويقول مثلاً: إن الله لم ييسر لي الوصول إلى هذا المكان إلا من أجل أن يغفر لي ويسأله المغفرة. والله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٠). لكن تكررت هذه العبارات من السلف من باب التواضع وسوء الظن بالنفس لا بالله عزَّ وجلَّ.

٦ - القناعةُ والزَّهادةُ:

التَّحلِّي بالقناعةِ والزهادةِ، وحقيقةُ الزهد[2]**: «الزهدُ بالحرام، والابتعادُ عن حِماه؛ بالكفِّ عن المُشْتَبِهاتِ وعن التَّطلُّعِ إلى ما في أيدي الناس».**

التحلي بالقناعة من أهم خصال طالب العلم، يعني أن يقتنع بما أتاه الله عزَّ وجلَّ ولا يطلب أن يكون من الأغنياء والمترفين، لأن بعض طلبة العلم وغيرهم يريدون أن يكونوا في مصافِّ الأغنياء والمترفين، فيتكلف النفقات في المأكل والمشرب

(١) «سير أعلام النبلاء»: (٤/ ٥٣٤).
وانظر كلامًا نفيسًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في «مجموع الفتاوى»: (١٤/ ١٦٠).
(٢) «تعليم المتعلم» للزرنوجي: (ص٢٨).

والملبس والمفرش ثم يسقط كاهله من الديون، وهذا خطأ؛ لكن عليك بالقناعة فهي خير زاد للمسلم.

قال: «وحقيقة الزهد ..» كأنه أراد بالزهد هنا الورع، لأن هناك ورعًا وزهدًا. والزهد أعلى مقامًا من الورع، لأن الورع ترك ما يضر في الآخرة والزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، بينهما فرق.

الفرق الذي بينهما: المرتبة التي ليس فيها ضرر وليس فيها نفع، فالورعُ لا يتحاشاها، والزاهد يتحاشاها ويتركها، لأنه لا يريد إلا ما ينفعه في الآخرة.

ويُؤْثَرُ عن الإمام الشافعيِّ ـ رحمه الله تعالى ـ[1]: «لو أوْصَى إنسانٌ لأعْقَل الناس؛ صُرِفَ إلى الزُّهَّاد».

الله أكبر!! لو قال: أوصيت لأعقل الناس. يصرف لمن؟ إلى الزهاد. لأن الزهاد هم أعقل الناس، حيث تجنبوا ما لا ينفعهم في الآخرة، وهذا الذي قاله رحمه الله ليس على إطلاقه، لأن الوصايا والأوقاف والهبات والرهون وغيرها ترجع إلى معناها في العرف، فإذا كان أعقل الناس في عرفنا الزهاد صُرف لهم ما أوصى به، وإذا كان أعقل الناس هم ذوو المروءة والوقار والكرم بالمال والنفس صُرف إليهم.

وعن محمد بن الحَسَن الشَّيْباني[2] ـ رحمه الله تعالى ـ لمَّا قيل له: ألا تُصَنِّفُ كتابًا في الزُّهد؟ قال:

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي: (ص٢٨).

(٢) هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، صحب أبا حنيفة وأخذ عنه الفقه ثم عن أبي يوسف، روى الحديث عن مالك ودوّن الموطأ وروي عن الثوري وعمرو بن دينار، وعنه الشافعي، ومن كتبه: المبسوط في الفقه، الجامع الكبير والصغير. مات عام ١٨٩هـ. (شذرات الذهب «١/ ٣٢١»، وفيات الأعيان «١/ ٥٧٤»).

«قد صَنَّفْتُ كتابًا في البُيوع»[1]. يعني: «الزاهد من يتحرزُ عن الشُّبُهات، والمكروهات؛ في التجارات، وكذلك في سائر المعاملات والحِرَف» أ هـ.

لأن من تعرف على البيوع وأحكامها وتحرز عن الحرام واستحل الحلال فإن هذا هو الزاهد.

وعليه؛ فَلْيَكُن معتدلاً في معاشِهِ بِمَا لا يُشينه، بحيث يصونُ نفسَه ومَن يعولُ، ولا يَرِدُ مواطنَ الذِّلَّةِ والهُون.

وقد كان شيخُنا محمد الأمين الشَّنْقيطيُّ المتوفى في ١٣٩٣/١٢/١٧هـ رحمه الله تعالى مُتَقَلِّلاً من الدنيا، وقد شاهدتُه لا يعرفُ فئاتِ العملةِ الورقية، وقد شافَهَني بقولِه: «لقد جئتُ من البلاد ـ شنقيط ـ ومعي كَنْزٌ قلَّ أن يُوجَدَ عند أحدٍ، وهو (القناعةُ)، ولو أردتُ المناصبَ؛ لعرفتُ الطريقَ إليها، ولكنِّي لا أُوثر الدنيا على الآخرةِ، ولا أبذلُ العلمَ لنيلِ المآربِ الدنيوية». فرحمه الله تعالى رحمةً واسعةً آمين.

هذا الكلام من الشيخ الشنقيطي رحمه الله وأشباهه من أهل العلم لا يريدون بذلك تزكية النفس ولكن يريدون بذلك نفع الخلق وأن يقتدي الناس بهم وأن يكونوا على هذا الطريق لأننا نعلم هنا من أحوالهم. ولأنهم لا يريدون تزكية النفس وهم أبعد الناس عن ذلك وهو رحمه الله كما ذكره الشيخ بكر من الزهاد، إذا رأيته لا تقول إلا أنه رجل من أهل البادية حتى العباءة تجد أن عليه عباءة عادية ما فيها هذا «الزري» وكذلك الثياب ولا تجده يهتم بهندمة نفسه وثيابه رحمه الله.

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي: (ص٢٨).

٧ـ التَّحلِّي برَوْنَقِ العلم:

التحلِّي بـ(رَوْنَقِ العلم) حُسْنُ السَّمْت، والهَدْيُ الصالح، من دَوَام السكينة، والوقارِ، والخُشوعِ، والتواضُعِ، ولزومِ المَحَجَّة؛ بعمارة الظاهر والباطن، والتخلِّي عن نواقِضِها.

هذا قد يكون فرع لما سبق، فإن حسن السمت، والهدي الصالح من دوام السكينة، والوقار، والخشوع، والتواضع، والهدي الظاهر قد سبق الإشارة إليها وأنه ينبغي لطالب العلم أن يكون أسوة صالحة في هذه الأمور.

وعن ابن سيرينَ ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «كانوا يتعلَّمون الهَدْيَ كما يتعلَّمون العلم».

وعن رجاء بن حَيْوَة ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال لرجل: «حدِّثنا، ولا تحدِّثنا عن مُتَماوتٍ ولا طَعَّانٍ». رواهما الخطيب في «الجامع»، وقال[1]: «يجبُ على طالب الحديثِ أن يتجنَّب: اللعبَ، والعبثَ والتبذُّلَ في المجالس؛ بالسُّخْفِ، والضحكِ، والقهقهةِ، وكثرة التنادُرِ، وإدمانِ المُزاح والإكثار منه، فإنما يُستجاز من المُزاح بيسيرِهِ ونادره وطريفِهِ، والذي لا يُخرج عن حَدِّ الأدب وطريقةِ العلم، فأمَّا مُتَّصِلُهُ وفاحشُهُ وسخيفُهُ وما أوغر منه الصُّدورَ وجَلَبَ الشَّرَّ؛ فإنه مذمومٌ، وكثرة المزاح والضحك يَضَعُ من القَدْرِ، ويُزيلُ المروءة» أهـ.

هذا من أحسن ما قيل في آداب طالب العلم. أن يتجنب اللعب والعبث إلا ما جاءت به الشريعة، كاللعب برمحه وسيفه وفرسه، لأن ذلك يعينه على الجهاد في سبيل الله، وكذلك في الوقت الحاضر اللعب بالبنادق الصغيرة هذه لا بأس بها،

(١) «الجامع»: (١/١٥٦).

كذلك العبث، وهو أن يفعل فعلاً لا داعي له، أو يقول قولاً لا داعي له، كذلك التبذل في المجالس بالسُّخف والضحك والقهقهة وإدمان المزاح والإكثار منه، لاسيما عند عامة الناس، أما عند أصحابك وأقرانك، فالأمر أهون، لكن عند عامة الناس إياك أن تفتح على نفسك باب الإمتهان، فإن ذلك يذهب الهيبة من قلوب الناس فلا يهابونك ولا يهابون العلم الذي تأتي به.

وقد قيل: «مَنْ أكثر من شيءٍ؛ عُرِفَ به». فتجنَّب هاتيك السَّقَطاتِ في مجالَسَتِكَ ومُحادثَتِك. وبعضُ من يَجْهَلُ يظنُّ أن التبسُّطَ في هذا أرْيَحيَّةٌ.

وعن الأحْنَفِ بن قَيْسٍ قال: «جَنِّبوا مجالِسَنا ذِكْرَ النساءِ والطعام، إنِّي أُبْغِضُ الرجلَ يكون وصَّافًا لفرجِهِ وبطْنِه»[1].

لأن هذا يُشغل عن طلب العلم، مثل أن يقول: أكلت البارحة أكلاً حتى مُلأت البطن، وما أشبه ذلك من الأشياء التي لا داعي لها أو يتكلم فيما يتعلق بالنساء، أما إذا كان يتكلم بما بينه وبين أهله فذلك من أشر الناس منزلةً عند الله يوم القيامة.

وفي كتاب المُحدَّث المُلْهَم أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه في القضاء: «ومن تزيَّن بما ليس فيه؛ شانَهُ الله». وانظر شَرْحَه لابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ[2].

المحدث يعني به عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن النبي ﷺ قال: «إن يكن فيكم مُحدَّثون فعمر»، والمراد «بالملهم» الذي يلهمه الله عزَّ وجلَّ وكأنه يحدث بالوحي وقد أشكل هذا على بعض العلماء، حيث قالوا: إن هذا يقتضي أن عمر أفضل الصحابة لأنه

(١) «سير أعلام النبلاء»: (٤/٩٤).
(٢) «إعلام الموقعين»: (٢/١٦١-١٦٢).

قال: «إن يكن فيكم محدثون فعمر»، لكن أجاب عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بأن عمر إنما يتلقى الإصابة بواسطة، أما أبو بكر فيتلقاها بلا واسطة وعلى هذا فيكون أبو بكر أفضل من عمر، ومن رأى تصرف أبي بكر في مواقع الشدة رأى أنه أقرب إلى الصواب من عمر، ففي كتاب الصلح الذي وقع بين النبي ﷺ وقريش، راجع عمر النبي ﷺ فأجابه ثم راجع أبا بكر فأجابه بما أجابه به رسول الله ﷺ حرفًا بحرف.

وفي قتال أهل الردة وكذلك في تنفيذ جيش أسامة بن زيد وكذلك في تثبيت الناس يوم وفاة النبي ﷺ كل هذا يدل على أن أبا بكر أصوب رأيًا من عمر، لكن الذي أظهر عمر بن الخطاب هو طول خلافته وتفرغه لأمور المسلمين العامة والخاصة، وكان مشتهرًا بذلك رضي الله عنه ولهذا فنحن نقول: أيهما أكثر رواية للحديث أبو هريرة أم أبو بكر؟

أبو هريرة، هل يعني ذلك أن أباهريرة رضي الله عنه أكثر تلقي للحديث من أبي بكر؟ لا.. لكن أبوبكر لم يحدث بما رَوى من الرسول وإلا، فأبو بكر صاحب الرسول ﷺ صيفًا وشتاءً، ليلاً ونهارًا، سفرًا وإقامة فهو أكثر الناس تلقي عنه، وأعلم الناس بأحواله، لكن لم يتفرغ لكي يجلس للناس يحدثهم بما رواه عن النبي ﷺ.

فالحاصل: أن بهذا يتبين الجواب عن الحديث: «إن يكن فيكم..» الحديث. يقول: في الكتاب الذي كتبه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء: **«من تزيَّن بما ليس فيه شانه الله»**. هذه حقيقة، إذا تزين الإنسان بأنه طالب علم وقام يضرب الجبلين بعضهما ببعض، وكلما جاءته مسألة شمَّر عن أكمامه وقال أنا صاحبه: هذا حلال وهذا حرام، وهذا واجب وهذا فرض كفاية، وهذا فرض عين، وهذا اشتراطه كذا وكذا، وهذا ليس له شروط وقام يفصِّل ويُجمل، ولكن يأتيه طالب علم صغير يقول: أخبرنا عن كذا. فإذا بالله يفضحه ويبين أنه ليس بعالم، وكذلك من تزين بعبادة وأظهر للناس أنه عابد فلابد أن يكشفه الله.

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقة ❖ وإن خالها تخفى على الناس تُعلَم

ومهما يكتم الناس فالله يعلمه وسيفضح من لا يعمل لأجله، فهذه عبارة من عمر زِنْ بها كل أعمالك «من تزين بما ليس فيه شانه الله».

قال الشيخ بكر أبو زيد وفقه الله «انظر شرحه لابن القيم رحمه الله»، شرحه ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين» شرحًا طويلاً حتى تكاد أن تقول: أن جميع الكتاب الذي هو ثلاث مجلدات كبار. كان شرحًا لهذا الحديث، وإن لم يكن شرحًا لألفاظه، لكنه لألفاظه من وجه وشرحًا لمعانيه وحكمه من وجه آخر فلهذا أشار بكر أبو زيد إلي أن تنظر إلى هذا الشرح.

٨- تحلَّ بالمروءة[1]:

التحلِّي بـ (المروءة)، وَمَا يَحْمِلِ إليها؛ من مكارم الأخلاق، وطلاقةِ الوجه، وإفشاءِ السلام، وتحمُّلِ الناس، والأَنَفَةِ من غير كبرياء، والعزَّةِ في غير جَبَروت، والشهامة في غير عَصَبيَّة، والحَمِيَّةِ في غير جاهلية.

ما هي المروءة؟ حدَّها الفقهاء رحمهم الله في كتاب الشهادات. قالوا: هي فعل ما يُجَمِّله ويزينه واجتناب ما يدنسه ويشينه.

وهذه عبارة عامة. كل شيء يُجمله عند الناس ويزينه ويكون سببًا للثناء عليه فهو مروءة وإن لم يكن من العبادات، وكل شيء بالعكس فهو خلاف المروءة. ثم ضرب لهذا مثلاً. فقال: مكارم الأخلاق. فما هو كرم الخلق؟ أن يكون الإنسان دائمًا متسامحًا في مواضع التسامح. ويأخذ بالعزم في موضع العزيمة.

(١) فيها مؤلفات مفردة، انظر: «معجم الموضوعات المطروقة»: (٣٩٢).

ولهذا جاء الدين الإسلامي وسطًا بين التسامح الذي تضيع به الحقوق، وبين العزيمة التي ربما تحمل على الجور. فنضرب مثلاً بالقصاص - وهو قتل النفس بالنفس. يُذكر أن بني إسرائيل انقسمت شرائعهم في القصاص إلى قسمين: قسم أوجب القتل ولا خيار لأولياء المقتول فيه، وهي شريعة التوراة، لأن شريعة التوراة تميل إلى الغلظة والشدة.

وقسمٌ آخر أوجب العفو. وقال: إنه إذا قُتل الإنسان عمدًا، فالواجب على أوليائه التسامح. هكذا نقرأ في الكتب المنقولة ولم نقف على نصٍ في الإنجيل، وإلا فإن الأصل أن شريعة الإنجيل هي شريعة التوراة وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (سورة المائدة: ٤٥). لكن فيما يُنقل عن بني إسرائيل نسمع هذا، فجاء الدين الإسلامي وسطًا وجعل الخيار لأولياء المقتول إن شاءوا قتلوا قصاصًا ولهم الحق، وإن شاءوا عفوا مجانًا وإن شاءوا أخذوا الدية.

فصار الأمر في ذلك واسعًا ومعلوم أن كل عاقل يُخيَّر في مثل هذه الأمور سيختار ما فيه المصلحة العامة ويقدمها على كل شيء.

فمثلاً إذا كان هذا الرجل شريرًا - أعني القاتل - وأولياء المقتول يحبون المال، وقالوا نريد أن نعفو إلى الدية لأننا محتاجون ليس عندنا مال. نقول: هذه ليس من الحكمة. انظروا إلى المصالح العامة وأنتم إذا تركتم شيئًا لله، عوضكم الله خيرًا منه، اقتلوا هذا القاتل. ولهذا أوجب شيخ الإسلام ابن تيمية تبعًا للإمام مالك رحمه الله، أوجب قتل القاتل غيلة حتى لو عفى أولياؤه، حتى لو كان له صغار يحتاجون إلى المال، فإنه يجب أن يقتل لأن القتل غيلة لا يمكن التخلص منه، إذ أن الإنسان أُغتيل في حالة لايمكن أن يدافع عن نفسه، والمغتال مفسد في الأرض ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (سورة المائدة: ٣٣).

«وطلاقة الوجه» أيضًا، هذه من مكارم الأخلاق، وهل مثلاً: أطلق وجهي لكل إنسان حتى لو كان أجرم المجرمين؟ أو على حسب الحال؟ على حسب الحال، أطلق الوجه في ٦ من ٩ إيش معنى هذا؟ يعني في الثلثين، والثلث دعه لما تقتضيه الحال.

لكن سمتك طلاقة الوجه، هذا أحسن شيء، تجذب الناس إلى نفسك ويحبك الناس، ويستطيعون أن يفضوا إليك ما يفضون من أسرارهم، ولكن إذا كنت عبوسًا، تعض على شفتك السفلى، فإن الناس يهابونك ولا يستطيعون أن يتكلموا معك، لكن إذا اقتضت الحال أن لا تطلق الوجه فافعل، ولهذا لا يُلام الإنسان على العبوس مطلقًا، ولا يمدح على تركها مطلقًا.

«إفشاء السلام» يعني نشره وإظهاره على كل أحد؟ أسأل. لا .. على من يستحق أن يُسلم عليه، على المسلم وإن كان عاصيًا، وإن كان زانيًا، وإن كان سارقًا، وإن كان مُرابيًا، وإن كان يشرب الخمر، وإن كان فاسقًا. إلقِ عليه السلام، لقول النبي ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[1]. فإن فعل المؤمن منكرًا ولاسيما إذاكان منكرًا عظيمًا يخشى منه أن يتفت المجتمع الإسلامي حينئذ يكون هجره واجبًا، إن نفع الهجر.

وإنما أقول ذلك لئلا يرد علينا قصة كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك، فإن الرسول ﷺ أمر بهجره، أمر أن يهجره الناس فهجروه وصاروا لا يكلمون معه حتى أنه ذات يوم تسوَّر حديقة أبي قتادة رضي الله عنه وهو ابن عمه وأحب الناس إليه فسلم على أبي قتادة، فلم يرد عليه السلام، فسلم ثانيًا فلم يرد عليه السلام، ثالثًا فلم يرد عليه السلام. فقال أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ كيف تهجرني وأنا أحب الله ورسوله؟ فلم يرد عليه، ما قال نعم أو لا. قال: الله ورسوله أعلم!!

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤١٦).

ما أجاب، لماذا؟ لأن الرسول ﷺ أمرهم، ولو أمرهم أن يفعلوا أكبر من ذلك لفعلوا.

المهم أن الصحابة هجروه، لأنه تخلف عن غزوة تبوك وكان هجرهم بأمر من رسول الله ﷺ . يأتي فيسلم على الرسول ﷺ فيقول: فما أدري هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا؟

لكن الرسول يحبه لأنه إذا قام يصلي كعب، جعل النبي ﷺ يسارقه النظر .. ينظر إليه.

فهل هذا الهجر الذي وقع من الصحابة لكعب بن مالك هل أثر أم لم يؤثر؟ أثر ... رجوعًا عظيمًا إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ (سورة التوبة:١١٨). لجأوا إلى الله ففرج الله عنهم.

فالحاصل: إفشاء السلام .. الأصل فيه أنه عام لكل أحد من المسلمين إلا من جاهر بمعصية، وكان من المصلحة أن يُهجر فليُهجر.

أما غير المسلمين فقد قال النبي ﷺ : «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام»[(١)] .

فيحرم علينا أن نبدأ اليهود والنصارى بالسلام، ومن سواهم أخبث منهم فلا نبدأهم بالسلام، وإن سلَّموا نرد عليهم، لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (سورة النساء:٨٦). فإذا قالوا السلام عليكم. نقول: عليكم السلام صراحة، لأن الآية ناطقة بذلك ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ . ولأن النبي ﷺ إنما أمر أن نقول: «وعليكم» لأنهم يقولون: «السام عليكم» كما جاء ذلك مصرحًا به في حديث عبد الله بن عمر أنه قال: «إنما اليهود أو أهل الكتاب يقولون السام عليكم، فإذا سلَّموا فقولوا: وعليكم»[(٢)] . ما يستثنى من ذلك شيء آخر؟

(١) رواه مسلم (٢١٦٧).
(٢) رواه البخاري (٦٢٥٧) و(٦٢٥٨). ومسلم (٢١٦٣) و(٢١٦٤).

الطلبة بعضهم مع بعض، يستثنى هذا .. يعني الطالب لا يفشي السلام مع إخوانه وزملائه وأصدقائه، لأن الخواطر طيبة والقلوب سليمة، والسلام تحية وبشاشة، تَقبُّلٌ وقَبول. فلا حاجة يقولون «يُغني ما في القلوب عن التعبير» ماتقولون في هذا الاستثناء؟

هذا الاستثناء باطل! الطلبة فيما بينهم أحق الناس بإفشاء السلام. يستثنى من ذلك أيضًا عند بعض الناس من خالفك في المنهج ووافقك في الهدف.

في الآن زُمَر ـ ولا نقول أحزابًا ـ بعضهم ينتمي إلى جماعة دون الأخرى، لكن ليت أن بعضهم سلم من بعض، بل بالعكس هم والعياذ بالله متناحرون بالألسن، ولا أدري لو حصل أن يتناحروا بالسيوف أيفعلون أم لا؟ الله أعلم، لكن بالألسن متناحرون ... يَسُبُّ بعضهم بعضًا وينفر بعضهم من بعض، ويُمضي أوقات كثيرة في مجالس عديدة للقذف في الطائفة الأخرى. مع أن الهدف واحد، كلهم يريدون الوصول إلى تحقيق العبادة، وإلى الإقبال إلى الله وربما يكون هناك من أهل البدع المصرحين لمخالفة السنة من لا يتكلمون عليه، وهذه محنة لمسناها في بعض الزمر التي كل زمرة تنحاز إلى شيء معين أو إلى منهج معين، فتجد بعضهم يضلل بعض، وهذه محنة. فمثل هذه الزُّمَر يجب أن يسلم بعضهم على بعض، ويجب أن ينصح بعضهم بعضًا، وأن يبين كل واحد لأخيه ما هو مخطئ فيه حتى يصحح الخطأ وتأتلف القلوب.

وأما أن تُضرب القلوب بعضها ببعض والعياذ بالله من أجل خلاف في المنهج مع الاتحاد في الهدف فهذا غلط عظيم.
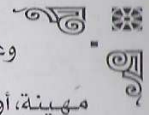
وعليه؛ فتنكَّبْ (خوارمَ المروءة)؛ في طَبْعٍ، أو قولٍ، أو عمل؛ من حِرْفة مَهينةٍ، أو خَلَّةٍ رديئةٍ، كالعُجْب، والرياء، والبَطَرِ، والخُيَلاءِ، واحتقار الآخرين، وغَشَيان مواطن الرِّيَب.
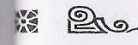
لما ذكر المروءة وأنه ينبغي لطالب العلم أن يتحلى بها. قال «تنكَّبْ» يعني: ابعد عن خوارم المروءة في طبع أو قول أوعمل، يعني في طباعك. حاول أن تكون طباعك ملائمة للمروءة، ومن المعلوم أن ليس التكحّل في العين كالكحلِ، وليس التطبّع كالطبع. ولكن الإنسان مع ممارسته للشيء ربما يكون الكسب غريزة والتطبع طبيعة وإلا فإن الإنسان لو حاول ما يحاول من أخلاق وطبعه ليس كذلك سيجد صعوبة لكنه مع التمرن يَحْسُن أو يحسن حاله وهذا مجرب، لقد سمعنا عن بعض الناس الذي كان بعيدًا عن طلب العلم، أو طالب علم كانت له أخلاق سيئة ثم لما منَّ الله عليه بالعلم والهداية صارت أخلاقه طيبة لأنه مرَّن نفسه على هذه الأخلاق حتى صارت كأنها من طباعه وغرائزه.

قوله: «**من حرفة مهينة أو خلة رديئة**»، الخلة يعني: الخصلة، والحرفة المهينة كل ما يحترف به الإنسان من عمل، ثم ضرب لذلك أمثلة. فيقول: كالعجب أن يعجب الإنسان بنفسه، فإذا استنبط فائدة قال: ما شاء الله، هذه الفائدة ما استنبطها أكبر عالم، ثم أعجب بنفسه ورأى نفسه كبيرًا وانتفخ.

الرياء: أن يُرائي الناس بأن يتكلم في العلوم أمامهم حتى يروا أنه عالم فيقال أنه عالم.

البطر: رد الحق. وهذه تحصل في المجادلات والتعصب لرأي من الآراء أو لمذهب من المذاهب، تجده يغمط الآخرين، يرد الحق لأنه خلاف ما يرى. **الخيلاء:** نتيجة العُجب، يعني يظهر نفسه بمظهر العالم الواسع العلم ومن ذلك أن يكون للعلماء في بلد ما زي خاص في اللباس، فيأتي هذا الإنسان البادىء بالعلم فيلبس لباس كبار العلماء ليظن الظان أنه من كبار العلماء، هذا من الخيلاء. كذلك أيضًا

احتقار الآخرين فالبطر هو احتقار الآخرين ـ هو الكبر كما قال عليه الصلاة والسلام: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1]. أي: احتقارهم.

«**وغشيان مواطن الريب**» التي تكون محل الشك فيه وفي مروءته وأخلاقه يتجنبها رحم الله امرءًا كفَّ الغيبة عن نفسه.

وإذا كان رسول الله ﷺ أطهر الخلق قال للرجلين الأنصاريين وهو مع زوجه صفية: «إنها صفية»، فكيف بغيره؟!

فالحاصل: إنك لا تثق بنفسك وتقول: إن الناس لا يظنون بي شيئًا فأنت وإن كنت عند الناس في هذه المثابة، لكن الشيطان يلقي في قلوبهم الشر حتى يتهموك بما أنت منه بريء فتجنب مواطن الريب حتى تسلم من الريبة.
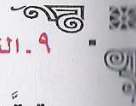
٩ـ التمتُّع بخصال الرجولة:

تمتَّع بخصال الرجولةِ؛ من الشجاعة، وشدَّة البأس في الحقِّ، ومكارم الأخلاق، والبَذْلِ في سبيل المعروف، حتى تنقطعَ دونك آمالُ الرجالِ. وعليه؛ فاحْذَرْ نواقضَها؛ من ضعف الجَأْشِ، وقلَّةِ الصبرِ، وضعفِ المكارم، فإنَّها تَهْضِمُ العلمَ، وتقطَعُ اللسان عن قَوْلِةِ الحقِّ، وتأْخُذُ بناصيتِه إلى خصومِهِ في حالةٍ تَلفَحُ بِسَمُومها في وجوه الصالحين من عبادِهِ.

هذه كالتكميل للأول، لأن التمتع بخصال الرجولة من المروءة بلاشك، فإن الإنسان إذا نزَّل نفسه منزلة الرجال، الذين هم رجال بمعنى الكلمة فإنه سوف يتمتع بما ذكره من الشجاعة وشدة البأس ومكارم لأخلاق والبذل في سبيل المعروف، حتى تنقطع دونك آمال الرجال.

(١) سبق تخريجه.

يعني: حتى لا يهم أحد أن يسبقك بما أنت عليه من هذه الخصال. فالشجاعة الإقدام في محل الإقدام، فإذا كانت الشجاعة هي الإقدام في محل الإقدام لزم من ذلك أن تسبق برأي وتفكير وحنكة، ولهذا قال المتنبي[1].

الرأي قبل شجاعة الشجعان * هو أولٌ وهي المحل الثاني**

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرة * بلغت من العلياء كل آمالِ**

فلابد من رأي؛ لأن الإقدام في غير رأي تهور وتكون نتيجته على عكس ما يريده هذا المقدم، كذلك شدة البأس في الحق، بحيث يكون قويًا فيه، صابرًا على ما يحصل من أذى أو غيره في جانب الحق.

«**مكارم الأخلاق**» سبق الكلام عليها وأنها تشمل كل خلق كريم يُحمد الإنسان عليه.

«**البذل في المعروف**» البذل يشمل بذل المال والجاه والعلم، وكل ما يُبذل للغير لكن في سبيل المعروف، لكن البذل في سبيل المنكر فهو منكر، والبذل فيما ليس بمعروف ولا منكر قد يكون من إضاعة المال.

(١) هو شاعر الزمان أبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجعفي الكوفي الأديب، الشهير بالمتنبي بلغ الذروة في النظم، وسار ديوانه في الآفاق. مات في رمضان سنة ٣٥٤ هـ. «سير أعلام النبلاء ١٦/١٩٩-٢٠١».

١٠ ـ هَجْرُ التَّرَفُّهِ:

لا تسترسلْ في (التنعُّم والرفاهية)؛ فإنَّ «البذاذةَ من الإيمان»[1]، وخُذ بوصيَّة أمير المؤمنين عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه في كتابه المشهور، وفيه: «وإيَّاكم والتنعُّمَ وزيَّ العَجَم، وتَمَعْدَدُوا، واخْشَوْشِنوا ....»[2].

قوله: «**لا تسترسل في التنعم والرفاهية**» وهذه النصيحة تقال لطالب العلم ولغير طالب العلم لأن الاسترسال في ذلك مخالف لإرشاد النبي ﷺ فقد كان ينهي عن كثرة الإرفاة ويأمر بالإحتفاء أحيانًا، والإنسان الذي يعتاد الرفاهية يصعب عليه مواجهة الأمور، لأنه قد تأتيه الأمور من وجه لا يستطيع فيه الرفاهية. ولنضرب لهذا مثلاً: الذي ذكرناه في الحديث «يأمر بالاحتفاء أحيانًا» بعض الناس لا يحتفي دائمًا، عليه الجورب وعليه الخف، لا تجده يمشي. هذا الرجل لو عرض له عارض وقيل له تمشي ٥٠٠ متر بدون وقاية للرجل، لوجدت ذلك يشق عليه مشقة عظيمة وربما تدمى قدمه من مماسَّة الأرض، لكن لو عود نفسه على الخشونة وترك الترفه دائمًا لحصل له خير كثير، ثم إن البدن لو لم يُعوَّد على مثل هذه الأمور لم يكن عنده مناعة فتجده يتألم من أي شيء من ذلك، لكن إذا كان عنده مناعة لا يهتم به لهذا تجد أيدي العمال الآن أقوى بكثير من أيدي طلبة العلم، ما في مانع لطلبة العلم لأنها تعودت على ذلك، حتى أن بعض العمال فيما سبق لما كانوا يعانون الطين واللبن إذا مسستها كأنك مسست حجرًا .. من خشونتها، ولو أنه ضم أصابعه على يدك لآلمك كثيرًا، لأنه اعتاد على ذلك. فترفيه الإنسان نفسه لاشك أنها ضرر عليه كبير.

(١) كما صحَّ عن النبي ﷺ راجع له: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤١)، و«تعظيم قدر الصلاة» (رقم ٤٨٤) لابن نصر المروزي.

(٢) «مسند علي بن الجعد»: (١/٥١٧، رقم١٠٣٠)، وعنه «الفروسية» لابن القيم: (ص٩)، و«أدب الإملاء والاستملاء»: (ص٨١١). وأصله في «الصحيحين» وغيرهما.

قوله «**البذاذة من الإيمان**» ما هي البذاذة؟ البذاذة عدم التنعم والترفه. «**وإياكم وزي العجم**» هذه الجملة تحذيرية، لأن العرب عندهم جمل تحذيرية وعندهم جمل إغرائية، فإن وردت في مطلوب فهي إغراء، وإن وردت في محذور فهي تحذير فإن قلت لشخص: الأسد الأسد. فهذا تحذير، ولو قلت: الغزال الغزال. هذا إغراء. أما «إيا» فهي للتحذير. قال ابن مالك

إياك والشر ونحوه نصب ❖❖❖ مُحذِر بما استتر وجب

«**إياكم والتنعم**» هذه الواو للعطف، وقيل للمعية[1]. والمعنى: أحذركم مع التنعم. أي: أن تكونوا مع التنعم باللباس، بالبدن، بكل شيء. والمراد بذلك: كثرته. لأن التنعم بما أحل الله على وجه لا إسراف فيه من الأمور المحمودة، ومن ترك التنعم بما أحل الله من غير سبب شرعي، فهو مذموم.

وقوله «**زي العجم**» ما هو زي العجم؟ شكله. سواء كان هذا في الحلية، أو كشكل شعر الرأس وما أشبه ذلك. أو كان باللباس، فإننا منهيون عن زي العجم، وليس المراد بالعجم أمة إيران، بل المراد بالعجم كل من سوى العرب، فيدخل فيه الأوربيون والشرقيون في آسيا وغيرهم، لكن المسلم من العجم التحق بالعرب حكمًا لا نسبًا، لأنه اقتدى بمن بُعث في الأميين رسولاً ﷺ.

وقوله «**اخشوشنوا**» فهو من الخشونة التي هي ضد الليونة والتنعم. وكل هذه وصايا من عمر رضي الله عنه . . وصايا نادرة، لو أن الناس عملوا بها سواء من طلبة العلم أو غير طلبة العلم لكان فيه خيرٌ كثير، لكن الآن في البلاد التي منَّ الله عليها بالأمن وطيب العيش وكثرة المال، صار الأمر بالعكس فالتنعم موجود لا يريد الإنسان إلا أن يركب مركبًا مريحًا، ويبني قصرًا مشيدًا، ولا يناله شيء من الأذى لا بردٌ في برد ولا حرٌ في حر ولا يمسَّه شيء، متنعمٌ تمامًا، ولهذا كثر فيهم الأوبئة التي تترتب على عدم

(١) أي بمعنى «مع» التي تفيد الظرفية، ولا يقع بعدها إلا اسمًا، ويكون منصوبًا على أنه مفعولاً معه. فنقول: سار الشاعر والنيلَ. أما العاطفة فبخلاف ذلك.

الحركة، مثل: السمنة، والضغط، وضيق التنفس بعض الناس تجده شابًا، تصعد أنت وإياه الجبل لا ينتصف الجبل إلا وقد سارع نفسه حتى كاد يخور بدنه، وأنت مستريح. لماذا؟ لأنك تعودت وهو لم يتعود رغم أنه شاب، لكن لم يعود نفسه.

زي العجم الآن موجود، يترقبون كل موضة تخرج حتى يقلدوها، وقد اتعبت النساء رجالها في هذا الباب. تأتي صباح النهار بلباس من أحسن الألبسة نظيف، ساتر، واسع، ثم تنزل إلى السوق في آخر النهار، فإذا بموضة جديدة فتصيح . . اريد أن أشتري هذا الثوب. مع أنه أضيق من الأول وأسوء من الأول، وأردأ من الأول . . لكن هذا شيء جديد لابد أن تأخذه، خصوصًا من منَّ الله عليها بالمال، كبعض المدرسات وغيرهم، تجده ما يهم تشتري ما تريد. هذا غلط، ولهذا كثر الآن بين أيدي النساء مجلات تسمى «البوردا» تأخذها المرأة وتنظر ما يروق لها، حتى لو كان لباسًا ما يتناسب مع الشرع، لكنه جديد. نسأل الله السلامة والهداية.

- وعليه؛ فَازْوَرَّ عن زَيْفِ الحضارة؛ فإنَّه يُؤَنِّثُ الطِّباعَ، ويُرْخي الأعصابَ، ويُقَيِّدُك بخيط الأوهام، ويَصِلُ المُجِدُّونَ لغاياتهم وأنتَ لم تَبْرَح مكانك، مشغولٌ بالتأنُّق في ملبسك، وإن كان منها شِيَاتٌ ليست محرَّمةً ولا مكروهةً لكن ليست سَمْتًا صالحًا، والحِلْيَةُ في الظاهر كاللِّباس عنوانٌ على انتماء الشخص، بل تحديدٌ له، وهل اللِّباس إلا وسيلة من وسائل التعبيرِ عن الذات؟!

فكن حَذِرًا في لباسِك؛ لأنه يُعَبِّرُ لغيرك عن تقويمِك؛ في الانتماء، والتكوين، والذوق، ولهذا قيل: الحليةُ في الظاهر تدلُّ على ميلٍ في الباطن، والناس يصنِّفونك من لباسك، بل إنَّ كيفية اللُّبس تعطي للناظرِ تصنيفَ اللابسِ من: الرَّصانة والتعَقُّل، أو التمشيُخ والرَّهْبَنةِ، أو التَّصابي وحُبِّ الظهور. فَخُذْ من اللباسِ ما يُزينك ولا يُشينك، ولا يَجْعَلْ فيك مقالاً لقائلٍ، ولا لَمْزًا للامزٍ، وإذا تلاقى مَلْبَسُك وكيفيةَ لُبسِك بما يلتقي مع شَرَفِ ما تحمله

من العلم الشرعيِّ؛ كان أدعى لتعظيمك والانتفاعِ بعلمِك، بل بِحُسْنِ نيَّتك يكون قُربةً؛ إنه وسيلةٌ إلى هداية الخلق للحقِّ. وفي المأثور عن أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه[1]: «أحبُّ إليَّ أنْ أنظُرَ القارِىءَ أبيضَ الثياب».

أي: لِيَعْظُمَ في نفوس الناس، فيُعَظَّمَ في نفوسِهم ما لديه من الحقِّ. والناسُ. كما قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى. كأسرابِ القَطَا، مَجْبُولون على تشبُّه بعضهم ببعضٍ[2]. فإيَّاك ثم إيَّاك من لباس التَّصابي، أمَّا اللباسُ الإفرنجيُّ؛ فغيرُ خافٍ عليك حُكْمُهُ، وليس معنى هذا أن تأتي بلباسٍ مُشوَّهٍ، لكنه الاقتصادُ في اللِّباسِ برسم الشرع، تَحفُّه بالسَّمْتِ الصالح، والهَدْيِ الحَسَنِ.

وتَطلَّبْ دلائلَ ذلك في كتب السُّنَّة والرِّقاق لا سيَّما في «الجامع» للخطيب[3]. ولا تستنكرْ هذه الإشارة؛ فمازال أهلُ العلم يُنَبِّهون على هذا في كُتُب الرِّقاق والآدابِ واللِّباس[4]، والله أعلم.

لما ذكر ـ وفقه الله ـ هجر الترف، اطنب في ذكر اللباس الظاهر لأن اللباس الظاهر عنوان على اللباس الباطن، لذلك فإنك تجد رجلان كلاهما عليه ثوب مثل الآخر فتزدري أحدهما ولا تهتم بالآخر، تزدري بمن لباسه ينبغي أن يكون على غير هذا الوجه إما في الكيفية، وإما في اللون، وإما في الخياطة أو غير ذلك.

والثاني ـ لا ترفع له رأسًا ولا ترى في لباسه بأسًا لأن لكل قالبٍ ما يناسبه فمثلاً: العِقال هو في الأصل لا بأس فيه، بل إن بعضهم يقول: إنه العمامة العصرية.

(١) «الإحكام» للقرافي: (ص٢٧١).
(٢) «مجموع الفتاوى»: (٢٨/ ١٥٠).
(٣) «الجامع»: (١/ ١٥٣ـ١٥٥).
(٤) «أدب الإملاء والاستملاء»: (ص١١٦ـ١١٩)، «اقتضاء الصراط المستقيم»، «مجموع الفتاوى»: (٢١/ ٥٣٩)، وانظر: «الروح» لابن القيم: (ص٤٠).

العمامة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت لفافة تطوى على الرأس وكانت تحتاج إلى تعب في طيها ونقلها، لكن هذا مطويٌّ جاهز ليس عليك إلا أن تضعه على رأسك، فهو العمامة إلا أنه عمامة ميسرة، ولهذا كان بعض الناس فيما سبق يجعلون (العُقُل) بيضاء لتكون كالعمامة تمامًا. هذه (العُقُل) لا يلبسها كل الناس على حدٍ سواء. يمر بك رجلان كلاهما قد لبس العقال، أحدهما تزدريه والثاني لا تهتم به، لأن الأول لبس ما لا يلبسه مثله، والثاني لبس ما يلبسه مثله. وأشياء كثيرة من هذا النوع.

وقول الشيخ بكر ـ وفقه الله: «**يعبر لغيرك عن تقويمك في الإنتماء والتكوين والذوق**»، هذا أيضًا صحيح، لأن كل إنسان قد يزن من لاقاهم بحسب ما عليهم من اللباس كما أنه يزن بالنسبة لحركاته وكلامه وأقواله وخفته ورزانته، كذلك في اللباس ثم حذر من لباس التصابي. بأن يلبس الشيخ الكبير السن ما يلبسه الصبيان من رقيق الثياب وما أشبه ذلك فهذه أيضًا من الأمور التي لا ينبغي للإنسان أن يمارسها.

«**أما اللباس الإفرنجي فغير خاف عليك حكمه**». وحكمه التحريم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[1]. ولكن ما هو اللباس الإفرنجي؟ اللباس الإفرنجي هو المختص بهم، بحيث لا يلبسه غيرهم، بحيث إذا رآه الرأي قال: إن لابسه من الإفرنج، وأما ما كان شائعًا بين الناس من الإفرنج وغير الإفرنج فهذا لا يكون بالتشبه، لكن قد يحرم من جهة أخرى، مثل أن يكون حريرًا بالنسبة للرجال، أو قصيرًا بالنسبة للنساء أو ما أشبه ذلك.

ثم لما خاف أن الذهن يمضي بعيدًا. قال: «**ليس معنى هذا أن تأتي بلباس مشوه**» كما يفعل بعض الناس إظهارًا للزهد، تجد ثوبه ينشق. يقول: اتركه لا يهتم به، يتوسخ. يقول: ما يهم .. أنا مآلي إلى التراب. هذا ما هو طيب: الإنسان ينبغي أن يعرف نفسه وما يأتي بما يكون هزوًا في حقه، لأنه مأمور بأن يدفع الريبة عن نفسه. رحم الله امرأ كفَّ الريبة عن نفسه.

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٠) ضمن حديث طويل، وأبو داود (٤٠٣١).

١١ ـ الإعراضُ عن مَجالسِ اللَّغْو:

لا تَطأْ بساطَ من يَغْشون في ناديهم المُنكَرَ، ويَهْتِكون أستارَ الأدب؛ مُتغابيًا عن ذلك، فإن فعلتَ ذلك؛ فإنَّ جنايتَك على العلمِ وأهلِهِ عظيمةٌ.

أما قوله: «**الإعراض عن مجالس اللغو**» فاللغو نوعان:

الأول ـ لغو ليس فيه فائدة ولا مضرة.

والثاني ـ لغو فيه مضرة.

أما الأول فلا ينبغي للعاقل أن يُذهب وقته فيه، لأنه خسارة.

وأما الثاني فإنه يحرم عليه أن يمضي وقته فيه، لأنه منكر محرم.

والمؤلف كأنه حمل الترجمة على المعنى الثاني الذي هو: اللغو المحرم، ولا شك أن المجالس التي تشتمل على المحرم لا يجوز للإنسان أن يجلس فيها لأن الله عز وجلَّ يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ (سورة النساء: ١٤٠).

فمن جلس مجلس منكر وجب عليه أن ينهي عن هذا المنكر، فإن استقامت الحال فهذا هو المطلوب، وإن لم يستقم وأصروا على منكرهم فالواجب أن ينصرف. خلافًا لما يتوهمه بعض العامَّة يقولون: فإن الرسول ﷺ قال: «**فإن لم يستطع فبقلبه**»[1]. وأنا كاره لهذا المنكر في قلبي.

يقال له: لو كنت كاره حقًا ما جلست معهم، لأن الإنسان لا يمكن أن يجلس على مكروه، إلا أن يكون مكرهًا، أما شيء يكره وأنت جالس بإختيارك فأنت في دعواك ـ كراهيته ـ ليست بصحيحة.

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

قوله: «**جنايتك على العلم وأهله عظيمة**» أما كونه جناية على نفسه فالأمر ظاهر، يعني: لو رأيت طالب علم يجلس مجالس اللهو واللغو والمنكر، فجنايته على نفسه واضحة وعظيمة، لكن كيف تكون جناية على العلم وأهله؟ بأن الناس يقولون: هؤلاء طلبة العلم هؤلاء العلماء.. هذا نتيجة العلم وما أشبه ذلك فيكون قد جنى على نفسه وعلى غيره.

١٢ ـ الإعراضُ عن الهَيْشات:

التَّصَوُّنُ من اللَّغط والهَيْشات؛ فإنَّ الغَلَط تحت اللَّغَط؛ وهذا يُنافي أدبَ الطلب.

«**الهيشات**» يعني بذلك هيشات الأسواق. كما جاء في الحديث التحذير منها لأنها تشمل على لغط وسبٍّ وشتم، وبعض طلبة العلم يقول: أنا أقعد في الأسواق من أجل أن أنظر ماذا يفعل الناس وماذا يكون بينهم. فنقول: هناك فرق بين الاختبار والممارسة.

يعني لو ذُكر لك أن في السوق الفلاني كذا وكذا، فهنا لا حرج عليك أن تذهب وتختبر بنفسك، لكن لو كان جلوسك في هذا السوق مستمرًا، تمارسه كل عصر تروح إلى السوق لكان هذا خطأ بالنسبة لك لأنه إهانة لك ولطلبة العلم عمومًا وللعلم الشرعي أيضًا.

ومن لطيفِ ما يُستحضر هنا ما ذكره صاحبُ «الوسيط في أدباء شنقيط» وعنه في «مُعجم المعاجم»: «أنه وقع نزاعٌ بين قبيلتين، فَسَعَتْ بينهما قبيلة أُخرى في الصلح، فتراضَوْا بحُكم الشرع، وحكَّموا عالمًا، فاستظهر قتلَ أربعةٍ من قبيلةٍ قُتِلوا من القبيلةِ الأُخرى، فقال الشيخُ بابُ بن أحمد: مثلُ هذا لا قصاصَ فيه. فقال القاضي: إنَّ هذا لا يُوجَد في كتاب. فقال: بل لم يَخْلُ منه كتابٌ، فقال القاضي: هذا «القاموس». يعني أنه يدخلُ في عموم كتاب. فتناول

صاحبُ الترجمةِ «القاموسَ»، وأولُ ما وقع نظره عليه: والهَيْشَةُ: الفتنةُ، وأمُّ حُبَيْنٍ[١]، وليس في الهَيْشَاتِ قَوَدٌ»؛ أي: في القتيلِ في الفتنةِ لا يُدرى قاتلُه، فتعجَّب الناسُ من مثل هذا الاستحضارِ في ذلك الموقفِ الحَرِج. أ هـ ملَخَّصًا.
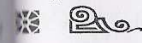
هؤلاء القبيلة حدثت بينهم فتنة، فقتلت من إحدى القبيلتين أربعة رجال فحضروا إلى القاضي. فقال الشيخ واسمه باب بن أحمد: مثل هذا لا قصاص فيه. قال القاضي الحاكم: إن هذا لا يوجد في كتاب.

أي: أين الدليل على أنه لا يوجد في كتاب. فقال: بل لم يخل منه كتاب. فقال القاضي: هذا القاموس. أي أنه يدخل في عموم كتاب.

كلمة «كتاب» عامة تشمل كل الكتب. العقيدة والفقه والنحو والأدب وكل شيء. لأن كتاب نكرة في سياق النفي تكون للعموم.

«القاموس» كتاب لغة.

«أم حُبين» دويبة تشبه الخنفساء.

١٣ ـ التَّحلِّي بالرِّفْقِ:

الْتزم الرِّفقَ في القول؛ مُجْتنبًا الكلمةَ الجافيةَ؛ فإنَّ الخطابَ اللَّيِّنَ يتألَّفُ النفوسَ النَّاشزةَ. وأدلَّةُ الكتابِ والسنةِ في هذا متكاثرةٌ.

هذا من أهم الأخلاق لطالب العلم، سوء كان طالب أم مطلوب ـ أي: معلم ـ فالرفق كما قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[٢]. و«ما كان الرفق في

(١) هي دويبة.
(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).

شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه»[١]. لكن لابد أن يكون الإنسان رفيقًا من غير ضعف، أما أن يكون رفيقًا يُمتهن لا يؤخذ بقوله ولا يُهتم به فهذا خلاف الحزم، لكن يكون رفيقًا في مواضع الرفق وعنيفًا في مواضع العنف، ولا أحد أرحم بالخلق من الله عزَّ وجلَّ، ومع ذلك يقول: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (سورة النور: ٢). فلكل مقام مقال، لو أن الإنسان عامل ابنه بالرفق في كل شيء حتى في موضع الحزم ما استطاع أن يربيه.

١٤ ـ التأمُّل:

التحلِّي بالتأمل؛ فإنَّ من تأمَّل أدرك، وقيل: «تأمَّلْ تُدْرِكْ». وعليه؛ فتأمَّلْ عند التكلُّم: بماذا تتكلَّم؟ وما هي عائدتُه؟ وتَحرَّزْ في العبارةِ والأداءِ دون تعنُّتٍ أو تحذلق، وتأمَّلْ عند المذاكرة كيف تختارُ القالبَ المناسبَ للمعنى المُرادِ، وتأمَّلْ عند سؤالِ السائل كيف تتفهَّمُ السؤالَ على وجهه حتى لا يَحتَمل وجهين؟ وهكذا.

«التأمل» يريد بذلك: التأني، وألاَّ تتكلم حتى تعرف فيما تتكلم، وماذا تكون النتيجة. ولهذا يقولون: لا تضع قدمك إلا حيث علمت السلام. لأن الإنسان يخطو، يمشي. لا يضع قدمه إلا في حفرة أم شوكًا أم حصىً حتى يعرف أين يضع قدمه، فالتأمل هذا مهم، ولا تتعجل إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولذلك قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل**

وربما فات قدم جل أمرهم * مع التأني وكان الرأي لو عَجلُوا**

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤) وانظر: مصابيح السنة للبغوى رقم (٣٩٤٢).

فإذا دار الأمر بين أن أتأنى وأصبر أو أتعجل وأُقْدِمُ . فأيهما أقدم؟ الأول. لأن القولة أو الفعلة إذا خرجت منك لا يمكن أن ترجع. لكن مادمت لم تقل ولم تفعل فأنت حر. فتأمل بماذا تتكلم به، وما هي فائدة الكلام، ولهذا قال النبي ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1] . «**تحرز في العبارة والأداء**» وهذا أيضًا من أهم ما يكون. يعني: لا تطلق العبارة على وجه تؤخذ عليك بل تحرز إما بقيود تضيفها إلى الإطلاق، وإما بتخصيص تضيفه إلى العموم، وإما بشرط تقول إن كان كذا أو ما أشبه ذلك. ولكن أقول دون تعنت أو تحزلق. تحزلق

«**وتأمل عند المذاكرة كيف تختار القالب المناسب للمعنى المراد**» لعله أراد تأمل عند المذاكرة، أي عند تذاكر غيرك في شيء وتناظره، فاختر القالب المناسب للمعنى المراد.

«**وتأمل عند سؤال السائل كيف تتفهم السؤال على وجهه حتى لا يحتمل وجهين**» وكذلك في الجواب وهو الأهم، لأن السؤال يسهل على المسئول أن يستفهم من السائل ماذا تريد؟ أريد كذا وكذا. فيتبين الأمر، لكن الجواب إذا وقع مجملاً فإنه عند الناس على تفاسير متعددة، كل إنسان يفسر هذا الكلام بما يريد وبما يناسبه.

١٥ ـ الثباتُ والتثبُّت:

تَحَلَّ بالثباتِ والتثبُّتِ، لاسيَّما في المُلِمَّاتِ والمُهِمَّاتِ، ومنه: الصبرُ والثباتُ في التلقِّي، وطيُّ الساعاتِ في الطَّلَبِ على الأشياخ، فإنَّ «مَنْ ثَبَتَ نَبَتَ».

هذا أهم ما يكون في هذه الآداب، هو التثبت فيما ينقل من أخبار، والتثبت فيما يصدر منك من الأحكام.

(١) رواه البخاري (٦٠١٨) ومسلم (٤٧).

فالأخبار إذا نُقلت فلابد أن تتثبت أولاً. هل صحت عمن نقلت إليه أو لا؟ ثم إذا صحت فلا تحكم حتى تتثبت في الحكم، ربما يكون الخبر الذي سمعته مبنيًا على أصل أنت تجهله فتحكم بأنه خطأ، والواقع بأنه ليس بخطأ، ولكن كيف العلاج في هذه الحال؟

العلاج بأن تتصل بمن نُسب إليه الخطأ وتقول: نُقل عنك كذا وكذا فهل هذا صحيح؟ ثم تناقشه. فقد يكون استنكارك ونفور نفسك منه أول وهلة سمعته لأنك لا تدري ما سبب هذا المنقول. ويُقال: إذا عُلم السبب بطل العجل. أو العجب؟

«**الثبات والتثبت**» هذان شيئان متشابهان لفظًا، ومختلفان معنى.

فالثبات: معناه الصبر والمصابرة، وألا يمل ولا يتضجر وألا يأخذ من كل كتاب نتفة، أو من كل فن قطعة ثم يترك. لأن هذا هو الذي يضر الطالب، يقطع عليه الأيام بلا فائدة إذا لم يثبت على شيء. تجده مرة في الأجرومية، ومرة في متن قطر الندى ومرة في الألفية. في المصطلح مرة في النخبة ومرة في ألفية العراقي، ويتخبط في الفقه مرة في زاد المستقنع ومرة في عمدة الفقه، مرة في المغني مرة في شرح المهذب وهكذا. هذا في الغالب أنه لا يحصل علم، ولو حصل علمًا فإنما يحصل مسائل لا أصول المسائل كالذي يلتقط الجراد واحدة بعد أخرى، لكن التأصيل والرسوخ والثبات هذا هو المهم. اثبت بالنسبة للكتب التي تقرأ وتراجع، واثبت بالنسبة للشيوخ أيضًا الذين تتلقى عنهم لا تكن ذواقًا كل أسبوع عند شيخ، كل شهر عند شيخ، قرر أولاً من ستتلقى العلم عنده، ثم إذا قررت ذلك فاثبت. فإن من ثبت نبت، ومن لم يثبت لم ينبت . ولم يحصل على شيء.

الفصل الثاني

كيفية الطلب والتلقي

١٦ - كيفيَّة الطَّلَبِ ومراتِبُهُ:

«مَنْ لم يُتْقِنِ الأُصولَ؛ حُرِمَ الوُصولَ»[١]، و«من رام العلم جُمْلَةً؛ ذهب عنه جُملةً»[٢]، وقيل أيضًا: «ازْدِحامُ العلمِ في السمع مَضَلَّةُ الفهم»[٣]. وعليه؛ فلابُدَّ من التأْصيل والتأْسيس لكُلِّ فنٍ تطلبُه، بضبط أصلِه ومُختصره على شيخٍ مُتقنٍ، لا بالتحصيل الذاتي وَحْدَه، وآخذًا الطَّلَبَ بالتدرُّج.

قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ (سورة الإسراء: ١٠٦). وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (سورة الفرقان: ٣٢). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (سورة البقرة: ١٢١).

«كيفية الطلب» وهذه أيضًا مهمة، ليبني الإنسان طلبه على أصول ولا يتخبط خبط عشوائي. يقول «من لم يتقن الأصول، حرم الوصول» وقيل بعبارة أخرى: «من فاته الأصول حرم الوصول». لأن الأصول هي العلم والمسائل فروع كأصل الشجرة وأغصانها، إذا لم تكن الأغصان على أصل جيد فإنها تذبل وتهلك.

ما هي الأصول؟ هل هي الأدلة الصحيحة؟ أم هي القواعد والضوابط؟ أو هذا وهذا؟ الثاني هو المراد. تبني على الأصول من الكتاب والسنة وتبني على قواعد

(١) «تذكرة السامع والمتكلم»: (ص ١٤٤).
(٢) «فضل العلم» محمد رسلان: (ص١٤٤).
(٣) «شرح الإحياء»: (١/ ٣٣٤).

منذر أبو سعيد

وضوابط مـأخوذة بالتتبع والاستقراء من الـكتاب والسنة ترجع إليهـا أحكام الكتاب والسنة، وهذه من أهم ما يكون لطالب العلم. متى تجد المشقة تجد التيسير. هذا أصل من الأصول مأخوذ من الكتاب والسنة.

من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (سورة الحج:٧٨). ومن السنة قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب»[1]. وقال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[2]. هذا أصل لو جاءت ألف مسـألة بصور متنوعة لأمكنك أن تحكم عـلى هذه المسائل بناء على هذا الأصل، لكن لو لم يكن لديك هذا الأصل وتأتيك مسألتان أشكل عليك الأمر.

كـذلك أيضاً قـال: «من رام العلم جـملة ذهب عنه جـملة» هذا أيضاً له وجـه صحيح إذا أراد الإنسـان أن يأخذ العلم جميعـاً فإنه يفوته العلم جمـيعاً، لأن هذا لا يمكن، لابد أن تأخذ العلم شيـئاً فشيئاً، كسلم تصـعد عليه من الأرض إلى السطح، ليس العلم مأكول كـتبت فيه العلوم، تُأكل ثم تقول انـتهى هضمت هذا العلم.. لا العلم يحتـاج مرونة وصبر وثبات وتـدرج، وقيل أيضاً: «ازدحام العلم في السمع مضلة الفهم» يعني كثـرة استمـاع العلم توجب أنْ تضل في فهـمك. وهذا أيضاً ربما يكون صحيحاً، فالإنسان إذا ملأ سمعه بما يسمع أو بصره بما يقرأ ربما ازدحمت العلوم عليه ثم تشتبه عليه ثم يعجز عن التخلص منها.

قال: «وعليه، فلابد من التخصيص والتأسيس لكل فن تطلبه بضبط أصله ومختصره على شيخ متقن». لابد من هذا ولو على شيخ أعلى منك بقليل، لأن بعض الناس إذا رأى طالباً من الطلبة يتميز عنه بشيء من التميز جعله شيـخاً وعنده شيوخ أعلم من هذا بكثير، لكن يجـعل هذا الصغير شيخـه لأنه بذَّه بشيء من مسائل العلم. وهذا

(١) رواه أحمد. وهو في صحيح الجامع برقم (٣٧٧٨).
(٢) رواه مسلم (٢٣٥٧).

غير صحـيح. بل اختر المشايخ ذوي الإتقان، وأيضاً نضيف إلى الإتقـان وصفاً آخر وهو الأمانة لأن الإتقان قوة، والقوة لابد فيها من أمانة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (سورة القصص:٢٦). ربما يكون العالم عنده اتقان وعنده سـعة علم وعنده قدرة على التفريع وعلى التقسيم وعلى كل شيء، لكن ليس عنده أمانة، فربما أضلك من حيث لا تشعر. «لا بالتحصيل الذاتي وحده» يعني لا تأخذ العلم بالتحصيل الذاتي، أن تقرأ الكتب فـقط دون أن يكون لك شيخاً مـعتمداً، ولهذا قـيل: «من كان دليله كتابـه كان خطؤه أكثر من صـوابه». أما من أخذ عن عالم، عن شـيخ فإنه يستـفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى ـ قصر المدة.

الفائدة الثانية ـ قلة التكلف.

وفيـه فائـدة ثالثة ـ هي أن ذلك أحرى بالصـواب، لأن هذا الشيخ عالم متـعلم مـرجع، فيـعطيك الشيء ناضجـاً، وإن كان عـنده شيء من الأمانة فـإنه يمرنه على المراجعة والمطالعة. أما من اعتمد على الكتب فإنه لابد أن يكرِّس جهوده ليلاً ونهاراً، ثم إذا طـالع الكتب التي يقـارن فيـها بين أقـوال العلمـاء، فـسيـقت أدلة هـؤلاء، وأدلـة هؤلاء. من يدله على أن ذلك أصوب؟ يبقى متـحيراً. ولهذا نرى أن ابن القيم ـ رحـمه الله ـ عندمـا يناقش قولين لأهل العلم سـواء في «زاد المعاد» أو فـي «إعلام الموقعين» إذا ساق أدلة هذا القول وعلله. تقـول: هذا هو القول الصواب. ولا يجوز العـدول عنه بأي حال من الأحـوال، ثم ينقض ويأتي بالقـول المناقض ويأتي بالأدلة وعلله. فتقول هذا هو القول الصواب.

«آخذاً الطلب بالتدرج» ثم استدل بالآيات.

فأمامك أمورٌ لابُدَّ من مراعاتها في كُلِّ فَنٍّ تطلبُهُ:

١ - حِفْظُ مختصرٍ فيه.

٢ - ضبطُه على شيخ مُتْقِنٍ.

٣ - عدمُ الاشتغالِ بالمطوَّلاتِ وتفاريقِ المصنَّفات قبل الضبطِ والإتقان لأصلِه.

٤ - لا تنتَقِل من مُخْتَصرٍ إلى آخَرَ بلا موجبٍ، فهذا من باب الضَّجَرِ.

٥ - اقتناصُ الفوائدِ والضوابطِ العلميَّة.

٦ - جمعُ النَّفسِ للطلبِ والترقِّي فيه، والاهتمامُ والتحرُّقُ للتحصيل والبلوغ إلى ما فوقه حتى تفيضَ إلى المطوَّلات بسابلةٍ مُوثقةٍ.

«أولاً - حفظ مختصر فيه» فمثلاً إذا كنت تطلب النحو فاحفظ مختصراً فيه، فإن كنت مبتدءاً فلا أرى أحسن من متن الأجرومية[1]، لأنه واضح جامع وفيه بركة ثم متن الألفية، ألفية ابن مالك. لأنها خلاصة علم النحو كما قال هو نفسه:

أحصى من الكافية الخلاصة ❖❖❖ كما اقتضى فنّاً بلا خصاصة

في الفقه: احفظ «زاد المستقنع» لأن هذا الكتاب مخدوم في الشروح والحواشي والتدريس، وإن كان بعض المتون الأخرى أحسن منه من وجه، وإلا إنه أحسن منها من وجه آخر من حيث كثرة المسائل الموجودة فيه، ومن حيث أنه مخدوم بالشروح والحواشي وغير ذلك.

في الحديث: متن عمدة الأحكام وإن ترقيت فبلوغ المرام. وإذا كنت تقول إما هذا أو هذا فبلوغ المرام أحسن لأنه أكثر، ولأن الحافظ ابن حجر رحمه الله يبين درجة الحديث، وهذا مفقود بالنسبة لعمدة الأحكام، وإن كان درجة الحديث فيها معروفة لأنه لم يضع في هذا الكتاب إلا ما اتفق عليه الشيخان. البخاري ومسلم.

(١) مطبوع بشرح سماحة الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - وهو من مطبوعات دار البصيرة.

في التوحيد: من أحسن ما قرأنا كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وقد يسَّر الله في الآونة الأخيرة من خرَّج أحاديثه وبين ما في بعضها من ضعف، والحق أحق أن يُتبع.

في الأسماء والصفات: من أحسن ما قرأت «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فهي كتاب جامع مبارك مفيد. وهلم جرا . . . خذ من كل فن تريد طلبه كتاباً مختصراً فيه واحفظه.

«ثانياً - ضبطه على شيخ متقن» ولو قال: ضبطه وشرحه لكان أولى، لأن المقصود ضبطه وتحقيق ألفاظه وما كان زائداً أو ناقصاً، وكذلك الشرح. استشرح هذا المتن على شيخ متقن، وكما قلنا فيما سبق أنه يجب أن يضاف إلى الاتقان صفة أخرى وهي الأمانة.

«ثالثاً - عدم الاشتغال بالمطولات» وهذه مهمة جداً لطالب العلم، أن يتقن المختصرات أولاً حتى ترسخ المختصرات بذهنه ثم بعد ذلك يفيض إلى المطولات، لكن بعض الطلبة قد يغرِّب، فيطالع المطولات ثم إذا جلس مجلساً قال: قال صاحب المغني، قال صاحب المجموع، قال صاحب الإنصاف، قال صاحب الحاوي يُظهر أنه واسع الاضطلاع وهذا خطأ. نحن نقول ابدأ بالمختصرات أولاً حتى ترسخ العلوم في ذهنك، ثم إذا منَّ الله عليك فاشتغل بالمطولات.

«رابعاً - لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب فهذا من باب الضجر» التنقل من مختصر إلى آخر، أو كتاب فوق المختصر إلى آخر هذه آفة عظيمة، تقطع على الطالب طلبه وتضيع على الطالب أوقاته، كل يوم له كتاب، بل كل ساعة له كتاب. وهذا خطأ، إذا عزمت أن يكون قرارك الكتاب الفلاني فاستمر، لا تقل اقرأ فصلاً في هذا الكتاب ثم تقول انتقل إلى آخر، فإن هذا مضيعة الوقت.

أما إذا كان هناك موجب، كأن لم تجد أحدًا يدرسك في هذا المختصر ورأيت شيخًا موثوقًا بإتقانه وأمانته يدرس مختصرًا آخر فهذا موجب لا حرج عليك أن تنتقل من هذا إلى هذا.

«خامسًا. اقتناص الفوائد والضوابط العلمية» وهذا أيضًا من أهم ما يكون الفوائد التي لا تكاد تطرق على الذهن أو التي يَندُرُ ذكرها والتعرض لها أو التي تكون مستجدة تحتاج إلى بيان حكم فيها، هذه اقتنصها قيدها، لا تقل هذا أمر معلوم عندي ولا حاجة إلى أن أقيدها، إن شاء الله أنا لا أنساها. فإنك سرعان ما تنساها.

أما الضوابط فناهيك بها، فأيضًا احرص على الاهتمام بالضوابط، ومن الضوابط ما يذكره الفقهاء تعليلاً للأحكام فإن كل التعليلات للأحكام الفقهية تعتبر ضوابط، لأنها تنبني عليها الأحكام، فهذه أيضًا احتفظ بها. لأن كل علة ينبني عليها مسائل كثيرة، إذ أن العلة ضابط يدخل تحته جزئيات كثيرة. مثلاً إذ قال: إذا شك في طهارة الماء أو نجاسته، فإنه يبني على اليقين، هذا على كل حال تعتبر حكمًا وتعتبر ضابطًا أيضًا يعلل، لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فإذا شك في نجاسة طاهر فهو طاهر، أو في طهارة نجس فهو نجس لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان. فإذا شك في نجاسة طاهر فهو طاهر، أو في طهارة نجس فهو نجس لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان.

ولهذا لو أن الإنسان كلما مرَّ عليه مثل هذه التعليلات ضبطها وحررها ثم حاول في المستقبل أن يبني عليها مسائل جزئية لكان في هذا فائدة كبيرة له ولغيره.

«سادسًا. جمع النفس للطلب والترقي فيه، والاهتمام والتحرق للتحصيل والبلوغ إلى ما فوقه حتى تفيض إلى المطولات بسابلة موثقة» هذا أيضًا مهم، أن الإنسان يجمع نفسه للطلب فلا يشتتها يمينًا ويسارًا يومًا يطلب العلم، يومًا يفكر أن يفتح مكتبة، يوم ثاني يقول: لا أروح إلى مبيع الخضار. هذا ما هو صحيح.

جمع النفس على الطلب مادمت مقتنعًا بأن هذا منهجك وسبيلك فاجمع نفسك عليك، وأيضًا اجمع نفسك على الترقي فيه، لا تبقى ساكنًا فكر فيما وصل إليه

علمك من المسائل والدلائل حتى تترقى شيئًا فشيئًا واستعن بمن تثق به من زملائك وإخوانك، ولا تستحِ أن تقول يا فلان ساعدني على تحقيق هذه المسألة بمراجعة الكتب الفلانية. الحياء لا ينال العلم به أحد.

قوله: **«التحرق للتحصيل ...»** معناه أن الإنسان يكون معه شغف كبير تحترق نفسه لينال فوق المنزلة التي هو فيها حتى تفيض إلى المطولات بسابلة موثقة.

وكان من رأي ابنِ المالكي[1]. أن لا يخلطَ الطالبُ في التعليم بين علمَين، وأن يُقدِّمَ تعليمَ العربيةِ والشِّعْرِ والحساب، ثم ينتقلَ منه إلى القرآن. لكن تعقَّبه ابنُ خَلْدون بأنَّ العوائدَ لا تُساعد على هذا، وأنَّ المُقَدَّمَ هو دراسةُ القرآن الكريم وحفظُه؛ لأنَّ الوَلَدَ مادام في الحِجْر؛ ينقادُ للحُكم، فإذا تجاوز البلوغَ؛ صَعُبَ جَبْرُه. أمَّا الخلطُ في التعليم بين علمَين فأكثرَ؛ فهذا يختلف باختلاف المُتَعلِّمين في الفهم والنشاط. وكان من أهل العلم من يُدَرِّسُ الفقه الحنبليَّ في «زاد المُستَقْنِع» للمُبتدئين، و«المُقْنِع» لمن بعدَهم للخلاف المذهبي، ثم «المُغني» للخلاف العالي، ولا يَسْمَحُ للطبقةِ الأُولى أن تجلسَ في درس الثانية ... وهكذا؛ دَفْعًا للتشويش.

قوله: **«تقدم تعليم العربية»** وذلك لأنه لا يمكن أن يعرف القرآن إلا إذا تعلم العربية، ولكن من كان عربيًا فليس من المسلم بأن نقول: تعلَّم العربية بمعنى توسع فيها.

«والشعر والحساب» كيف نقدم الشعر والحساب على القرآن. هذا ليس بمسلَّم.

---

(١) «تراجم الرجال» للخضر حسين: (ص١٠٥)، و«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية». (٢٣/ ٥٤-٥٥) مهم.

قوله: «لا يجمع بين علمين» الناس يختلفون في الفهم والاستعداد، فقد يكون سهلاً على المرء أن يجمع بين علمين. وقد يكون من الصعب أن يجمع بين علمين وكل إنسان طبيب نفسه، فإذا رأى من نفسه قدرة وقوة فلا بأس أن يجمع بين علمين ولكن ليحذر النشاط أو نشاط البدء، فإن نشاط البدء بمنزلة السفر، لأن بعض الناس أول ما يبدأ يرى نفسه نشيطًا فيريد أن يلتهم العلوم جميعًا، فإذا به ينكص على الوراء لأنه كبَّر اللقمة ومن كبَّر اللقمة فلابد أن يَغُصَّ، حتى إذا رأيت من نفسك قدرة فلا تكلفها ما لا تطيق اتزن حتى تستمر.

قوله: «وكان من أهل العلم ...» صحيح من أهل العلم من يفعل ذلك إذا كان يدرس في الفقه الحنبلي يدرس زاد المستقنع، لأن زاد المستقنع اختصار المقنع ثم ينتقل إلى تدريس المقنع، لأن المقنع فيه ذكر الروايتين والوجهين والقولين في المذهب بدون تعليل ولا دليل. وبعضهم ينتقل من بعد المقنع إلى الكافي قبل المغني، لأن الكافي يذكر فيه الخلاف المذهبي مع الأدلة، وبهذا يمتاز على المقنع، فهو يذكر الخلاف والأدلة سواء كانت الأدلة سمعية من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس الصحيح. أو عقلية. ثم بعد ذلك المغني، لأن الخلاف في المغني ليس مع أصحاب الإمام أحمد، بل مع أصحاب المذاهب، فيرتقى من هذا إلى هذا.

الموفق رحمه الله سلك هذا التدرج، لكن له كتاب قبل المقنع، سلم للمقنع وهو عمدة الفقه كتاب مختصر أقل بكثير من زاد المستقنع من حيث المسائل، لكنها تشتمل على بعض الدلائل، يعني ليست جافة كزاد المستقنع، لكن فيها أدلة.

فالحاصل: أن ينبغي أن المعلم يرتقي بالطلبة درجة درجة حتى يتقنوا ما تعلموه.

قال: «**ولا يسمح للطبقة الأولى أن تجلس في دروس الطبقة الثانية وهكذا دفعًا للتشويش**»، لكن في النقطة الأخيرة لا أستطيع، ولهذا أجمع بين الصغير والكبير فيما ندرِّسه من الكتب ونقول هذا الصغير الآن يذهب، ثم يبدأ يمشي شيئًا فشيئًا حتى تقلّه

رجلاه. وسبب ذلك أن الطلاب عندنا يتواردون شيئًا فشيئًا ولو راعينا الوافدين لأهملنا حق السابقين. لو قلنا مثلاً: لو جاء أناس جُدد رجعنا مثلاً من زاد المستقنع إلى باب الطهارة ووصلنا مثلاً إلى كتاب الصلاة. جاء العام الثاني وفد ماذا نفعل؟ رجعنا لباب الطهارة، كان هذا ظلم للسابقين. ومعناه سنبقى دائمًا أبدًا من أول الكتاب هذا ما يستقيم.

- **واعْلَم أنَّ ذِكْرَ المختصراتِ فالمطوَّلات التي يُؤَسَّسُ عليها الطلبُ والتلقي لدى المشايخ تختلفُ غالبًا من قُطر إلى قطر باختلاف المذاهب، وما نشأ عليه عُلماءُ ذلك القُطْرِ من إتقانِ هذا المختصر والتمرُّسِ فيه دونَ غيره. والحالُ هنا تختلف من طالبٍ إلى آخر.**

هذه الفقرة معناها صحيح. مثلاً: قد يكون الإنسان في بلد ينتحلون مذهب الشافعي[1]. ستجد العلماء يبنون أصول التدريس على كتب المذهب الشافعي، في بلد ينتهج فيه أهله مذهب الإمام أحمد تجد العلماء يدرسون كتب مذهب الإمام أحمد .. وهلمَّ جره.

- **والحال هنا تختلفُ من طالبٍ إلى آخر باختلاف القرائح والفهوم، وقوة الاستعدادِ وضَعْفِه، وبُرودةِ الذهن وتوقُّدِه.**

نعم. وهناك أيضًا أسباب أخرى وهي: قوة الاستعداد للعلم وتلقيه وضعف ذلك، وكذلك كثرة المشاغل وقلَّتها. المهم أن الاختلاف وارد في كل شيء، لكن ما ذكره أولاً مبني على الغالب.

---

(١) الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب، ولد سنة مائة وخمسين، وتوفى سنة ٢٠٤، كان كثير المناقب جم المفاخر حافظًا منقطع النظير. (تهذيب التهذيب ٩/٢٥).

وقد كان الطَّلَبُ في قُطْرِنا بعد مرحلة الكتاتيب والأخْذِ بحفظ القرآن الكريم يمرُّ بمراحلَ ثلاثٍ لدى المشايخ في دروس المساجد: للمبتدئين، ثم المُتوسِّطين، ثم المتمكِّنين:

ففي التوحيد: «ثلاثةُ الأُصول وأدلَّتها»، و«القواعدُ الأربع»، ثم «كشف الشُّبُهات» ثم «كتاب التوحيد»، أربعتُها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى[1]. هذا في توحيد العبادة.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطِيَّة» ثم «الحموية»، و«التدمرية»، ثلاثتُها لشيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله تعالى ـ «الطحاوية» مع «شرحها» وفي النَّحْو: «الآجُرُّمِيَّة»[2]. ثم «مُلحة الإعراب» للحريري، ثم «قطر النَّدى» لابن هشام، و«ألفيَّة ابن مالك» مع «شرحها» لابن عقيل.

وفي الحديث: «الأربعين» للنَّووي، ثم «عُمدة الأحكام» للمقدسيِّ، ثم «بلوغ المرام» لابن حجر، و«المنتقى» للمجد ابن تيمية ـ رحمهم الله تعالى ـ فالدُّخول في قراءةِ الأُمَّاتِ السِّتِّ وغيرها.
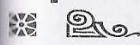
يقول رحمه الله وأطال في طاعته: ففي التوحيد: ثلاثة الأصول وأدلتها . . . هذا في توحيد العبادة. يعني يبدأ بالأصغر فالأصغر. ثلاثة الأصول تدور حول: من ربك وما دينك ومن نبيك؟

---

(١) شيخ الإسلام مجدد العقيدة السلفية، الداعية الكبير والعلم الشهير ولد في العيينة في كنف أبيه القاضي، كان كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث، قرأ على بعض علماء المدينة، ورحل إلى البصرة، عاونه في دعوته محمد بن سعود حتى قضى على مظاهر الشرك وأقام دولة التوحيد. مات عام ١٢٠٦ هـ. (الأعلام٦/ ٢٥٧).

(٢) أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجروم، ولد بفاس عام ٦٧٢هـ وتوفي بها عام ٧٢٣هـ، ودرس بفارس ثم قصد مكة حاج، وعامر بالقاهرة، درس على النحوي الأندلسي الشهير أبي حيان صاحب البحر المحيط.

«القواعد الأربع» تدور على قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (سورة العصر:١-٢). الآية «كشف الشبهات» شبهات بعض أهل الشرك التي أوردوها وأجاب عنها الشيخ رحمه الله بما تيسر.

وفي توحيد الأسماء والصفات «العقيدة الواسطية» التي ألفها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهي من أخصب كتب العقيدة وأحسن كتب العقيدة، وسُميت بالواسطية نسبة إلى واسط، لأن بعض قضاتها قدم إلى الشيخ رحمه الله وطلب منه أن يكتب ملخصًا في عقيدة السلف، فكتب هذه العقيدة المباركة.

قال: ثم «الحموية» و«التدمرية» وهما رسالتان أوسع من العقيدة الواسطية لكنها أجمع منهما لأنه ذكر فيها الأسماء والصفات والكلام على الإيمان واليوم الآخر وطريقة أهل السنة والجماعة ومنهجهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي أجمع من التدمرية والحموية، لكن التدمرية والحموية تمتازان بأنهما أوسع منها في باب الصفات.

يقول: «فالطحاوية مع شرحها» وهي معروفة وصارت شائعة بين الناس الآن حيث قُررت في الجامعة الإسلامية.

قال: «وفي النحو «الآجرومية»» كتاب صغير في النحو، لكنه مبارك جامع مقسم سهل، وأنا أنصح به كل مبتدءٍ بالنحو أن يقرأه، وكذلك «مُلحة الإعراب للحريري، ثم قطر الندى لابن هشام وألفية ابن مالك مع شرحها لابن عقيل» . . هكذا قال الشيخ بكر، لكني أقول: الأجرومية ثم الألفية، أما أن نحشوا أذهاننا بكتب تعتبر كالتكرار لأولها، فلا حاجة.

«ملحة الإعراب» هذه نظم فيه بيت مشهور بين الناس وهو:

إنْ تَجِدْ عيبًا فسدَّ الخللا ❖❖❖ جلَّ من لا عيب فيه وعلا

كثير من الكتاب الذين يكتبون الكتب العلمية إذا انتهى من كتابه قال: إن تجد عيبًا . . . أنا أختار الأجرومية ثم ألفية ابن مالك، احفظها ثم استشرحها من رجل عالم بالنحو وفيها الخير الكثير.

«**وفي الحديث «الأربعين»**» للنووي، هذا كتاب طيب، فيه آداب ومنهج جيد وقواعد مفيدة جدًا، في حديث واحد يبني المرء حياته عليه. **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**[(١)]. هذه القاعدة إذا جعلتها هي الطريق التي تمشي عليها وتسير لكانت كافية، وفي النطق: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**[(٢)]. فهي من أحسن ما أُلف، ثم «**عمدة الأحكام**» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام»، وأرى أن يقتصر على بلوغ المرام لأن عمدة الأحكام داخلةٌ في بلوغ المرام، أكثر أحاديثها موجودة في بلوغ المرام، وبلوغ المرام أوسع منها وأشد تحريرًا لكن:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ❖❖❖ وجاوزه إلى ما تستطيع

إذا قال: أنا ما أستطيع أن أحفظ بلوغ المرام لاسيما أنه يجيء صححه فلان وضعفه فلان وهذه الحيرة.

قلنا له: إذا لم تستطع شيئًا فدعه، عندك عمدة الأحكام أي ساعة تريد أن تستدل خذ حديثًا منها ولا حاجة أن تبحث عن صحته لأنها أحاديث منتخبة من البخاري ومسلم. و«المنتقى» للمجد ابن تيمية، المنتقى أكبر من بلوغ المرام لكنه أضعف من حيث بيان مرتبة الحديث.

قال: «**فالدخول في الأمَّات الست وغيرها**» ما هي الأمهات الست؟ البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة. وسُمِّيت أمهات لأنها مرجع الأحاديث.

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجة (٣٩٧٦).

(٢) سبق تخريجه.

فإذا قال بعض العلماء: إذا رأيت حديثًا في غير الأمهات فلا تحكم عليه حتى تحرره تخريجًا، لأن هذه الأمهات التي اشتهرت بين المسلمين وأخذوها وتلقوها بالقبول وإن كان فيها ضعف وربما موضوع أيضًا لكن اشتهرت واعتبرت بين المسلمين.

«وفي المصطلح: «نُخْبَة الفِكر» لابن حجر، ثم «ألْفِيَّةُ العراقي». رحمه الله تعالى».

نخبة الفكر أظنها ثلاث صفحات تقريبًا، لكنها نخبة. يعني الإنسان إذا فهمها تمامًا وأتقنها، تُغني عن كتب كثيرة في المصطلح لأنها مضبوطة تمامًا ولها طريقة غريبة في تأليفها وهي السرعة والتقسيم، أكثر المؤلفات يأتي الكلام مرسلاً يعني سلسلاً.

لكن هو ـ رحمه الله ـ اخترع هذه الطريقة: الخبر إما أن يكون له طرق محصورة بعدد أو غير محصورة، والمحصورة بعدد كذا وكذا، ثم يذكر فتجد أن الإنسان إذا قرأها يجد نشاطًا لأنها مبنية على إثارة العقل، وأنا أشير عليكم أيها الطلبة أن تحفظوها لأنها خلاصة وزبدة . . نعم.

ثم «**ألفية العراقي**» مطولة، لكني أرى أن الإنسان يقتصر على فهمها وأنه لا حاجة إلى حفظها، لأنه قد يكون هناك متون أهم منها.

«وفي الفقه مثلاً: «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم «زاد المستقنع» للحجَّاوي. رحمه الله تعالى. أو «عُمدة الفقه» ثم «المقنع» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي، ثلاثتُها لابن قُدامة رحمه الله تعالى».

يعني بذلك: عمدة الفقه، المقنع، المغني. لكن غيره ذكر أربعة وهي: العمدة ثم المقنع ثم الكافي ثم المغني.

كفى الناس بالكافي واقنع طالبًا ❖❖❖ بمقنع فقهٍ عن كتاب مطول

واغني بمغنى الفقه من كان باحثًا ❖❖❖ وعُمدته من يعتمدها يحصل

وفي أصول الفقه: «الوَرَقات» للجُوَيْني - رحمه الله تعالى - ثم «روضة النَّاظر» لابن قُدامة - رحمه الله تعالى.

قفزة جيدة، الورقات من ورقة صغيرة إلى روضة الناظر، الفرق بينهما كبير لكن هناك كتب مختصرة جيدة في أصول الفقه يمكن أن يعتمد عليها، وربما تغنيه أيضًا عن روضة الناظر، وأصول الفقه هي عبارة عن قواعد وضوابط يتوصل الإنسان بها إلى معرفة استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

وفي الفرائض: «الرَّحْبية»، ثم مع شروحها، و«الفوائد الجَليَّة».

أما الرحبية فهي للرحبي، وشروحها فهي متعددة، وأما الفوائد الجلية فهي للشيخ عبد العزيز بن باز[1]. لكن أرى أن «البرهانية» أحسن من الرحبية، البرهانية أجمع من الرحبية من وجه، وأوسع معلومات من وجه آخر، ففي مقدمتها ذكر الحقوق المترتبة في التركة أو المرتبة في التركة المتعلقة بالإنسان ذكرها ولم تذكر في الرحبية، وهي أخصب من الرحبية وأجمع. أتى بالثُّلثين، الرحبي ذكر أربعة أبيات، والبرهاني ذكر بيت واحدٌ فقال:

والثلثان لاثنتين استوتا ❖❖❖ فصارا ثمن له النصف أكبر

(١) الإمام العلم مجدد القرن شيخ الإسلام أبي عبد الله ولد سنة ١٣٣٠ هـ ولازم شيخه محمد بن إبراهيم فترة من الزمن، ولي القضاء، ثم التدريس في كلية الشريعة، ثم رئيسًا للجامعة الإسلامية، ثم رئيسًا للإفتاء. وكانت وفاته في يوم الجمعة ٢٨ من المحرم ١٤٢٠هـ. تغمده الله برحمته.

ولها شرح لابن سلوم مطول ومختصر مفيد جدًا، فلذلك فأنا أرى أن البرهانية أحسن من الرحبية للوجوه التي ذكرتها.

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير» - رحمه الله تعالى -.

وهو جيد بالنسبة للتفسير بالأثر، لكنه قليل الفائدة بالنسبة لأوجه الإعراب والبلاغة وخير ما قرأت من أوجه الإعراب والبلاغة «الكشاف» للزمخشري[1]. وكل من بعده فهم عيال عليه، أحيانًا تجد عبارات الزمخشري منقولة نقلاً، لكن تفسير الزمخشري فيه بلايا من جهة العقيدة لأنه معتزلي.

وفي أصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه الله تعالى -.

معروف المقدمة في التفسير، وهي كتاب مختصر جيد مفيد.

وفي السيرة النبوية: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، و«أصلُها» لابن هشام، وفي «زاد المعاد» لابن القيم - رحمه الله تعالى -.

أما السيرة النبوية المختصر والأصل مجرد تاريخ، أما زاد المعاد فإنه تاريخ وفقه للسيرة، وقد يكون في التوحيد، وقد يكون في الأمور العملية.

(١) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري اللغوي، كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو، وصنف تصانيف في التفسير وشرح الأحاديث، ورد «مرو» وخرج إلى العراق، وجاور بمكة سنين. مات ليلة عرفة من سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. الأنساب (٢/٣٧٣).

وفي لسان العرب: العنايةُ بأشعارها، كـ«المعلَّقات السبع» والقراءة في «القاموس» للفيروز آبادي[١]. رحمه الله تعالى..

المعلقات السبع قصائد من أجمع القصائد، وأحسنها وأروعها، اختارتها قريش لكي تُعلق في الكعبة ولهذا تسمى المعلقات[٢]. ولما ذكر ابن كثير رحمه الله «اللامية» لأبي طالب قال: هذه «اللامية» يُحقُّ أن تكون مع المعلقات لأنها أقوى منها وأعظم وفيها يقول أبو طالب:

لقد علموا أن ابننا لا مكذبٌ ❖❖❖ لدينا ولا يُعني بقول الأباطل

يعني: الرسول ﷺ. وهذه الشهادة للرسول ﷺ بأنه صادق، ولكن هذه الشهادة من أبي طالب لن تستلزم القبول والإذعان، ولذلك لم تنفع وخُذل عند موته، فكان النبي ﷺ يقول له: «**قل لا إله إلا الله**» ولكن لم يقلها. نسأل الله العافية.

ويقول: «**القراءة في القاموس**» لكن هل تقرأ في القاموس أم تراجع القاموس؟ الثاني، لأنك مهما قرأت لا تستفيد الفائدة المرجوة.

(١) محمد بن يعقوب بن الفيروز آبادي، الشيرازي، الشافعي، مجد الدين، أبو الطاهر، لغوي، مشارك في عدة علوم، له «المشهور» و«بصائر ذوي التمييز» في التفسير. توفي سنة ٨١٧هـ.
انظر: إنباء الغمر (٧/ ١٥٩)، وبغية الوعاة (١/ ٢٧٣).

(٢) وأصحاب المعلقات هم: عنترة بن شداد، امرؤ القيس، طرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى، النابغة الذبياني، الأعشى، عمرو بن كلثوم.

... وهكذا من مراحل الطلب في الفنون. وكانوا مع ذلك يأْخُذون بِجَرْدِ المطوَّلات، مثل «تاريخ ابن جرير»، وابن كثير، وتَفْسِيرَيْهما، ويُرَكِّزون على كُتُب شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، وكتب أئمَّة الدعوة وفتاويهم، لاسيَّما مُحرَّراتهم في الاعتقاد.

يتحدث الشيخ بكر عن طلب العلم في قطره - ليس عن الطلب عمومًا - ولهذه الكتب التي يعنيها هي في قطرنا، وقد يكون ما يساويها ويشابهها في الأقطار الأخرى على هذا النمط، أما قوله: «**يركزون على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى**» فهذا صحيح، وغالب المتأخرين يركزون عليهما، وكان لشيخنا عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - يحثنا على قراءتهما. أي قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لأن فيهما من التحقيق والتحرير والتقعيد ما لا يوجد في غيرهما، ونشعر أن كلامهما ينبع من القلب، ولهذا يؤثر في زيادة الإيمان، وأما تمثيله أيضًا لتاريخ ابن جرير وابن كثير، فهذا أيضًا عن المراجعة فلا بأس، وأما أن يجعله الإنسان قراءة يقرؤها فهذا طويل، وربما يقطع عليه وقتًا كثيرًا. وقوله: «**كتب الدعوة**» المراد بها أيام الدعوة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وأحفاده ومن تتلمذ عليه.

وهكذا كانت الأوقاتُ عامرةً في الطلب، ومجالس العلم، فبعدَ صلاة الفجر إلى ارتفاع الضُّحى، ثم تكون القيلولة قُبَيْل صلاة الظهر، وفي أعقاب جميع الصلوات الخمس تُعْقَدُ الدروسُ، وكانوا في أدبٍ جَمٍّ، وتقديرٍ بعزَّةِ نفسٍ من الطَّرفين على منهج السَّلَف الصالح رحمهم الله تعالى، ولذا أدركوا وصار منهم في عداد الأئمة في العلم جمعٌ غفيرٌ، والحمد لله رب العالمين. فهل من

عـودة إلى أصالة الطلب في دراسة المختصرات المعتمدة، لا على المذكرات، وفي حفظها لا الاعتماد على الفهم فحسب، حتى ضاع الطلاب فلا حفظ ولا فهم.

قوله ـ وفقه الله ـ «**الاعتماد على هذه المتون الأصيلة لا على هذه المذكرات**» هذا صحيح لأن المذكرات قد يكون واضعها ممن لا يعرف من هذا إلا معرفة سطحية، فتجده يلتـ كلمات من هذا وكلمات من هذا، ولا يكون كلامًا محررًا متناسقًا، لكن هذه الكتب الأصيلة القديمة محررة ومتناسقة، مخدومة، وكذلك أيضًا الحفظ. أيُّ علم بلا حفظ يزول سريعًا وكان زمان يعيبون علينا، يقولون لا تتعب نفسك في حفظ المتن عليك بالفهم، الفهم الفهم. لكن وجدنا أننا ضائعون إذا لم يكن عندنا حفظ، وما نفعنا الله إلا بما حفظنا من المتون ولولا أن الله نفعنا بذلك لضاع علينا علم عظيم.

فلا نغتر بمن يقول: الفهم. ولهذا هؤلاء الدعاة القائلون بالفهم لو سألتهم أو ناقشتهم لوجدتهم ضحلاء، ليس عندهم علم. ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (سورة النور: ٣٩).

وفي خُلُوِّ التَّلقين من الزَّغَل والشوائب والكدَر، سَيْرٌ على منْهاج السلَف؟ والله المستعان.

ينبغي للعالم والمتعلم أن يكون التعليم والتعلم منهما خاليًا من هذه العيوب، بل ينبغي أن يكون صافيًا بحيث يكون المعلم يريد بذلك إيصاله إلى الطلاب دون الإستعلاء عليهم أو إظهار علمه عليهم أو ما أشبه ذلك، ويكون التلميذ كذلك واثقًا مطمئنًا إلى ما يقول معلمه لأنه إذا كان يتعلم منه يقول إني أتعلم الآن، ولكن إذا خرجت أبحث على عالم آخر. فكأنه لم يأخذ عن هذا العالم أخذ واثق أو مستذكر، وهذا يضيعه بلاشك. لكنه إذا أخذ عن العالم أخذ مستفيد واثق، بعد

ذلك إذا كبر ترعرع في العلم وصار عنده ملكة، فلا مانع أن يخالف شيخه فيما يرى أن الصواب في خلافه لكن مادام في زمن الطلب فليتكأ على من يتعلم على يديه وليأخذ كلامه بثقة واطمئنان حتى يرسخ. أما أن يأخذ ويقول إذا خرجت أبحث مع ناس أو مع طلاب علم .. هذا ما يصلح أبدًا ولا يستقيم للطالب طلبًا على هذا الوجه.

وقال الحافظ عثمان بن خُرَّزَاذ (م سنة ٢٨٢ هـ) رحمه الله تعالى[1]:

«يحتاجُ صاحبُ الحديث إلى خمس، فإنْ عُدِمَتْ واحدةٌ، فهي نَقْصٌ، يحتاج إلى عقلٍ جيدٍ، ودينٍ، وضبطٍ، وحذاقةٍ بالصِّناعةِ، مع أمانةٍ تُعْرَفُ منه».

قلتُ ـ أي الذهبي[2]: **«الأمانةُ جزءٌ من الدِّين، والضبطُ داخلٌ في الحِذْقِ، فالذي يَحْتَاجُ إليه الحافظُ أن يكون: تقيًا، ذكيًا، نَحْوِيًا، لُغَوِيًا، زكيًا، حَيِيًا، سَلَفِيًا، يكْفيه أن يكتُبَ بيديه مئتي مُجَلَّد، ويُحَصِّلَ من الدواوين المعتبرة خمس مئةِ مجلد، وأن لا يَفْتُر من طلب العلم إلى الممات، بنيَّةٍ خالصةٍ، وتواضعٍ، وإلاَّ فلا يتعَنَّ» أ هـ.**

شروط ثقيلة من الذهبي ـ رحمه الله ـ أقول: لو بقينا على كلام الحافظ عثمان بن خرزاد لكان أحسن، يعني أهون علينا. الأمانة جزء من الدين فتدخل في قوله: «ودين» والضبط يدخل في الحفظ، لأن حذق الشيء ـ بمعنى فهمه وإدراكه جيدًا. ثم يبقى من الخمس ثلاث، لكن دخل علينا أكثر من الثلاث: يحتاج أن يكون تقيًا، وهذا

(١) سير أعلام النبلاء: (١٣/ ٣٨٠).

(٢) هو الإمام العلامة شيخ المحدثين قدوة الحفاظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي. ولد سنة ٦٧٣هـ سمع من ابن عساكر والدمياطي وابن بدران وغيرهم، له مؤلفات كثيرة ومفيدة تقارب المائة. مات سنة ٧٤٨هـ رحمه الله. (البداية ١٤/ ٢٢٥).

صحيح، والتقوى رأس كل عبادة، وهي الأصل. والتقوى هي فعل أوامر الله واجتناب نواهيه، لأنه بذلك تكون الوقاية من عذاب الله.

«ذكيًا» يعني ليس غبيًا، بأن يكون عنده فِطنة، وكم من إنسان حافظ وليس بذكي وكان رجل ممن سبق حافظًا جدًا، سريع الحفظ، قليل النسيان، حافظ الفروع لابن مفلح ثلاث مجلدات كبار، وهو حاوي لمسائل الوفاق والخلاف، وكان يحفظه كما يحفظ الفاتحة، لكن لا يفهم منه شيئًا، لأنه غير ذكي. فكانوا يلقبونه بحمار الفروع، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (سورة الجمعة: ٥). لكن لا ينتفع بها. «نحويًا لغويًا» النحو هو الذي يُعنى بالإعراب والبناء، وهذا يختص بأواخر الكلمات، اللغوي يدخل فيه من علم الصرف وعلم فقه اللغة، وعلى هذا لابد من مراجعة كتب النحو وكتب الصرف وكتب اللغة كالقاموس ولسان العرب وغير ذلك.

«ذكيًا» الزكي والتقي معناهما متقارب، فإن ذُكِرا فينبغي أن يحمل التقي على من ترك المحرمات، والزكي على من قام بالمأموات، ويعجبني أن أذكر لكم كلمة قالها شيخ الإسلام رحمه الله في أهل الكلام قال: «أنهم أُتوا فُهُومًا وما أُتوا علومًا» يعني عندهم فهم لكن ما عندهم علم. «وأُوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً». أذكياء لكن ليسوا أزكياء.

«حييًا» لكن بشرط لا يمنعه حياؤه من طلب العلم، ولهذا قال بعضهم: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. يكون حييًا، ولكن لا يمنعه ذلك من طلب الحق. أم سلمة قالت: يا رسول الله ﷺ إن الله لا يستحيي من الحق: هل على المرأة الغُسل إذا احتلمت؟ قال: «نعم إذا هي رأت الماء»[1]

(١) رواه مسلم (٣١١).

«سلفيًا»: يعني يأخذ بطريق السلف في العقيدة والآداب والعمل والمنهج وفي كل شيء، لأن السلف هم صدر هذه الأمة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1]

«يكفيه أن يكتب بيديه مئتي مجلد» ونعزي أنفسنا أن المجلدات عندهم قليلة قد يكون ٥٠ صفحة، وقد يكون مجلد، فإن كان هذا هو المراد فلعل الله أن يعيننا عليه، وإن كان مراده المجلد ٦٠٠ صفحة، فالواحد منا لو يبقى ليل نهار ما أظنه يكتب مائة مجلد. مائة مجلد x ٦٠٠ صفحة = ١٢٠ ألف !! «ويحصل من الدواوين المعتبرة ٥٠٠ مجلد» أين من يقدر على تحصيل ٥٠٠ مجلد؟! على كل حال هم يقولون على قدر استطاعتهم، ونحن نقول الله المستعان!![2].

«وأن لا يفتر من طلب العلم إلى الممات» هذا صحيح فإن طالب العلم يجب ألا يفتر، بأنه إذا عود نفسه الفتور والكسل اعتاد ذلك. ومن طلب العلا سهر الليالي. ويقال: أعط العلم كلك يعطيك بعضه، وأعطيه بعضك يفتك كله. العلم يحتاج إلى تعب وعناء، لكني أقول لكم: إن الإنسان إذا ترعرع في العلم سهل عليه أن يعرف أشياء قد لا تكون في بطون الكتب لاسيما مع النية الخالصة وإرادة الحق والحكم بشرع الله، فإن الله تعالى يهبه علمًا لا يطرأ على باله ولا يجده في بطون الكتب، وكثيرًا ما يبحث مسألة من المسائل في الكتب في مظانها ثم لا يجدها، ثم إذا فكرنا في آية من آيات الله أو في حديث من سنة رسول الله ﷺ وجدنا الحل، لأن بركة القرآن والسنة لا يضاهيها أي بركة.

(١) رواه البخاري (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) قال ابن جرير لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا كم قَدْرُه؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه. فقال: إنا لله .. ماتت الهمم. فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ولما أن أراد أن يُملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ». (السير ١٤/ ٢٧٤).

يقول: «بنية خالصة وتواضع» نعم، هذا من أهم ما يكون. التواضع، أسأل الله أن يرزقني وإياكم التواضع للحق وللخلق، من أهم شيء لطالب العلم التواضع، لأن التواضع من الأخلاق العظيمة التي قال الله فيها لرسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤). فأعظم الناس تواضعًا رسول الله ﷺ.

قال: «وإلا فلا يتعنَّ» فلا يتعب نفسه إذا لم يتصف بهذا، ولكن نقول عفا الله عنك يا ذهبي ارجع إلى قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (سورة التغابن: ١٦) ولنعامل الناس بما يمكن أن يقوم به وإلا فلا ننفر الناس.

لو قلنا للطالب يكفيك بأن تكتب ٢٠٠ مجلد، ويكفيك بأن يكون عندك من الدواوين ٥٠٠ مجلد والأكمل ١٠٠٠ مجلد، لو قلنا للطالب هكذا لثقل عليه الطلب، لكن نقول: يكفيك أن تكتب بيديك ما تقدر عليه بشرط أن يكون عندك حرص ونشاط في طلب العلم.

١٧ ـ تلقي العلم عن الأشياخ:

الأصلُ في الطَّلب أن يكون بطريق التَّلقين والتَّلقِّي عن الأساتيذ، والمُثَافَنة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصُّحُف وبطون الكتب، والأول من باب أخذ النَّسيب عن النَّسيب الناطق، وهو المُعلِّم، أما الثاني عن الكتاب، فهو جَمَادٌ، فأنَّى له اتصال النَّسَب؟

هذا أيضًا مما ينبغي على طالب العلم مراعاته، أن يتلقى العلم عن الأشياخ لأنه يستفيد بذلك فائدتين، بل أكثر:

الفائدة الأولى ـ اختصار الطريق، بدل ما يذهب يقلِّب في بطون الكتب وينظر ما هو القول الراجح، وما سبب رجحانه؟ وما هو القول الضعيف؟ وما هو سبب

ضعفه؟ هذه لقمة سائغة ... المعلم يقول: اختلف العلماء في كذا على قولين أو ثلاثة أو أكثر، والراجح كذا، والدليل كذا. وهذا لاشك أنه نافع لطالب العلم.

الفائدة الثانية ـ السرعة، يعني سرعة الإدراك، لأن الإنسان إذا كان يقرأ على عالم فإنه يدرك بسرعة أكثر ممن ذهب يقرأ في الكتب، لأنه إذا ذهب يقرأ يردد العبارة أربع أو خمس مرات، وربما فهم أيضًا على وجه خطأ غير صحيح.

الفائدة الثالثة ـ الرابطة بين طالب العلم ومعلمه، فيكون ارتباط بين أهل العلم من الصغر إلى الكبر.

فهذه من فوائد تلقي العلم على الأشياخ، لكن سبق أن قلنا أنه من الواجب أن يختار الإنسان من العلماء من هو كفء أمين قوي، يعني عنده علم وإدراك، ليس علمه سطحيًا، وعنده أمانة، وكذلك أيضًا إذا كان عنده عبادة فإن الطالب يقتدي بمعلمه.

وقد قيل: «مَن دَخَلَ في العلم وحده، خرج وحده»[1] أي: مَن دَخَل في طلب العلم بلا شيخ، خرج منه بلا علم، إذ العلمُ صَنْعَةٌ، وكلُّ صَنْعَةٍ تحتاج إلى صانع، فلابدَّ إذًا لتعلُّمها من مُعلِّمها الحاذق.

هذا أيضًا صحيح وقد قيل: أنه من كان دليله كتابًا خطأه أكثر من صوابه. هذا هو الغالب بلاشك، لكن قد يندر من الناس من يكرِّس جهوده تكريسًا صحيحًا ولاسيما إن لم يكن عنده من يتلقى العلم عنده، فيعتمد اعتمادًا كاملاً على الله عزَّ وجلَّ ويدأب ليل نهار يحصل من العلم ما يحصل إن لم يكن له شيخ.

(١) «الجواهر والدرر» للسخاوي: (١/٥٨).

وهذا يكادُ يكونُ محلَّ إجماعِ كلمةٍ من أهلِ العلم، إلاَّ من شذَّ مثل: علي ابنُ رضْوان المصري الطبيب (م سنة ٤٥٣هـ)، وقد ردَّ عليه عُلماءُ عَصْرِه ومن بَعدَهم. قال الحافظُ الذهبيُّ - رحمه الله تعالى - في ترجمته له[1]: «ولم يكن له شَيخٌ، بل اشتغل بالأخذِ عن الكُتُب، وصنَّف كتابًا في تحصيلِ الصناعة من الكُتُب، وأنها أوفقُ من المُعلِّمين، وهذا غلَطٌ» اهـ.

وقد بَسَطَ الصَّفَديُّ في «الوافي» الردَّ عليه، وعنه الزَّبيدي في «شرح الإحياء» عن عَدَدٍ من العُلَماءِ مُعَلِّلِينَ له بعدَّةِ عللٍ، منها ما قاله ابنُ بَطْلانَ في الردِّ عليه[2]: «السادسة: يُوجد في الكتاب أشياءُ تصدُّ عن العلم، وهي معدومةٌ عند المُعلِّم، وهي التصحيفُ العارضُ من اشتباهِ الحروفِ مع عدَمِ اللفظ، والغَلَط بزَوغانِ البَصَرِ، وقلَّةِ الخبرةِ بالإعراب، أو فسادِ الموجود منه، وإصلاح الكتاب، وكتابة ما لا يُقرأ، وقراءة ما لا يُكتب، ومذهبِ صاحبِ الكتاب، وسُقْمِ النَّسْخ، ورداءة النقل، وإدماجِ القارئ مواضعَ المقاطع، وخَلْطِ مبادئ التعليم، وذكرِ ألفاظٍ مُصْطَلَحٍ عليها في تلك الصناعة، وألفاظٍ يونانية لم يُخْرِجْها الناقلُ من اللغة، كالنَّوْرس، فهذه كلُّها مُعَوِّقَةٌ عن العلم، وقد استراح المُتَعَلِّمُ من تكلُّفِها عند قراءته على المُعَلِّم، وإذا كان الأمرُ على هذه الصورة، فالقراءةُ على العلماء أجدى وأفضلُ من قراءةِ الإنسان لنفسِه، وهو ما أردنا بيانه ...

قال الصَّفَديُّ: ولهذا قال العُلَماءُ: لا تأخذ العلم من صَحَفي ولا من مُصْحَفي، يعني: لا تقرأ القرآنَ على مَن قرأ من المُصحفِ، ولا الحديث وغيره على من أخَذَ ذلك من الصُّحُفِ ...» اهـ.

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٨/ ١٠٥).
وانظر: «شرح الإحياء»: (١/ ٦٦)، و«بُغية الوعاة»: «١/ ١٣١, ٢٨٦)، و«شذرات الذهب» (٥/ ١١)، و«الغُنية» للقاضي عياض: (ص١٦-١٧).
(٢) «شرح الإحياء»: (١/ ٦٦).

والدليلُ الماديُّ القائم على بُطلان نظرة ابنُ رضْوان: أنَّك ترى آلاف التراجم والسِّيَر على اختلافِ الأزمانِ ومرِّ الأعصار وتنوُّع المعارف، مشحونةً بتسمية الشيوخ والتلاميذ، ومستقلٌّ من ذلك ومستكثرٌ، وانظر شذرةً من المكثرين عن الشيوخ حتى بلغ بعضُهم الأُلوفَ كما في «العُزَّاب» من «الإسفار» لراقمه. وكان أبو حَيَّان محمد يوسُف الأندلُسي (م سنة ٧٤٥هـ)[1] إذا ذُكر عنده ابنُ مالك، يقول: «أين شيوخُهُ؟».

وقال الوليد[2]:

كان الأوزاعيُّ يقول: كان هذا العلمُ كريمًا يتلاقاه الرجال بينهم، فلمَّا دَخَل في الكُتُبِ، دخل فيه غيرُ أهله.

وروي مثلها ابنُ المبارك عن الأوزاعيِّ. ولا ريبَ أنَّ الأخْذَ من الصُّحُفِ وبالإجازة يقعُ فيه خَلَلٌ، ولاسيَّما في ذلك العَصْر، حيث لم يكن بَعْدُ نَقْطٌ ولا شَكْلٌ، فتتصحَّف الكلمةُ بما يُحيل المعنى، ولا يَقَعُ مثل ذلك في الأخذِ من أفواه الرجال، وكذلك التحديثُ من الحفظ يَقَعُ فيه الوَهَم، بخلاف الرواية من كتاب محرَّرٍ اهـ.

ولابن خَلدون مبحثٌ نفيسٌ في هذا؛ كما في «المُقدِّمة»[3] له. ولبعضهم:

مَنْ لم يُشافِهْ عالمًا بأُصولِهِ ❖ يقينُهُ في المُشكلات ظُنونُ

وكان أبو حَيَّان كثيراً ما يُنشِدُ:

---

(١) مقدمة التحقيق لكتاب «الغُنية» للقاضي عياض: (ص١٦-١٧).
(٢) «السير» (٧/ ١١٤).
(٣) (٤/ ١٢٤٥).

يَظُنُّ الغَمْرُ[1] أنَّ الكُتْبَ تَهْدِي *** أَخَا فَهْمٍ لإدراكِ العُلُومِ

وما يَدْرِي الجَهُولُ بأنَّ فيها *** غوامضَ حَيَّرتْ عقلَ الفَهِيمِ

إذا رُمْتَ العلومَ بغيرِ شَيْخٍ *** ضَلَلْتَ عن الصِّراطِ المستقيمِ

وتلتبسُ الأُمورُ عليك حتَّى *** تصيرَ أضلَّ من «تُوما الحكيمِ»
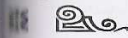
هذا الكلام فيما أشرنا إليه من قبل، أن الأخذ عن العلماء والمشايخ أفضل من الأخذ من الكتب، وبيَّن ما نقله هنا في الرد على ابن بطلان. قال: «**يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم، وهي معدومة عند المعلم وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم النقط**». وكان فيما سبق يكتبون بلا نقط فيخطأ الإنسان، فمثلاً ربما تجد كلمة «بزة»: اشتريت بزة بصاع من تمر بدون مقابضة. إذا لم يكن فيها نقطه «بزة» تكون «برة»، ومعلوم أنك إذا اشتريت بُر بتمر بدون مقابضة فالبيع غير صحيح، فتختلف الأحكام باختلاف النقط، كذلك «**الغلط بزوغان البصر**» فيرى الكلمة على صورة غير حقيقتها لاسيما إذا كان الكتاب ليس جيد؛ كذلك «**قلة الخبرة بالإعراب**» والإعراب له أثر في تغيير المعنى. وكذلك «**إصلاح الكتاب، وكتابة ما لا يقرأ، وقراءة ما لا يكتب**» كل هذا يعترى من يأخذ العلم عن الكتاب، كذلك «**مذهب صاحب الكتاب**» ربما يكون مذهبه مذهب معتزلي أو جهمي أو غيره وأنت ما تدري، وكذلك «**سقم النسخ، رداءة النقل، إدماج القارىء مواضع المقاطع**» يعني أن الكلمة لابد أن تقف عليها، فيأتي القارىء ليقرأ الكتاب فيقرأ ما بعدها فيختلف المعنى، «**وخلط مبادىء التعليم**» بحيث لا يميز بعضها من بعض، بمعنى أن الكاتب ربما لا يكون متقنًا للكتاب فيغلط هذا مع هذا، والمبتدىء لا يعرف ذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة وهو لا يدري مثل كلمة في المصطلح «معضل، منقطع» إيش معنى منقطع؟ إذا لم يكن عنده علم أشكل عليه هذا الشيء.

(١) الغمر: الصغير.

يقول: «**ألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالنورس**» هذه العبارة لابد وأن أفهم، ما هو النورس؟ طائر؟ والله ما أدري، لأن الطائر ما يقال ألفاظ يونانية، فلعلها اسم لعلم من العلوم.

يقول: «**فهذه كلها معوقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم، وإذا كان الأمر على هذه الصورة، فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه**».

ثم نقل عن بعض العلماء أنه قال: «**لا تأخذ العلم من صحفي ولا من مُصحفي**» يعني لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف، ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف.

وهذا كله فيما إذا كانت الكتب التي يقرأ منها ليست فيها بيان، أما إذا كان فيها بيان، كالموجود الآن من المصاحف، فالأمر واضح.

الفصل الثالث

آداب الطالب مع شيخه

١٨ - رعايةُ حُرْمَةِ الشَّيْخ:

بما أنَّ العلمَ لا يُؤخذ ابتداءً من الكُتُب بل لابُدَّ من شيخ تُتْقِنُ عليه مفاتيحَ الطَّلَب؛ لتَأْمَنَ من العِثَارِ والزَّلَل؛ فعليك إذًا بالتحلِّي برعاية حُرْمَتِه؛ فإنَّ ذلك عنوانُ النجاحِ والفلاحِ والتحصيلِ والتوفيقِ، فَلْيَكُن شيخُكَ محلَّ إجلالٍ منك وإكرامٍ وتقديرٍ وتلطُّفٍ، فَخُذْ بمجامعِ الآدابِ مع شيخِكَ في جُلوسِكَ معه، والتحدُّثِ إليه، وحُسْنِ السؤالِ والاستماعِ، وحُسْنِ الأدَبِ في تصفُّحِ الكتابِ أمامَه ومعَ الكتابِ، وتَرْكِ التطاولِ والمماراةِ أمامَه، وعَدَمِ التقدُّمِ عليه بكلامٍ أو مسيرٍ أو إكثارِ الكلامِ عِنْدَه، أو مُداخَلَتِه في حديثِهِ ودَرْسِهِ بكلامٍ منك، أو الإلحاحِ عليه في جَوَابٍ؛ مُتَجَنِّبًا الإكثارَ من السؤالِ، لاسيَّما مع شُهودِ الملإِ، فإنَّ هذا يُوجِبُ لك الغُرُورَ وله المَلَل.

آداب الطالب مع شيخه. وهذه من أهم الآداب لطالب العلم، أن يعتبر شيخه معلمًا، مربيًا، معلمًا يلقي إليه العلم، ومربيًا يلقي إليه الآداب، والتلميذ إذا لم يثق بشيخه في هذين الأمرين فإنه لن يستفيد منه الفائدة المرجوة.

فمثلاً: إذا كان عنده شك في علمه، كيف ينتفع به؟ إن أي مسألة ترد على لسان الشيخ سوف لا يقبلها حتى يسأل ويبحث، وهذا خطأ في التقدير من وجه، وخطأ في التصرف من وجه آخر. أما كونه خطأ في التقدير: فإن الشيخ المفروض فيه أنه لن يجلس للتعليم إلا وهو يرى أنه أهل، وأن التلميذ لم يأتِ لهذا الشيخ إلا وهو يعتقد أنه أهل.

أما في المنهج فلأن الطالب إذا سار في هذا السبيل وسلك هذا المنهج سوف يهز علمه على شفا جرف هارٍ، لأن نفسه قلقة، ليس واثقًا كل الثقة في هذا الشيخ الذي قرأ عليه ولهذا يضيع عليه الوقت، ويضيع عليه التحصيل.

وقول شيخنا: «إن العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب» سبق الكلام عليه، وأنه يرى أنه لابد من القراءة على شيخ، بل لابد من شيخ متقن. تتقن عليه مفاتيح الطلب، وتأمن من العثار والزلل، فعليك إذًا بالتحلي برعاية حرمته، فإن ذلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل وهذا كما قال الشيخ واضح.

«فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف» كل هذا صحيح ولكن فهل نحن عملنا بذلك؟ والله ما أدري !!

لكن إذا كان الطالب يمرُّ بشيخه ولم يسلم هل هذا عمل؟ هذا ليس بأهل، بل أنه إذا جاء شيخه مرَّ مرَّ السحاب وعجَّل ليدرك. هذا ليس من الآداب، نحن نذكر لما كنَّا طلبة، إذا رأينا شيخنا من بعيد نقف ونسلم، ومثلاً إذا كنا معه ندخل المسجد نمكِّنه أن يدخل قبلنا وأنا شخصيًا ما أريد هذا. أن تقفوا لي وأدخل قبلكم، ولكن أريد السلام الذي أمر به الرسول ﷺ بإفشائه، وكذلك بعض الناس يمر مع زميله ثم يصنع برأسه هكذا كأنه يسبح في الماء. وهذا غلط أيضًا.

يقول أيضًا: «فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه والتحدث إليه» وهذا صحيح. اجلس جلسة المتأدب. يعني مثلاً: لا تمد رجليك بين يديه لأن هذا سوء أدب، ولا تجلس متكئًا، هذا أيضًا سوء أدب ولاسيما في مكان الطلب، أما إذا كنت في مكان جلوس عادي فهذا أمر أهون، كذلك أيضًا في التحدث إليه لا تتحدث إلى شيخك وكأنك تتحدث مع قرينك، لا يستقيم هذا، تتحدث إليه تحدث الابن إلى أبيه باحترام وتواضع.

يقول: «وحسن السؤال والاستماع» فإذا سأل يسأل بهدوء ورفق حسن الاستماع أيضًا مهم، بحيث يكون قلبك وقالبك متجه إلى محدثك ومعلمك، لا تكن جالسًا

ببدنك سائرًا بقلبك في غير مكان الدرس، إن هذا يفوتك خيرًا كثيرًا وأنت جالس الآن، وقتك لابد أن يكون مملوكًا لهذا الدرس.

وهل من علامات حضور القلب تشخيص العين؟ لا ليس من العلامات، ولكنه قد يكون قرينة، ـ وإن كان قرينة هشَّة ـ ، كذلك أيضًا «حسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب» إذا تصفحت الكتاب تصفحه برفق لئلا يتمزق. «وترك التطاول والمماراة أمامه» والتطاول في الواقع ليس أمرًا محسوسًا مدرك بالحسِّ الظاهر، لكن النفس تشهد بأن هذا السائل متطاول، وقد يكون هذا بسوء ظن، وقد يكون بفراسة لكن التطاول معروف. كذلك المماراة يعني: يجادل الشيخ وإذا أجاب يقول: وإذا كان كذا، وإذا أجاب، يقول: إذا كان كذا، يجيبه، ثم هذه مسألة فرضيته، يجيبه عن هذا الفرض، تجيب فرضًا آخر أضيق من الأول. هذه مماراة مالها داعي.

كذلك: «عدم التقدم عليه بكلام أو مسير» الله المستعان، وهذا داء عندكم موجود، أحيانًا بعضكم يجيب قبل أن أتكلم معه. «أو مسير» أيضًا هذا سوء أدب، ومن ذلك أنه إذا تقدم الشيخ خارجًا من المسجد وكان حذاء الطالب عن يمين الشيخ وحذاء الشيخ عن يساره خطى أمام الشيخ من الأمام ليأخذ الحذاء. هذا تقدم في المسير وإعاقة لسير الشيخ.

يقول أيضًا: «أو إكثار الكلام عنده» المجالس تختلف إذا كان مجلس علم ومجلس جد فلا تكثر، لكن إذا كان المكان نزهة فهذا لا بأس أن يأتي أحد يكثر الكلام ويوسع صدر الشيخ وصدر الحاضرين ما في مانع، كذلك أيضًا أو «مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك» يعني: الشيخ يتكلم، مستمر في كلامه، فتأتي أنت وتدخل به لتقطع الكلام هذا لا يصح لا في الدرس ولا خارج الدرس، لأن هذا سوء أدب.

«أو الإلحاح عليه في جواب» إذا سأل الشيخ قال: يا شيخ انتظر، أعاد، قال: انتظر.

هذا أيضًا غلط «متجنبًا الإكثار من السؤال» لأن بعض الناس يحب الإكثار من السؤال، وقد يكون في غير موضوع الدرس، فيقول الشيخ لا تكثر. «لاسيما مع شهود الملإ، فإن هذا يوجب لك الغرور وله الملل» صحيح. مثلاً في مجلس كبير تسأل بعض الناس حتى إذا جلسوا على المائدة أكثر الأسئلة هذا يسأل فإذا انتهى سأل آخر، فإذا انتهى سأل ثالث . . . وهكذا حتى يخرج الشيخ ولم يأكل الطعام وهؤلاء مستريحين.

ولا تُناده باسمه مُجَرَّدًا، أو مع لقبه كقولك: يا شيخُ فلان! بل قل يا شيخي! أو يا شيخنا! فلا تُسمِّه؛ فإنَّه أرفعُ في الأدب، ولا تُخاطِبْه بتاء الخطاب، أو تُناديه من بُعْدٍ من غيرِ اضطرار.

سبحان الله!! هذا عتاب الآن «لا تُناده باسمه» لا تقل يا محمد، يا عبد الله، يا علي مجردًا. أو مع لقبه مثل يا شيخ محمد، يا شيخ عبد الله، لا تفعل. بل تقول يا شيخي أو يا شيخنا. «فلا تُسَمِّه، فإنه أرفع في الأدب» وهل يقال مثل ذلك في مناداة الأب؟ لا تُناده باسمه، وهل تخبر عنه باسمه؟ وقع عن الصحابة أنهم يسمون آبائهم، فيقول ابن عمر: قال عمر، وما أشبه ذلك من الكلام.

فيقال إن الخبر أهون من النداء، لأنك لو تنادي أباك فتقول: يا فلان! صار من سوء الأدب، ولو تقول: قال فلان وكان هو مشهور بالعلم فلا يعد ذلك سوءًا، فلكل مقام مقال، وباب الطلب أشد يجب أن يكون أشد في الاحترام.

يقول: «ولا تخاطبه بتاء الخطاب» كيف تقول؟ يعني لا تقل: قلتَ أنت كذا وكذا، قلتَ في الدرس الماضي كذا وكذا لأن هذا فيه إساءة وسوء أدب وإشعار بأن هذا الكلام أنت لا ترتضيه. إذًا ما تقول؟ تقول: قلنا كذا، مرَّ علينا كذا وكذا.

«أو تناديه من بُعدٍ» من أقصى الشارع يا فلان . . يا فلان! ما يصلح إلا من ضرورة، فإن كان هناك ضرورة بحيث يكون عليه خطر هو أمامه حفرة، أمامه سيارات، أمامه أشياء خطر عليه هو، هنا لا بأس أن تنادي من بعيد.

وانظُر ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى من الدلالةِ على الأدبِ مع مُعلِّم الناس الخيرَ ﷺ في قوله: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (سورة النور:٦٣). الآية.

هذه الآية للعلماء في تفسيرها قولان:

القول الأول - لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضًا وهذا ما ساقه المؤلف من أجله.

والثاني - لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضًا، بل عليكم أن تجيبوه فتمتثلوا أمره وتجتنبوا نهيه بخلاف غيره، فغيره إن دعاك إن شئت أجبت وإن شئت لم تجب، لكن النبي ﷺ إذا دعاك يجب أن تجيبه. لذلك قال العلماء: إن النبي ﷺ إذا دعا إنسانًا وهو في صلاة، وجب عليه أن يجيبه ولو قطعها.

ففي الآية قولان لأهل العلم، فعلى القول الأول: تكون دعاء مضافة إلى الفاعل أو المفعول. يعني: لا تجعلوا دعاءكم الرسول كدعاء بعضكم بعضًا.

وإذا قلنا دعاء الرسول، يعني إذا دعاكم الرسول فأجيبوه، تكون مضافة إلى الفاعل. لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم كدعاء بعضكم بعضًا.

بناء على القاعدة التفسيرية: أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين ولا منافاة بينهما، هل يمكن أن نحملها على المعنيين؟ نعم يمكن أن نحملها على المعنيين.
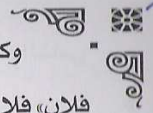
وكما لا يليقُ أن تقولَ لوالدكَ ذي الأُبُوَّة الطينيَّة: «يا فلان» أو «يا والدي فلان» فلا يَجْمُلُ بك مع شيخِكَ.

الأبوة الطينية لا تقول لأبيك من النسب يا فلان، فكذلك أبوك في العلم لا تقل له يا فلان، والشيخ بكر لم يقل أن تقول لوالدك ذي النسب، ذي الأبوة الطينية إشارة إلى حقارته بالنسبة لأب العلم، المعلم.
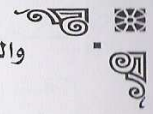
والتزمْ توقيرَ المجلسِ، وإظهارَ السُّرورِ من الدرسِ والإفادةِ به.

هذا أيضًا مهم، أن تُبدي السرور من الدرس والإفادة منه، وأن ترتقبه بفارغ الصبر، أما أن تململ، مرة تقلب الكتاب، ومرة تخطط بالأرض، ومرة تطلع السواك تتسوك ومرة تزين الغُترة وما أشبه ذلك، هذا معناه الملل. ينبغي للإنسان أن يفرح، وأنه نزل في رياض يجني ثماره.
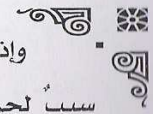
وإذا بَدَا لك خَطَأٌ من الشيخِ، أو وَهَمٌ فلا يُسْقِطْه ذلك من عينك؛ فإنَّه سببٌ لحرمانِكَ من علمِهِ، ومن ذا الذي يَنجُو من الخطأِ سالمًا؟

ولكن إذا بدا خطأ أو وهم من الشيخ هل تسكت أم تنبهه، وإذا نبهته هل تنبهه في مكان الدرس أو في مكان آخر؟ هذا يجب التزام الأدب فيه.

نقول: لا يجوز لك أن تسكت على الخطأ، لأن هذا ضرر عليك وعلى شيخك، فإنك إذا نبهته على الخطأ وانتبه أصلح الخطأ. وكذلك الوهم قد يتوهم، قد يسبق الإنسان إلى كلمة لا يريدها فلابد من التنبيه. لكن يبقى هل تنبهه في مكان الدرس أو خارجه؟ هذا ينظر في القرار تنبهه في الحال أن تنبهه في الدرس مثل حالنا الآن،

يقتضي أن تنبهونا في الدرس لأنّا عندنا الأخ موسى والأخ عبد الله وكل واحد ما شاء الله ماسك بمسجل فإذا لم يصلح الخطأ في حينه، نشر هذا العلم على خطأ، فلابد من التنبيه في مكان الدرس. أما لو كان لا يحضر ولا يسمع هذا الوهم أو هذا الخطأ إلا الطلاب فإن من الأليق ألا تنبهه في مكان الدرس، بل إذا خرج تلتزم الأدب معه وتمشي معه وتقول: سمعت كذا وكذا فلا أدري أوهمتُ أنا في السمع أم أن الشيخ أخطأ مثلاً.

واحْذَرْ أن تُعامِلَه بما يُضْجِرُه، ومنه يُسَمِّيه المُوَلَّدُون: «حرب الأعصاب»[1]، بمعني: امتحانِ الشيخِ على القُدرة العِلْمِيَّة والتحمل.

هذا صحيح، بعض الناس يقول امتحن الشيخ، فيأتي بأسئلة معضلة ويبدأ يسأل، كلما أجاب الشيخ في جواب إذا كان كذا الحكم وإذا كان كذا ويصعده مائة درجة بهذه التقديرات ويشوف هل يضجر ويمل ويغضب فما رأيه لو غضب الشيخ في هذه الحال. هل يحق له ذلك؟ نعم. ولو طرد الطالب؟ هذا يُنظر فيه.

وإذا بدا لك الانتقالُ إلى شيخٍ آخرَ، فاسْتَأْذِنْهُ بذلك، فإنه أدعى لحُرمتِهِ، وأملكُ لقلبِهِ في محبَّتِك والعَطْفِ عليك ...

إذا بدا لك أن تنتقل إلى شيخ آخر أو أن تتعلم من شيخ آخر علمًا آخر غير الذي تتعلم على شيخك فإنه من الأدب أن تستأذن، للفائدة الذي ذكرها الشيخ بكر: لأنه أدعى لحرمته، وأملك لقلبه ومحبتك والعطف عليك. ثم إنه قد يعلم عن الشيخ الذي تريد أنت الذهاب إليه ما لا تعلمه أنت فينصحك. لأن كثير من الشباب

(١) «معجم التراكيب» لأحمد أبو سعد: (ص ٢٨٣)، تركيب مولَّد.

الصغار قد يغترون بأسلوب أحد من الناس وبيان وفصاحة فيظنونه ذاك الرجل العظيم، لكنه على خطأ، لذلك فإستئذان الشيخ له فوائد، منها ما ذكره الشيخ بكر، ومنها ما أشرنا له الآن.

إلى آخر جُملةٍ من الآداب يعرفُها بالطَّبْع كلُّ مُوَفَّقٍ مُبارَكٍ وفاءً لحقِّ شيخِكَ في «أُبُوَّتِهِ الدِّينية»، أو ما تُسمِّيه بعضُ القوانين باسم «الرِّضاع الأدبي»[1]، وتَسْمِيَةُ بعضِ العُلَماءِ له «الأُبوَّة الدينيَّة» أليقُ، وتركُه أنسبُ. واعلَم أنَّه بِقَدْرِ رعايةِ حُرمتِهِ يكونُ النجاحُ والفلاحُ، وبقدرِ الفَوْتِ يكونُ من علاماتِ الإخفاقِ.

تنبيهٌ مُهِمٌّ: أُعيذُكَ باللهِ من صَنيعِ الأعاجمِ، والطُّرُقيَّةِ، والمبتدعةِ الخَلَفيَّةِ، من الخُضوعِ الخارجِ عن آدابِ الشرعِ، من لَحْسِ الأيدي، وتَقْبيلِ الأكتافِ، والقَبْضِ على اليمينِ باليمينِ والشِّمالِ عند السلامِ، كحالِ تودُّدِ الكبارِ للأطفالِ، والانحناءِ عند السَّلامِ، واستعمالِ الألفاظِ الرَّخْوةِ المُتخاذلةِ: سيِّدي، مولاي، ونحوها من ألفاظِ الخَدَمِ والعبيدِ.

«أعيذك بالله» معنى هذه الجملة يريد بها التحذير من هذا «لحس الأيدي» هذا ما سمعناه أن يخرج الإنسان لسانه ويلحس الأيدي، لكن تقبيل الأيدي فلا بأس به ما لا يخرج عن حدِّ الإفراط والزيادة، وتقبيل الأكتاف ليس أيضًا مذموم، على كل حال عندما يأتي الإنسان من سفرٍ فلا بأس أن يقبل هامته وجبهته وكذلك بأكتافه لا يضر إلا إذا اقتضى ذلك إنحناء، كذلك القبض على اليمين باليمين والشمال هذا أيضًا لا نرى فيه بأس، فإن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «علمني النبي ﷺ التشهد كفي بين كفيه» وهذا يدل على أنه يجوز أن يقبض الكف بين الكف، وإذا إعتاد الناس أن يفعلوا ذلك عند السلام فلا حرج لأنه ليس فيه نهي، صحيح أن المصافحة باليد مع اليد فقط، لكن

(١) «مقاصد الشريعة» لعلال الفاسي: (ص٣٣).

هذا من باب إظهار الشفقة والإكرام كما هو معروف الآن، فلا نرى أن في ذلك بأسًا، بل الإنحناء عند السلام، هذا خلق ذميم لأنه ورد النهي عن ذلك.

«استعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة: سيدي، مولاي» هذا ما لها داعي، وإلا حقيقة أن الشيخ سيد إلى تلميذه ولكن ينبغي أن يتخاذل أمامه حتى يقول: سيدي، أو يقول مولاي، ولكن مع ذلك هو جائز من حيث الشرع.

وانظر ما يقوله العلامة السَّلَفي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزائري (م سنة ١٣٨٠هـ) رحمه الله تعالى في «البصائر» فإنه فائق السِّياق[1].

أحالنا إلى هذا الكتاب المُسمَّى «البصائر» فإنه فائق السياق» لا أعرف الكتاب هذا ولا أطلعته.

١٩ - رأسُ مالِك - أيها الطَّالبُ - من شيخِك:

القدوةُ بصالحِ أخلاقِهِ وكريمِ شمائلِهِ، أمَّا التَّلقِّي والتلقين، فهو ربحٌ زائدٌ، لكن لا يأخُذْك الاندفاعُ في محبَّةِ شَيْخِك فتقعَ في الشَّناعةِ من حيثُ لا تدري وكلُّ من ينظر إليك يَدْري، فلا تُقلِّده بصوتٍ ونَغْمَةٍ، ولا مشيةٍ وحركةٍ وهيئةٍ، فإنَّه إنما صار شيخًا جليلاً بتلك، فلا تَسْقُطْ أنت بالتَّبَعيَّة له في هذه.

هذا من أهم ما يكون إذا كان شيخك على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة والشمائل الطيبة، فهنا اجعله قدوة لك، لكن قد يكون الشيخ على خلاف ذلك أو

(١) «آثاره»: (٤/ ٤٠-٤٢).

عنده نقص في ذلك، فلا تقتدي به في هذا ولا تقل إذا صار شيخك عنده خلق سيء اقتديت به .. تقول هذا. كان شيخي مثلاً. لأن الشيخ يكون قدوة. لكن بماذا؟

بالأخلاق السليمة والشمائل الكريمة وكذلك أنت، أما التلقي والتلقين فهو ربح زائد، والواقع أن التلقي والتلقين هو الأصل، لأن التلميذ لم يأتِ للشيخ من أجل أن يتعلم منه الأخلاق فقط، بل من أجل أن يتعلم منه العلم أولاً ثم الأخلاق ثانيًا، ففي الحقيقة أن التلقي والتلقين أمرٌ مقصود كما أن الإقتداء به في أخلاقه أمرٌ مقصود أيضًا، ولهذا لو سألت أي طالب علم لماذا حضرت عند هذا الشيخ؟ لقال لأتلقى العلم، ولا يقول لأجعله قدوة لي في الأخلاق. وعلى كل فالشيخ شيخ في العلم وفي الأخلاق.

أما قوله: «لا تقلده بصوت ونغمة» فهذا صحيح لأن بعض الناس يملكه حبه لشيخه أو لبعض الناس حتى يبدأ بتقليد صوته ونغمته. وكذلك: «ولا مشية وحركة وهيئة» هذا أيضًا ليس على إطلاقه بل يقال: إن كانت مشية الشيخ كمشية النبي ﷺ فاقتدي بها، لا لأن الشيخ قدوتك، ولكن لأن رسول الله ﷺ قدوتك، وكذلك أيضًا الحركة، والحركة قد تكون في بعض المعلمين حركة ممقوتة مثلاً لو تحرك بحركة الكلمة تحرك كل جسده. نعم هذا تقتدي به في هذا، لكن حركة تبين المراد أو تبين حركة النفس من انفعال هذا لا بأس بها، وربما تكون تنشط الطالب لأنك تجد فرقًا بين معلم يكون له حركات تُنبأ عن المعنى وعما في نفسه من إحساسات، وبين معلم يسرد له العلم سردًا، ولماكنت في الطلب في المعهد العلمي في الرياض يأتينا واحد يدرسنا في النحو، ما شاء الله ولكنه يتكلم ويتحرك كل شيء يحتاج إلى حركة يتحرك تجدنا مشدودين معه تمامًا، حتى لو كان عندنا نوم في الأول يطير عنا النوم. لكن يأتي واحد يتكلم يسرد الحديث سردًا قد يموت حيل الإنسان.

٢٠ ـ نَشَاطُ الشيخ في درسِهِ:

يكونُ على قَدْرِ مدارِكِ الطالب في استماعِهِ، وجَمْعِ نفسه، وتفاعُلِ احاسيسه مع شيخِهِ في دَرْسِهِ، ولهذا فاحْذَرْ أن تكونَ وسيلةَ قطعٍ لعلمِهِ، بالكَسَلِ، والفُتورِ والاتّكاء، وانصِرَافِ الذِّهن وفُتورِهِ.

قال الخطيبُ البغداديُّ ـ رحمه الله تعالى: [1] «حَقُّ الفائدة أن لا تُساقَ إلاَّ إلى مُبْتَغيها، ولا تُعْرَضَ إلاَّ على الراغبِ فيها، فإذا رأى المُحَدِّثُ بعضَ الفُتورِ من المستمع، فَلْيَسكُتْ، فإنَّ بعض الأُدباء قال: نشاطُ القائلِ على قَدْرِ فَهْمِ المستمعِ». ثم ساق بسنده عن زَيْد بن وَهْب، قال: «قال عبدُ الله: حَدِّث القومَ ما رَمَقوك بأبصارِهم، فإذا رأيتَ منهم فَتْرَةً، فانزَع» أهـ.

هذه أيضًا من حلية الطالب: أن يكون له همَّة وقوة في الاستماع إلى الشيوخ واتباع نطقه حتى ينشط الشيخ على هذا، ولا يُظهر للشيخ أنه قد ملَّ وتعب بالإتكاء تارة والحملقة فيه تارة، أو تقليب الأوراق تارة وما أشبه ذلك، ولا ينبغي للإنسان أن يلقي العلم بين الطلبة ولا بين عامة الناس إلا وهم متشوقون له حتى يكون كالغيث أصاب أرض يابسة فقبلته، أما أن يُكره أو يفرض نفسه فهذا أمر لا ينبغي. أولاً لأن الفائدة تكون قليلة، وثانيًا ربما يقع في قلب السامع الذي أُكره على إلقاء هذه الكلمة مثلاً يقع في قلبه كراهة إما للشخص وإما لما يلقيه الشخص، وكلا الأمرين مرٌّ، وأمرُّهما أن يكره ما يلقيه الشخص.

على كل حال متى رأيت الناس متشوقين للكلام فتكلم، وإذا رأيت الأمر لا يناسب فلا تتكلم لا تثقل على الناس، وهذا قد مرَّ معنا في البخاري في حديث ابن

(١) «الجامع»: (١/ ٣٣٠).

عباس: إنك لا تلقي على القوم الحديث إلا وأنت تعلم أنهم يحبون ذلك وإلا فلا تلقه عليهم. وهنا يسوق كلام الخطيب. وهذا صحيح: إلقاء المتكلم نشاطه على قدر فهم المستمع، وشتاته على قدر انتباه المستمع، لأن الفهم مرتبة وراء الإنتباه، ينتبه الإنسان أولاً ثم يفهم.

٢١ - الكتابةُ عن الشيخ حالَ الدَّرْسِ والمذاكرة:

وهي تختلفُ من شيخٍ إلى آخرَ، فافْهَم. ولهذا أدبٌ وشَرْطٌ: أما الأدبُ، فينبغي لك أن تُعْلِمَ شيخَكَ أنك ستكتبُ، أو كتبتَ ما سمعتَه مذاكرةً. وأما الشرطُ فَتُشير إلى أنك كتبتَه من سماعهِ من درسهِ[1].

كيف تختلف من شيخ إلى آخر؟ بعضهم سريع، وبعضهم يملي إملاءً، وبعضهم يلقي إلقاءً، وبعضهم لا يستحق أن يكتب ما يقول، ومثل هذا قد يكون إنسان يضيع وقته في الجلوس إليه. وأيضًا يجب في مسألة الكتابة عن الشيخ يجب أن ينتبه الإنسان إلى مسألة مهمة، يفوته بعض الكلمات من حيث لا يشعر فيكتب خلاف ما قال الشيخ.

ونحن الآن والحمد لله في هذا الوقت لا نحتاج أن يكتب الطالب حال إلقاء الشيخ، لماذا؟ لأنَّا عندنا تسجيلات ينقل لك كلام الشيخ من أوله إلى آخره وأنت تستمع إليه وتقيد ما ترى أنه جدير بالتقييد.

ولابد أن تخبر الشيخ أنك ستكتب وإن كنت لابد أن تكتب أو تسجل تخبره أنك سوف تسجل، لأن الشيخ ربما لا يرضى أن تكتب عنه شيئًا.

(١) «الجامع»: (٢/٣٦-٣٨).

وأما الشرط فتشير إلى أنك كتبته من سماعه من درسه حتى يتبين للقارىء، لأنك لو لم تشر إلى هذا، لظن القارىء أن الشيخ أملاه عليك إملاءً، وهناك فرق بين الإملاء وبين كتابة الدرس الذي يلقيه الشيخ بدون أن يشعر أنه يُملي على الطلبة - يعني ما يُسمى بالتقرير، فرق بين الكتابة بالتقرير والكتابة بالإملاء، لأن الإملاء سوف يكون محررًا ومنقحًا، والشيخ لا يملي كلمة إلا ويعرف منتهاها، لكن التقرير يلقي الكلام هكذا مرسلاً ربما تدخل كلمات في بعض وربما سقطت كلمة سهوًا وغير ذلك، فنفرق بين التقرير وبين الإملاء.

ولذلك ينبغي أن يُستأذن الشيخ، فإن قال قائل: هل إقرار الشيخ إذنٌ؟ بمعنى أنه إذا رأى الطلبة يكتبون وسكت. هل يعتبر إذنًا؟ نعم. نقول هو إذنٌ بشرط القدرة على الإنكار، فإن كان لا يقدر أن ينكر، يخشى أن تثور عليه الطلبة وتهيج عليه الطلبة إن قال لا تكتبون، فلا نعتبر سكوته إقرار.

٢٢ - التَّلَقِّي عن المُبْتدع:

احْذَر (أبا الجهل) المبتدعَ، الذي مَسَّهُ زيغُ العقيدةِ، وغَشِيَتْهُ سُحُبُ الخُرافةِ، يُحَكِّمُ الهوى ويُسَمِّيه العقلَ، ويَعْدِلُ عن النصِّ، وهل العقلُ إلا في النَّصِّ؟! ويَسْتَمْسِكُ بالضعيفِ ويُبْعِدُ عن الصحيحِ، ويُقال لهم أيضًا: «أهلُ الشبهاتِ»[1]، و«أهلُ الأهواءِ»، ولذا كان ابنُ المباركِ[2] - رحمه الله تعالى - يُسَمِّي المبتدعة: «الأصاغر».

(١) «الجامع»: (١/١٣٧).

(٢) في «الزهد» (٦١) له، وانظر: «السلسلة الصحيحة»: (رقم ٦٩٥).

وقال الذهبي - رحمه الله تعالى -(١): «إذا رأيتَ المُتَكَلِّمَ المُبتدعَ يقول: دَعْنا من الكتابِ والأحاديثِ، وهات (العقل)؛ فاعلم أنَّه أبو جَهْلٍ، وإذا رأيتَ السالكَ التوحيديَّ يقول: دَعْنَا من النقل ومن العقل، وهات الذوقَ والوَجْدَ، فاعلَمْ أنه إبليسُ قد ظهر بصورة بَشَر، أو قد حَلَّ فيه، فإن جَبُنْتَ منه فاهرب، وإلا فاصْرَعه، وابْرُكْ على صَدْرِه، واقرأ عليه آيةَ الكُرْسِيِّ، واخْنُقْه» اهـ.

يقول رحمه الله: «احذر أبا الجهل» يعني صاحب الجهل - «المبتدع الذي مسّه زيغ العقيدة وغشيته سحب الخرافة» وهذا التحليل الذي قاله الشيخ بكر أمرٌ لازم يجب أن نحذر أهل البدع وصائغوا البدع بصياغة مغرية مزخرفة، وهؤلاء الذين يتبعون أهواءهم في العقيدة يسمون ذلك العقل، والحقيقة أنه عقلٌ ولكنه عقلهم عن الهدى إلى اتباع الهوى، فهم كما قال ابن القيم في أمثالهم: «هربوا من الرق الذي خلقوا له وابتلوا برق النفس والشيطان» يعدل عن النص ويقول: دل العقل على الخلاف. سبحان الله!! هل العقل يخالف النص؟ أبدًا .. لا يمكن بأي عقل صريح خالي من الشبهات والشهوات يخالف النقل الصحيح أبدًا، لكن العلَّة إما من النقل قد يكون غير صحيح أو من العقل قد يكون غير صريح، أما مع صراحة العقل وصحة النقل فلا يمكن أن يوجد تعارض إطلاقًا، ولهذا نعي الله سبحانه وتعالى عن المخالفين للرسل، نعى عليهم عقولهم يقول: ﴿أفلا يعقلون﴾ (سورة يس:٦٨). وما أشبه ذلك.

فالعقل كما قال الشيخ: «وهل العقل إلا في النص ويستمسك بالضعيف ويبعد عن الصحيح». وأكثر ما يكون ذلك في الوعاظ والقصاص تجدهم يحشون أدمغتهم من الأحاديث الضعيفة من أجل تهييج الناس ترهيبًا أو ترغيبًا.

(١) «السيرة» (٤/٤٧٢).

يأتي بمثال: ﴿قل هو الله أحد﴾ (سورة الإخلاص:١). يقول: قال النبي ﷺ: «إن الله يخلق من كل حرف من سورة قل هو الله أحد ألف طائر، ولكل طائر ألف لسان كلها تدعو أو تسبح لهذا الذي قرأها». من قال هذا؟! وأشياء غريبة وعجيبة في فضائل الأعمال والأذكار، كذلك هذا يقال لهم أيضًا أهل الشبهات مع أهل الجهل وأهل الأهواء، وكان ابن المبارك يُسمّي المبتدعة «الأصاغر» وهذا وصف مطابق لموصوفه، فهم أصاغر وإن عظموا أنفسهم، وكل من خالف النص فهو صغير.

أما كلام الذهبي: فالصوفية كل دينهم ذوق ووجد، والظاهر أن الذهبي رحمه الله لقي النكر من هؤلاء ولهذا شدد في تقبيح أوصافهم.

«فإن جبنت منه فاهرب» يعني فإن عجزت عنه أن تحاوره أو تناظره فاهرب، هذا هو الحكم، وإلا فإن كنت تستطيع أن تجادله وأن تفحمه فاصرعه صرعًا حسيًا أو معنويًا «فاصرعه وابرك على صدره» هذا يدل على أنه حسي. «واقرأ عليه آية الكرسي على يذهب الشيطان واخنقه».

الإنسان يسمع كلام الذهبي هذا في ظني أنه إذا صرعه ثم برك على صدره ثم قرأ عليه آية الكرسي ثم خنقه سيموت، لأنه يكون خَنْقُه حينئذ شديدًا قويًا. ولكن على كل حال الظاهر أن الشيخ الذهبي رحمه الله قد أصابه ما أصابه من هؤلاء والمعافى من عافاه الله، لو ذهبت إلى بعض البلاد الإسلامية لوجدت من هؤلاء القوم عجبًا كما يذكر عنهم العلماء السابقون واللاحقون، يعني يصلون إلى حد الجنون، يضربون بالطبول، يضربون بالعصي على الأرض ويغبرون.

والتغبير هو أن يأخذ كل واحد منهم سوط ويهللون بتهليلهم وأذكارهم ثم يطرق الإنسان الأرض ومن كان أكثر غُبارًا كان أشد وأقوى فيكون هذا دليل على أنه مريد حقًا.

وقال أيضًا ـ رحمه الله تعالى ـ [1]: «وقرأتُ بخطِّ الشيخ المُوَفَّق قال: سَمِعْنا دَرْسَه ـ أي: ابن أبي عَصْرون ـ مع أخي أبي عُمَر وانقطعنا، فسمعتُ أخي يقول: دخلتُ عليه بعد، فقال: لِمَ انقطعتُم عنِّي؟ قلتُ: إنَّ ناسًا يقولون: إنك أشعريٌّ، فقال: واللهِ ما أنا أشعري. هذا معنى الحكاية» أهـ.

يستفاد أنك لا ينبغي أن تجلس لمبتدع وإن كانت بدعته حقيقية كبدعة الأشعرية [2].

وعن مالكٍ ـ رحمه الله تعالى ـ قال [3]: «لا يُؤْخَذُ العلمُ عن أربعةٍ: سفيهٍ يُعْلِنُ السَّفَه وإن كان أروى الناس، وصاحبِ بدعةٍ يدعو إلى هواه، ومَن يكذبُ في حديثِ الناس، وإنْ كنتُ لا أتَّهِمُه في الحديث، وصالحٍ عابدٍ فاضلٍ إذا كان لا يحفظُ ما يُحَدِّثُ به».

فيا أيُّها الطالبُ إذا كُنتَ في السَّعةِ والاختيار، فلا تأخُذ عن مبتدع: رافضي، أو خارجي، أو مُرجِئ، أو قَدَري، أو قُبُوري، ... وهكذا، فإنَّك لن تبلغَ مبلغَ الرجال ـ صحيحَ العَقْد في الدِّين، متينَ الاتِّصال بالله، صحيحَ النَّظر، تَقْفُو الأثَرَ ـ إلاَّ بهَجر المبتدعة وبِدَعهم.

وظاهر كلام الشيخ ـ وفقه الله ـ أنه لا يؤخذ عن صاحب البدعة شيء حتى فيما لا يتعلق ببدعته. فمثلاً إذا وجدنا رجلاً مبتدعًا، لكنه جيد في علم العربية: البلاغة

(١) «السير»: (٢١/ ١٢٩).

(٢) ينتسب الأشاعرة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري البصري، وكان معتزليًا فرجع عن الاعتزال وردَّ على المعتزلة وبيَّن تناقضهم، ومن مذهبه: أن الواجبات كلها سمعية، وأن العقل لا يوجب شيئًا، وأن لله صفات أزلية قائمة بذاته تعالى، دلَّت أفعاله عليها، لا يمكن جحدها ككونه تعالى علم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة.
انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٩٤).

(٣) كما في: «السير»: (٨/ ٦١).

والنحو والصرف. فهل نجلس إليه ونأخذ منه هذا العلم الذي هو جيد فيه أم نهجره؟ ظاهر كلام الشيخ أننا لا نجلس إليه لأن ذلك يوجب مفسدتين:

المفسدة الأولى ـ اغتراره بنفسه، فيحسب أنه على حق.

المفسدة الثانية ـ اغترار الناس به، حيث يتوارد عليه الناس وطلبة العلم ويتلقون منه، والعامي لا يفرق بين علم النحو وعلم العقيدة.

لهذا نرى أن الإنسان لا يجلس إلى أهل البدع والأهواء مطلقًا، حتى إن كان لا يجد علم العربية والبلاغة والصرف إلا فيهم، فسيجعل الله له خيرًا منه، لأنا كوننا نأتي لهؤلاء ونتردد إليهم لا شك أنه يوجب غرورهم واغترار الناس بهم.

وكُتُبُ السِّيَرِ والاعتصام بالسنة حافلةٌ بإجهاز أهل السنةِ على البدعةِ، ومُنابَذَةِ المبتدعة، والابتعادِ عنهم، كما يبتعدُ السليمُ عن الأجْرَبِ المريض، ولهم قَصَصٌ وواقعاتٌ يطولُ شَرْحُها [1]، لكن يطيبُ لي الإشارةُ إلى رؤوس المُقيَّدات فيها: فقد كان السَّلَفُ رحمهم الله تعالى يحتسبون الاستخفافَ بهم، وتحقيرَهم، ورَفْضَ المبتدع وبدعتِه، ويُحَذِّرون من مُخالَطَتِهم، ومشاورَتِهم، ومؤاكلتِهم، فلا تتوارى نارُ سُنِّي ومبتدع.

وكان مِن السلف مَن لا يُصَلِّي على جنازة مبتدع، فينصرفُ، وقد شُوهِدَ من العلاَّمة الشيخ محمد بن إبراهيم (م سنة ١٣٨٩هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ انصرافُه عن الصلاة على مبتدع. وكان من السَّلَف من ينهى عن الصلاة خَلْفَهم، وينهى عن حكاية بِدَعهم، لأنَّ القلوبَ ضعيفةٌ، والشُّبَه خطَّافة.

وكان سَهل بن عبد الله التُّسْتَري لا يرى إباحةَ الأكل من المَيْتَة .. للمُبتدع عند الاضطرار، لأنَّه باغٍ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ (سورة

(١) وفي رسالة «هجر المبتدع» لراقمه أصول مهمة في هذه المسألة.

البقرة: ١٧٣). الآية، فهو باغٍ ببدعته[1]. وكانوا يطردُونَهم من مجالسِهم، كما في قصَّة الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ مع من سأله عن كيفيَّةِ الاستواءِ، وفيه بعدَ جوابِهِ المشهورِ: «أظنُّك صاحبَ بدعةٍ»، وأمَرَ به، فأُخْرِج. وأخبارُ السَّلَف متكاثرةٌ في النُّفرة من المبتدعةِ وهَجْرِهِم، حَذَرًا من شَرِّهم، وتحجيمًا لانتشارِ بِدَعِهِم، وكَسْرًا لنفوسِهِم حتى تَضْعُفَ عن نشر البِدَعِ، ولأنَّ في معاشرة السُّنِّيِّ للمبتدعِ تزكيةً له لدى المبتدىء والعاميِّ. والعاميُّ: مُشْتَقٌّ من العمى، فهو بيدِ من يقودُهُ غالبًا.. ونرى في كتب المُصْطَلَح، وآداب الطلب، وأحكام الجرح والتعديلِ الأخبارَ في هذا[2].
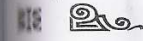
المؤلف ـ وفقه الله ـ حذر هذا التحذير المرير من أهل البدع، وهم جديرون بذلك ولاسيما إذا كـان المبتدع سليط اللسان، فصيح البيـان، فإن شره يكون أشد وأعظم، ولاسيما إذا كانـت بدعة مكفرة أو مفسقة، فإن خطره أعظم ولاسـيما إذا كان يتظاهر أمـام الناس بأنه من أهل السنة، لأن بعض أهل الـبدع عندهم نفـاق، تجـده عند من يخاف منه يتمسكن ويقول: أنا من أهل السنة وأنا لا أكره فلان ولا فلان من الصحابة وأنا معكم. وهو كاذب فمثل هؤلاء يجب الحذر منهم.

وقوله: «**وكان من السلف من لا يصلي على مبتدع**» على كل حال إذا كـانت البدعة مكفرة فـلاشك أن الصلاة عليـه لا تجوز لقـول الله تعالى لرسوله ﷺ فـي المنافقين: ﴿ولا تصلِّ علىٰ أحدٍ منهم مات أبدًا﴾ (سورة التوبة: ٨٤). هذا لا يصلَّى عليه، أما إذا كانت غير مكفرة فهذا ينظر فيما يترتب على ترك الصلاة عليه من المفسدة وعدمها، فإذا كان أهل السنة أقوياء وكان أهل البدعة في عنفوان بدعتهم، فلاشك أن ترك الصلاة عليهم

(١) «الفتاوي»: (٢٨/٢١٨)، انظرها، فهو مهم.

(٢) منها في: «الجامع» للخطيب، باب: تخير الشيـوخ إذا تباينت أوصافهم: (١٠/١٢٧)، وفي كتاب «مناهج العلمـاء في الأمر بالمعروف والنـهي عن المنكر «للسامـرائي: (ص ٢١٥-٢٥٥)، وهو مهم، وفي (التحول المذهبي) من «الإسفار» لراقمه أمثلة من آثار مخالطتهم.

أولى، لأن أهل السنة أقوياء وهؤلاء في عنفوان دعـوتهم، ربما إذا تركنا الصلاة عليهم يحصل بذلك ردعـًا عظيمًا لهم. ومـا ذُكر عن الشيخ محمد بن إبراهيم رحـمه الله مفتي البلاد السعودية في زمانه يدل على قوته رحمه الله وصرامته، حيث انصرف عن الصلاة على مبتدع. أيضًا الصـلاة خلفه من باب أولى أن يحذر الإنسان منـها، فإن كانت بدعتـه مكفرة فإن الصلاة خلفـه مع العلم ببدعته المكفـرة لا تصح. وإن كانت دون ذلك فالصحيح أن الصلاة خلفه صحيحة. لكن لا ينبغي أن يصلي خلفه، أما ما ذكر عن سهل بن عبد الله التستري[1]. الذي لا يبيح أكل الميتة للمبتدع، وإن اضطر إلى ذلك، فإن كان هذا المبتدع كافرًا فإنه لا يباح له عند الله أكل الميتة ولا أكل مذكاته لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا﴾ (سورة المائدة: ٩٣). ولقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (سورة الأعراف: ٣٢). فدل هذا على أن الطيبات من الرزق والزينة التي أخرج الله لعباده ليـست خالصة لغيـر المؤمنين يوم القيامة، بل يحـاسبون عليهـا فإذا كانت بدعتـه مكفرة فنحن نقـول: لا يحل له أن يأكل الميتة عند الاضـطرار ولا الذكاة عند الاختيار لكن نقول: تب من بدعتك المكفرة وكل كما يأكل المؤمنون.

وإن كانت مفسقـة ففي ما قاله رحمه الله نظر، لأن الصحيح فـيما قاله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ (سورة البقرة: ١٧٣). أي غير مبتغ لأكل الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي غير معـتدٍ لأكل ما يحتاج إليه. هـذا هو الصحيح في الآية والدليل على أن هذا هو الصحيح، هو قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٣). ومن العلماء من قال المراد بالباغي: الباغي على الإمام وليس كل فاعل معصية.

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محـمد. من كبار العباد والزهاد. توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين. صفة الصفوة (٤/٤١).

ففي كلام سهل رحمه الله تفصيل: وهو إذا كانت بدعته مكفرة فلا يحل له أن يأكل من الميتة أو المذكاة ويحاسب على بدعته عند الله، وإن كانت غير مكفرة ففي قوله نظر أما في طرده من المجالس، فنعم يطردون من المجالس، وللشيخ أن يطرد في مجلسه ما دون ذلك إذا رأى من أحد الطلبة أنه يريد أن يفسد الطلب عند زملائه وبحيث يعتدون على الشيخ ولا يهابونه ويحتقرونه، فله أن يطرده لأن هذا يعتبر مفسدًا يُطرد. والإمام مالك رحمه الله قال: ما أراك إلا مبتدعًا. لأن الذين يسألون عن مثل ذلك المبتدعة. يسألون كيف استوى؟ يحرجون بذلك أهل السنة. يقولون: اخبرني كيف استوى؟ والإخبار عن ذلك سهل. أن الله أخبرنا أنه قد استوى، ولم يخبرنا كيف استوى. وهل نعلم كيفية شيء لم نعلم به وهو غائب عنا؟! أبدًا.

لو قال لك قائل: إني بنيت بيتًا. فأنت قد علمت أنه بنى بيتًا وتعلم كيف بناء البيت. لكن تعرف كيفية هذا البيت وما فيه من الحجر...؟ **الجواب:** لا إن كنت لم تشاهده.

وقوله: «**العامي من العمى**» لم أعرف أنه اشتق من العمى إلى الآن، فينظر في ذلك هل هو من العمى أم هو من العموم، أي من عموم الناس. والعامي لاشك أنه هو الجاهل الذي لا يعرف؟

فيا أيها الطالب! كُن سَلَفيًا على الجادَّة، واحْذر المبتدعة أن يفتنوك، فإنَّهم يُوظِّفون للاقتناص والمُخاتَلَة سُبُلاً، يفتعلون تعبيدَها بالكلام المَعْسول. وهو: (عسل) مقلوبٌ. وهُطول الدمعة، وحُسْنِ البزَّة، والإغراء بالخيالات، والإدهاش بالكرامات، ولحْسِ الأيدي، وتقبيل الأكتاف .. وما وراء ذلك إلاَّ وَحَمُ البدعة، ورَهَجُ الفتنة، يَغرِسُها في فؤادك، ويَعتملُك في شِراكِه، فوالله لا يَصلُحُ الأعمى لقيادةِ العميانِ وإرشادهم.

أمَّا الأخذُ عن علماء السنة، فالْعَقِ العسَلَ ولا تَسَل. وفَّقك الله لرُشْدِك، لتنهلَ من ميراث النُّبوة صافيًا، وإلا فلْيَبكِ على الدِّين مَن كان باكيًا. وما ذكرتُهُ لك هو في حال السَّعةِ والاختيار، أمَّا إن كُنتَ في دراسةٍ نظاميَّةٍ لا خيارَ لك، فاحْذَر منه، مع الاستعاذة من شرِّه، ولا تتخاذَلْ عن الطَّلَب، فأخشى أن يكونَ هذا من التَّولِّي يومَ الزَّحْفِ، فما عليك إلاَّ أن تَتَبيَّنَ أمرَه، وتَتَّقي شرَّه، وتكشفَ سِتْرَه.
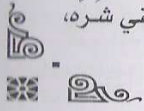
هنا إحتراز جيد، قد يلجأ الإنسان إلى المبتدع وذلك في الدراسات النظامية قد يُندب إلى التدريس في العلوم العربية مثلاً أو في العلوم الأخرى. هو مبتدع ومعروف أنه من أهل البدع، ولكن ماذا تفعل إذا كنت لابد أن تدرس على هذا الشيخ؟؟

نقول: خذ من خيره ودع شره، إن تكلم أمام الطلاب في العقيدة فعليك بمناقشته إن كنت تقدر على المناقشة وإلا فارفع أمره لمن يقدر على مناقشته واحذر أن تدخل معه في نقاش لا تستطيع التخلص منه، لأن هذا ضرر لا عليك أنت، بل على القول الذي تدافع عنه، لأنك إذا فشلت أمام هذا الأستاذ مثلاً صار هذا كسرٌ للحق ونصر الباطل، لكن إذا كان عندك قدرة في مجادلته فعليك بذلك، وربما يكون في هذا مصلحة للجميع، مصلحة لك أنت يهديه الله على يديك ومصلحة له هو يهديه الله من بدعته.

وهل تقارن مثل هذا بمن أُبتلي بالدراسة مع الإختلاط على الوجه النظامي؟ فيه التفصيل. إن دعت الضرورة بذلك، إذا لم يكن هناك جامعات أو مدارس خالية من ذلك فهنا قد تكون هناك ضرورة، وفي هذه الحال يجب على الطالب أن يبتعد عن الجلوس إلى امرأة أو التحدث معها أو تكرار النظر إليها. يعني بقدر ما يستطيع يبتعد عن الفتنة.

أما إذا كان من الممكن أن يدرس في مدارس أخرى خالية من الاختلاط أو فيها نصف اختلاط، كما أن يكون النساء في جانب والرجال في جانب آخر فليتق الله ما استطاع.

ومِنَ النُّتَفِ الطريفةِ أنَّ أبا عبدِ الرحمنِ المُقرِىءِ حدَّث عن مُرجِىءٍ، فقيل له: لِمَ تُحَدِّثُ عن مُرْجِىءٍ؟ فقال: «أبيعُكم اللَّحْمَ بالعِظام»[1]. فالمُقرِئ ـ رحمه الله تعالى ـ حدَّث بلا غَرَرٍ ولا جهالةٍ، إذ بيَّنَ فقال: «وكان مُرجِئًا».

إلى ماذا تشير هذه القصة؟ أبيعكم اللحم بالعظام. الباء هنا للمصاحبة والمعية، يعني معناها: ما من لحمة إلا وفيها عظم. فأنا أحدثكم بما حُدثت به، وأقول «وكان مرجئاً» فيكون العظم هنا في الوسط.

وما سطرتُه لك هُنا هو من قواعدِ معتقدِك، عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، ومنه ما في «العقيدة السَّلَفِيَّة» لشيخ الإسلام أبي عُثْمان إسماعيل ابن عبدِ الرحمن الصَّابُونيِّ (م سنة ٤٤٩هـ)، قال ـ رَحِمَهُ اللهُ تعالى ـ[2]:

«ويُبغضون أهلَ البدعِ الذين أحْدَثوا في الدِّين ما ليس منه، ولا يُحِبُّونهم، ولا يَصْحَبُونهم، ولا يَسْمعون كلامَهم، ولا يُجالِسُونهم، ولا يُجَادلونهم في الدِّين، ولا يُناظرونهم، ويَرون صَوْنَ آذانهم عن سماعِ أباطيلهم التي إذا مَرَّت بالآذان، وَقَرَّت في القلوب، ضَرَّت، وجَرَّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدةِ ما جَرَّت، وفيه أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (سورة الأنعام: ٦٨). أهـ.

كلام الصابوني رحمه الله يحتاج إلى بيان. قوله: «ويُبْغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه» لاشك أن هذا أمرٌ واجب على كل مسلم أن يُبغض في دين الله ما ليس منه، لكن إذا كانت بدعته غير مكفرة فإنه يبغض من وجه ويحب

(١) الخطيب في «جامعه»: (١/ ٢٢٤).
(٢) (ص ١٠٠).

من وجه آخر، لكن بدعته تبغض بكل حال. كذلك أيضًا «ولا يصحبونه» صحبته تأليفًا له ودعوته فلا بأس، لكن بشرط أنك إذا رأيت من صلاحه فارقته وتركته.

«ولا يسمعون كلامهم ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الدين ولا يناظرونهم» كل هذه يحتاج إلى قيود. لا يسمعون كلامهم. إذا لم يكن في ذلك فائدة، فإن كان في ذلك فائدة بحيث يسمع كلامه ليرى ما فيه من الباطل ليرى ما يرد عليه فإن السماع هنا والاستماع واجب، لأنك لا يمكن أن يُرد على قوم حتى تعرفهم إذ أن الحكم على الشيء فرعٌ من تصوره. وأيضًا لا تسمع عن أقوال أهل البدع من أعدائهم، بل من أقوالهم، لأنه ربما تشوه المقالة. فإن قلت: أنتم قلتم كذا وكذا. يقولون: أبدًا ما قلنا، ولهذا يخطئ بعض الناس حين يحكم على شخص بالبدعة أو بالفسق دون أن يرجع إلى الأصل، لابد من الرجوع إلى الأصل، لأنك إذا قلت: أنتم قلتم كذا وكذا لأحد من أهل البدع.

فقالوا: نحن لم نقل هذا. هذه كتبنا، تخسر كل الجولة ولا يوثق بكلامك. كذلك أيضًا «لا يجادلونهم في الدين» هذا أيضًا يجب أن يقيد، لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٣٥). فلابد من المجادلة، كيف نعرف نميز الحق عن الباطل إلا بالمجادلة والمناظرة. المجادلة التي يقصدها: المراء. هذه تترك وترفض، إذا علمنا أن الرجل يجادل مُراءة ما يقصد الحق فهذا يُترك.

وانظر إلى قصة أبي سفيان حيث جعل ينادي يوم أحد: أفيكم محمدًا، أفيكم ابن أبي قحافة، أفيكم عمر. قال النبي ﷺ: «لا تجيبوه» لماذا؟ إهانة له وإذلالاً وعدم مبالاة له. فلما قال: «أعل هبل» وافتخر بصنمه قال: «أجيبوه» الآن ما يمكن السكوت. قالوا: ما نجيبه؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل» إذا كان صنمك قد علا، فالله أعلى وأجل. ثم قال: يوم بيوم بدر والحرب سجال. يوم بدر لمن؟ ويوم أحد؟ لهؤلاء المشركين؟ قالوا له: «لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار».

هذا أيضًا افتخر بقومه واستزل المسلمين، فلابد من مجاوبته، قالوا لا سواء قتلا[نا] في الجنة وقتلاكم في النار.

«ويرون صون آذانهم ..» هذا صحيح، الإنسان الذي يخشى على نفسه من سما[ع] البدع أن يقع في قلبه شيء، فالواجب عليه البُعد وعدم السماع، وأما إذا كان عند[ه] من اليقين والقوة والثبات ما لا يؤثر عليه سماعها، فإنه إن كان في ذلك مصلحـ[ـة] سمع، واستجبنا له أن يسمعها، وإن لم يكن له في ذلك مصلحة. قلنا أن الأولى لك أن لا تسمعها لما في ذلك من ضياع الوقت واللغو. والآية واضحة. لكن إ[ذا] كنت تريد أن تعرف ما هم عليه من الباطل لترده فإنه لا يدخل في الآية الكريمة.

وعن سُليمان بن يَسَار أن رجلاً يُقال له: صَبِيغٌ، قدم المدينة، فجعل يسألُ عن متشابِهِ القرآن؟ فأرسل إليه عُمَرُ رضي الله عنه وقد أعدَّ لهُ عَراجينَ النَّخْلِ، فقال: مَنْ أنت؟ قال: أنا عبدُ الله صَبيغٌ، فأخذ عُرْجونًا من تلك العَراجين، فَضَرَبَه حتى دمي رأسُه، ثم تركه حتى بَرَأ، ثم عاد، ثم تَركه حتى برا، فدعى به ليعود، فقال: إن كنتَ تريدُ قتلي، فاقْتُلْني قتلاً جميلاً، فَأذِنَ له إلى أرضِه، وكَتَبَ إلى أبي موسى الأشعريِّ باليمن: لا يُجالِسْه أحدٌ من المسلمين. رواه الدَّارِمي (١). وقيل: كان مُتَّهمًا برأي الخوارج.

هذا الحديث إذا صحَّ سنده فإنه يدل على شدة عمر رضي الله عنه على أولئك الذين يريدون المتشابه من القرآن، لأنه كان يورد آيات متشابه، فمثلاً يقول: ﴿ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون﴾ (سورة المرسلات: ٣٦). ثم يأتي بالآيات الأخرى التي تبين أنهم يعتذرون ولا يقبل منهم، ويأتي يقول: ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ (سورة النساء: ٤٢). ثم يأتي بآيات

(١) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي، الحافظ الثقة صاحب المسند المشهور. قال أبو حاتم: هو إمام أهل زمانه. توفي سنة ٢٥٥ (شذرات الذهب ٢/ ١٣٠).

[أخ]رى تدل على إقرارهم على ذنوبهم، وما أشبه ذلك. وهذا لاشك أنه سعى في الأرض بالفساد.

وتشكيك الناس، وحُق لمن هذه حاله أن يفعل به أمير المؤمنين رضي الله عنه ما فعل. وفيه أيضًا أن بعض الناس قد يورد المتشابهات لاشتباهها عليه حقيقة، وهذا لا يلام. وقد يورد المتشابهات لأنه في الأصل لم يركز نفسه على إرادة الجمع بين النصوص، فتجده دائمًا يتتبع الأشياء المتشابهة ثم يأتي فيجمع بين كذا وكذا وهذه حقيقة مهنة ليست جيدة، وأذكر أن محمدًا الخلوني رحمه الله كان له حاشية على متن «الممتع» وكان كلما أتى ببحث. قال: يحتمل كذا ويحتمل كذا، فلُقِّب عند بعض طلاب العلم بالشكّاك. لأنه لا يستقر على رأي، ولهذا ينبغي أن تأخذ لنفسك طريقًا بأن تبني على الأمور الواضحة ولا تتبع المتشابهات لأنك إن تتبعت المتشابهات ربما تزل.

والنَّوَوِيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ قال في كتاب «الأذكار»: «باب: التَّبَرِّي من أهل البِدَعِ والمعاصي». وذَكَرَ حديثَ أبي موسى رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ بَرِئَ من الصالقةِ، والحالقةِ، والشاقَّةِ». متفق عليه.

«الصالقة» هي التي ترفع صوتها بالنياحة، «والحالقة»، التي تحلق شعرها تسخطًا سواء حلقته بالموسى أو نتفته باليد، «الشاقة» التي تشق الجيب عند المصيبة وإنما برىء رسول الله ﷺ من هؤلاء الثلاث لعدم إيمانهم بالقدر. ومن فعل من الرجال مثلهن فحكمه حكمهن، لكنه ذكر ذلك لأن الغالب أن هذا يقع من النساء، لأن الرجال أشد تحملاً من النساء.

وعن ابن عُمَر براءتَه من القَدَريَّةِ. رواه مسلم[١].

لأنه لما حدث بأن عندهم قومٌ يقولون: إن الأمر أُنُف. يعني: مستأنف، وأن الله لم يقدره من قبل، قال للذي أخبره: أخبرهم بأن ابن عمر منهم بريء لأنهم أنكروا قدر الله وقدره السابق. أتدرون من هم القدرية[٢]؟ الذين يثبتون القدر أم الذين ينفون القدر؟ الذين ينفون القدر، وهي نسبة عكسية لأن الذي يسمع لفظ القدرية، فيظن أن المعنى: الذين يثبتون القدر، والأمر بالعكس فهي نسبة سلب لا إيجاب، وهؤلاء القدرية يسمون مجوس هذه الأمة وقد وردت بذلك أحاديث[٣]. ووجه ذلك لأنهم جعلوا للحوادث محدثين، الحوادث الكونية التي هي من فعل الله، كإنشاء الغيم وإنزال المطر وما أشبه ذلك.

والحوادث التي تكون من فعل العبد، استقل بها العبد. فهم يرون أن العبد مستقل بعمله وأن الله لا علاقة له به إطلاقًا، ولهذا سُمُّوا مجوسًا لأنهم كالمجوس الذين يقولون: إن للحوادث خالقين. النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر.

(١) وانظر أبحاثًا مهمة في: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه الله تعالى: (٢/ ١٣٢)، و(٥/ ١١٩)، و(١٤/ ٤٥٩-٤٦٠)، و(٣٦/ ١١٨).

(٢) القدرية: هم نفاة القدر، ظهرت تلك الفرقة في البصرة، وأول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيًا ثم أسلم ثم تنصر وأخذ عنه معبد الجهني ثم غيلان الدمشقي، والقدرية أربعة أصناف. (القدرية النافية ـ القدرية المجبرة ـ القدرية المشركية ـ القدرية الإبليسية).
انظر: مذاهب الإسلاميين، للدكتور عبد الرحمن بدوي. ص ٩٧.

(٣) كقوله ﷺ: «إن لكل أمة مجوسًا، وإن مجوس هذه الأمة القدرية، فلا تعودوهم إذا مرضوا، ولا تصلوا على جنائزهم إذا ماتوا». الحديث أخرجه الآجري رقم (٤٢٤) وابن بطة رقم (١٥١٦).

والأمرُ في هَجْرِ المُبتدعِ يَنبَني على مُراعاة المصالحِ وتكثيرِها، ودَفْعِ المفاسدِ وتقليلِها، وعلى هذا تتنزَّل المشروعيةُ من عَدَمِها، كما حرَّره شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى في مواضع[١].

إذًا عاد الشيخ إلى ما ذكرنا. وهو: أن ننظر إلى المصالح، فإذا رأينا أن من المصلحة ألاَّ نهجره ولكن نبين الحق، لا نداهنه ويبقى على بدعته ونحن على سنتنا إذا رأينا من المصلحة هذا، فترك الهجر أولى، وإذا رأينا من المصلحة الهجر بأن يكون أهل السنة أقوياء، وأولئك ضعفاء مهزومين فالهجر أولى.

والمبتدعةُ إنما يَكْثُرون ويَظهَرُون، إذا قَلَّ العلمُ، وفشا الجهلُ. وفيهم يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى: «فإنَّ هذا الصِّنْفَ يكثرون ويظهرون إذا كَثُرت الجاهليةُ وأهلُها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوَّة والمتابعةِ لها مَن يُظْهِر أنوارَها الماحيَةَ لظُلمةِ الضلال، ويكشفُ ما في خلافها من الإفكِ والشِّرْكِ والمُحالِ» أهـ.

فإذا اشتدَّ ساعدُك في العلم، فاقْمَعِ المبتدعَ وبدعتَه بلسانِ الحُجَّةِ والبَيَانِ، والسلام.

صحيح. إذا اشتد ساعدك في العلم، أما إذا لم يكن عندك العلم الوافي في رد البدعة فإياك أن تجادل، لأنك إذا هُزمت وأنت سُنِّي لعدم قدرتك على مدافعة هذا المبتدع فهو هزيمة. لمن؟ للسنة، ولذلك لا نرى أن يجوز للإنسان أن يجادل مبتدعًا إلا وعنده قدرة على مجادلته، وكذلك أيضًا مجادلة غير المبتدع: الكفار، لا نجادلهم إلا ونحن نعلم أننا على يقين من أمرنا وإلا كان الأمر عكسيًا بدلاً أن يكون الانتصار لنا.

(١) منها في: «مجموع الفتاوى»: (٢٨/ ٢١٣، ٢١٦-٢١٨).

الفصل الرابع

أدب الزمالة

٣٣ ـ احْذَرْ قرينَ السُّوء:

كما أنَّ العِرْقَ دَسَّاس[١]، فإنَّ «أدَبَ السُّوءِ دسَّاس»[٢]، إذ الطبيعةُ نقَّالة، والطِّباع سَرَّاقة، والناسُ كأسرابِ القَطَا مَجْبولون على تشبُّهِ بعضهم ببعض، فاحْذَرْ مُعاشَرَةَ مَن كان كذلك، فإنه العَطَب، «والدَّفْعُ أسهلُ من الرَّفْع». وعليه، فتخيَّرْ للزمالةِ والصداقةِ من يُعينك على مطلبك، ويُقَرِّبُك إلى ربِّك، ويوافِقُك على شريفِ غَرَضِك ومقصدِك، وخُذْ تقسيمَ الصَّدِيق في أدقِّ المعايير[٣]:

هذه الكلمات مأخوذة من قول الرسول ﷺ: «مثل الجليس الصالح كحامل المسك ومثل الجليس السيء كنافخ الكير»[٤]. فعليك بإختيار الصديق الصالح الذي يدلك على الخير ويبينه لك ويحثك عليه ويبين لك الشر ويحذرك منه، وإياك من جليس السوء، فإن المرء على دين خليله، وكم من إنسان مستقيم قُيد له شيطان من بني آدم فصدَّه عن الاستقامة، وكم من إنسان جائر قاصد يُسِّر له من يدله على الخير بسبب الصحبة.

وبناء على ذلك نقول: إذا كان في مصاحبة الفاسق سبب كهدايته فلا بأس أن تصحبه، تدعوه إلى بيتك، تأتي إلى بيته، تخرج معه للتمشي بشرط ألا يقدح ذلك

---

(١) وفي ذلك حديث موضوع، انظره في: «العلل المتناهية» (٢/ ١٢٣، ١٢٧)، و«شرح الإحياء»: (٥/ ٣٤٨).

(٢) «شرح الإحياء»: (١/ ٧٤)

(٣) «محاضرات إسلامية» لمحمد الخضر حسين: (ص١٢٥-١٣٦).

(٤) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

في عدالتك عند الناس، وكم من إنسان فاسق هداه الله تعالى بما يسر الله له من صحبة الخير.

وقوله: «الدفع أسهل من الرفع» هذه قاعدة فقهية ذكرها ابن رجب في القواعد الفقهية وبمعناها قول الأطباء: الوقاية أسهل من العلاج، لأن الدفع ابتعاد عن الشر وأسبابه، لكن إذا نزل الشر صار من الصعب أن يدفعه الإنسان.

١- صديقُ منفعةٍ.

٢- صديقُ لذَّةٍ.

٣- صديقُ فضيلةٍ.

فالأوَّلان مُنقطعانِ بانقطاعِ مُوجِبِهما، المنفعةُ في الأول، واللذَّةُ في الثاني/ وأمَّا الثالثُ فالتعويلُ عليه، وهو الذي باعِثُ صداقتِهِ تبادُلُ الاعتقادِ في رسوخِ الفضائلِ لدى كُلٍ منهما.

وصديقُ الفضيلةِ هذا «عملةٌ صعبةٌ» يَعِزُّ الحصولُ عليها. ومِن نفيسِ كلامِ هشامِ بن عبد الملك (م سنة ١٢٥هـ) قوله[١]: «ما بَقِيَ من لذَّاتِ الدنيا شيءٌ إلاَّ أخٌ أرفعُ مؤونَةَ التحفُّظِ بيني وبينَه» اهـ.

ومِن لطيفِ ما يُقَيِّدُ قولُ بعضِهِم[٢]: «العُزلةُ من غيرِ عينِ العلمِ: زَلَّةٌ، ومِن غيرِ زاي الزُّهدِ: عِلَّةٌ».

إذًا لابد من علم ولابد من زهد قبل أن ينعزل الإنسان عن الناس. هؤلاء الأصدقاء قسمهم إلى ثلاثة أصدقاء:

(١) «طبقات النسَّابين»: (ص٣١).
(٢) «العزلة» للخطَّابي.

صديق منفعة: وهو الذي يصادقك مادام ينتفع منك بمال أو جاه أو غير ذلك، إذا انقطع الانتفاع فهو عدوك لا يعرفك ولا تعرفه.. وما أكثر هؤلاء، ما أكثر الذين يلمزون في الصدقات إن أُعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون، صديق لك حميم ترى أنه من أعزِّ الناس عندك وأنت من أعزِّ الناس عنده يسألك يوم من الأيام يقول: اعطني كتابك أقرأ فيه. فتقول: والله الكتاب أنا محتاج إياه غدًا، فينتفخ عليك ويعاديك. هل هذا صديق؟ هذا صديق منفعة.

الثاني- صديق لذة: يعني لا يصادقك إلا لأنه يتمتع بك في المحادثات والمآنسات والمسامرات، ولكنه لا ينفعك ولا تنتفع به منه أنت، كل واحد منكم لا ينفع الآخر. ليس إلا ضياع وقت فقط. هذا أيضًا احذر منه أن يضيِّع أوقاتك.

الثالث- صديق فضيلة: يحملك على ما يزين وينهاك عن ما يشين ويفتح لك أبواب الخير ويدلك عليه وإذا زللت ينهاك على وجه لا يخدش كرامتك، هذا هو صديق الفضيلة.

الفصل الخامس

آداب الطالب في حياته العلمية

٢٤ ـ كِبَرُ الهِمَّة في العلم:

مِن سَجَايا الإسلام التَّحَلِّي بِكِبَر الهِمَّة، مركز السالب والموجب في شخصك، الرقيب على جوارحك، كِبَرُ الهِمَّة يجلبُ لك بإذن اللهِ خيرًا غيرَ مجذوذٍ، لترقى إلى دَرَجَاتِ الكمال، فَيُجْري في عُروقك دمَ الشهامةِ، والركضَ في ميدان العلم والعَمَل، فلا يراك الناسُ واقفًا إلا على أبوابِ الفضائلِ ولا باسطًا يديك إلا لِمُهِمَّات الأُمور.

وهذا من أهم ما يكون عليه الإنسان في طلب العلم، يكون له هدف. ليس مراده مجرد قتل الوقت بهذا الطلب، بل يكون له هِمَّة، ومن أهم همم طالب العلم أن يريد القيادة والإمامة للمسلمين في علمه، ويشعر أن هذه درجة هو يرتقي إليها درجة درجة، حتى يصل إليها، وإذا كان كذلك فسوف يرى أنه واسطة بين الله عزَّ وجلَّ، وبين العباد في تبليغ الشرع، هذه مزية ثانية، وإذا شعر بهذا الشعور فسوف يحرص غاية الحرص على اتباع الكتاب والسنة معرضًا عن آراء الناس، إلا أنه يستأنس بها ويستعين بها على معرفة الحق، لأن ما تكلم فيه العلماء رحمهم الله من العلم، لاشك أنه أبواب لنا، وإلا لما استطعنا أن نصل إلى درجة نستنبط الأحكام من النصوص أو معرفة الراجح من المرجوح وما أشبه ذلك.

والمهم أن يكون الإنسان عنده هِمَّة، وهو بإذن الله إنْ نوى هذه النية فإن الله سبحانه وتعالى سيعينه على الوصول إليها.

والتحلّي بها يسلُبُ منك سفاسِفَ الآمالِ والأعمالِ، ويجتثُّ منكَ شجرةَ الذُّلِّ والهوانِ: التملُّق والمُداهَنة، فكبيرُ الهمةِ ثابتُ الجأش، لا تُرْهِبُهُ المواقفُ، وفاقِدُها جبانٌ رِعْدِيدٌ، تُغلقُ فمَه الفهاهةُ.

هذا صحيح. التحلي بعلو الهمة، يسلُب عنك سفاسف الآمال والأعمال.

الآمال: هو أن يتمنى الإنسان الشيء دون السعي في أسبابه، فإن المؤمن كيس فطن لا تلهه الآمال، لكن ينظر الأعمال ويرتقب النتائج.

وأما ما تلهيه الآمال يقول: إن شاء الله أقرأ هذا، أراجع هذا، الآن استريح، وبعد ذلك أراجع. أو تلهيه الآمال فيما يحدث للإنسان أحيانًا، يتصفح الكتاب من أجل مراجعة مسألة من المسائل، ثم ينظر في الفهرس والصفحات... تلهيه عن المقصود الذي من أجله فتح الكتاب ليراجع مسألة، وهذا يقع كثيرًا، فينتهي الوقت وهو لم يراجع المسألة التي صار يراجع هذا الكتاب أو فهرس الكتاب. فإياك والآمال المخيبة. اجعل نفسك قوي العزيمة ... عالي الهمة.

ولا تَغلط فتخلِطَ بين كِبَرِ الهمةِ والكِبْرِ، فإنَّ بينهما من الفرق كما بينَ السماءِ ذاتِ الرَّجْعِ والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ. كِبَرُ الهمَّةِ حِليةُ وَرَثَةِ الأنبياءِ، والكِبْرُ داءُ المرضى بعلَّةِ الجبابرةِ البُؤَساء.

«كِبَر الهمة» إن الإنسان يحفظ وقته ويعرف كيف يصرفه ولا يضيع الوقت بغير فائدة، وإذا جاءه إنسان يرى أن مجالسته فيها إهمال وإلهاء عرف كيف يتصرف.

«وأما كِبر النفس» فهو الذي يحتقر غيره، ولا يرى الناس إلا ضفادع ولا يهتم وربما يصعر وجهه وهو يخاطبه. فكما قال الشيخ بكر: بينهما كما بين السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع.

فيا طالبَ العلم! ارْسُم لنفسِك كِبَرَ الهمَّةِ، ولا تَنفلِتْ منه وقد أَوْمأ الشرعُ إليها في فِقْهِيات تُلابس حياتَك، لتكون دائمًا على يَقَظة من اغتنامِها، ومنها: إباحةُ التيمُّم للمكلَّف عند فَقْد الماء، وعدمُ إلزامِه بِقَبول هبة ثَمَن الماء للوضوء، لما في ذلك من المِنَّةِ التي تَنال من الهِمَّة منالاً، وعلى هذا فَقِسْ»[1]، والله أعلم.

من علو الهمة ألا تكون متشوقًا لما في أيدي الناس، لأنك إذا تشوقت ومنّ الناس عليك، ملكوك. لأنَّ المِنَّة ملك للرقبة في الواقع. لو أعطاك الإنسان قرشًا لوجد أن يده أعلى من يدك. كما جاء في الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[2]. واليد العليا هي المعطية، والسفلى هي الآخذة، لا تمد بصرك للناس، ولا تمد كفك إليهم. إذا كان الإنسان عادم الماء ووهب له الماء لم يلزمه قبوله، بل يعدل إلى التيمم خوفًا من المِنَّة مع أن الوضوء بالماء فرض للقادر عليه، لذلك فرَّق الفقهاء رحمهم الله بين أن تجد من يبيعه ومن يهديه. فقالوا: من يبيعه اشترِ منه وجوبًا لأنه لا منَّة له، حيث أنك تعطيه العوض. ومن أهداك لا يلزمه قبوله. من أجل أن منته تقطع رقبتك، ولكن إذا كان الذي أهدى إليك الماء لا يمنُّ عليك به، بل يرى أنك أنت المانُّ عليه بقبوله، أو من جرت العادة على أن لا منَّة منه مثل الأب على ابنه، والأخ المشفق مع أخيه وما أشبه ذلك.. فهنا ترتفع العلة، وإذا ارتفعت العلَّة ارتفع الحكم. المهم أن من علو الهمة وكبرها ألا يكون الإنسان مستشرفًا لما في أيدي الناس.

(١) «السعادة العظمى» لمحمد الخضر حسين: (ص٧٦-٧٨).
(٢) رواه مسلم (١٠٣٦).

٢٥ ـ النَّهْمَةُ في الطَّلَب:

إذا علمتَ الكلمةَ المنسوبةَ إلى الخليفةِ الراشدِ عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «قيمة كل امرىء ما يحسنه»، وقد قيل: ليس كلمةٌ أحضَّ على طَلَب العلم منها، فاحْذر غَلَطَ القائل: ما تركَ الأولُ للآخِر. وصوابه: كم تركَ الأولُ للآخِر! فعليك بالاستكثارِ من ميراثِ النبيِّ ﷺ، وابذُلِ الوُسعَ في الطَّلَب والتحصيل والتدقيق، ومهما بَلَغْتَ في العلم، فتذكَّر: «كَمْ ترك الأول للآخِر»!

إذا كان إنسان يحسن الفقه والشرع صار له قيمة، أحسن ممن يحسن فتل الحبال مثلاً. لأن كلًّا منهما يحسن شيئًا، لكن فرق بين هذا وهذا فقيمة كل امرئ ما يحسنه. «**وقد قيل: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها**» وهذا القيل ليس بصحيح. أشد كلمة في الحض على طلب العلم قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر: ٩). وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة: ١١). وقول النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[1] وقوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[2]. وأشباه ذلك مما جاء في الحث على طلب العلم، لكن ما نقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي كلمة لاشك أنها جامعة، لكن لاشك أنها ليست أحسن ما قيل في الحث على طلب العلم.

وقوله: «**ما ترك الأول للآخر**» إما تكون «ما» نافية أو استفهامية فإن كانت «نافية» فالمعنى: ما ترك الأول للآخر شيئًا. وإن كانت «استفهامية» فيكون المعنى: أيُّ شيء ترك الأول للآخر؟

(١) رواه البخاري (٣٦٤١).

(٢) جزء من حديث طويل رواه أحمد (٥/ ١٩٦) وأبو داود (٣٦٤١).

وكلا المعنيين يوجب أن يتثبط الإنسان عن العلم، ويقول كل العلم أُخذ من قبلي فلا فائدة. فيكون بذلك تثبيط لهمته، لأنه إذا قيل لك: أن من قبلك أخذوا كل شيء. ستقول إذًا ما الفائدة.

أما إذا قيل: كم ترك الأول للآخر، فالمعنى: ما أكثر ما ترك الأول للآخر، وهذا يحملك على أن تبحث على كل ما قاله الأولون، ولا يمنعك من الزيادة على ما قال الأولون.

ولاشك أن المعنى الصواب: كم ترك الأول للآخر. فإن قيل: إن الشاعر الجاهلي يقول:

ما أرانا نقول إلا مُعارًا ❖❖❖ أو مُعادًا من قولنا مكرور

فهل هذا صواب؟ الجواب: لا... هذا ليس بصواب، وما أكثر الأشياء الجديدة التي تكلمنا بها ولم يتكلم بها من قبلنا. أما إن أراد بهذا حروف الكلمات أو الكلمات، وهذا صحيح لو أراد المعاني.

ولعل الشاعر الجاهلي أراد أنه كل ما يقال من الكلمات والحروف فإنه إما مُعار أخذه من غيره، وإما مُعاد.

لكن إذا كان البيت بهذا المعنى فقيمته ضعيفة جدًا، رخيصة لأن هذا معلوم لا يحتاج إلى أن ينشره الإنسان في بيت شعر.

قوله: «**فعليك بالاستكثار...**» يحثك على أن تستكثر من ميراث النبي ﷺ، وذلك العلم لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما وَرَّثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر من ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثم اعلم أن ميراث النبي ﷺ إما أن يكون بالقرآن الكريم أو بالسنة النبوية. فإن كان بالقرآن الكريم، فقد كُفيت إسناده والنظر فيه، لأن القرآن لا يحتاج إلى النظر بالسند لأنه متواتر أعظم التواتر.

أما إذا كان بالسنة النبوية فلابد أن تنظر في السنة النبوية أولاً هل صحت نسبته إلى الرسول ﷺ أم لم تصح؟ فإن كنت تستطيع أن تمحص ذلك بنفسك فهذا هو الأولى. وإلا:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه *** وجاوزه إلى ما تستطيع

قوله: «ابذل الوسع» يعني الطاقة في التدقيق، أمر مهم لأن بعض الناس يأخذ بظواهر النصوص وبعمومها دون أن يدقق. هل هذا الظاهر مُراد أم غير مُراد؟ وهل هذا العام مخصص أم غير مخصص؟ أم هذا العام مُقيد أم غير مقيد؟

فتجده يضرب السنة بعضها ببعض لأنه ليس عنده علم في هذا الأمر. وهذا يغلب على كثير من الشباب اليوم الذين يعتنون بالسنة تجد الواحد منهم يتسرع في الحكم المستفاد من الحديث، أو في الحكم على الحديث. هذا خطر عظيم.

يقول: «مهما بلغت في العلم فتذكر: كم ترك الأول للآخر» هذا طيب، ولكن نقول: إن أحسن من ذلك مهما بلغت في العلم، فتذكر قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يوسف: ٧٦). وقوله ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥).

وفي ترجمةِ أحمد بن عبد الجليل من «تاريخ بغداد» للخطيبِ ذكرٌ من قصيدةٍ له:

لا يكونُ السَّريُّ مِثلَ الدَّنيِّ * لا ولا ذُو الذَّكاءِ مثلَ الغبيِّ**

قيمةُ المَرءِ كلَّما أحسنَ المَرْءُ * قضاءٌ مِنَ الإمامِ عليِّ**

هذا سبق الكلام عليه. و«السري» يعني: الشريف عالي الهمة، مثل الوفي. ونفي المماثلة ظاهر أيضًا، لا يكون الإنسان الذكي مثل الإنسان الغبي ولا ذو العلم مثل الجاهل.

٢٦ ـ الرحلة للطلب:

«من لم يكن رُحَلةً لن يكون رُحَلَة»[1]: فمن لم يَرْحل في طلَب العلم، للبحثِ عن الشُّيوخ، والسياحةِ في الأخْذِ عنهم، فَيَبْعُدُ تأهلُه ليُرحَلَ إليه، لأنَّ هؤلاءِ العُلماءَ الذين مَضَى وقتٌ في تعلُّمهم، وتعليمهم، والتَّلَقِّي عنهم: لديهم من التحريرات، والضَّبْطِ، والنُّكات العلمية، والتَّجارِب، ما يَعِزُّ الوقوف عليه أو على نظائرِه في بُطونِ الأسفار.

قوله: «من لم يكن رُحلة لن يكون رحله» لعل: من لم يكن له .. يرجع إلى الأصل.

قوله: «التجارب» مكسور حرف الراء. والتجرُبة غلط ما هي لغة عربية، رغم أنها هي الشائع بين الناس الآن، حتى طلبة العلم، يقول: تجارُب، تجرُبة. رغم أن الصواب كسر الراء. والمعنى: أن من لم يكن له رحلة في طلب العلم فلن يُرحل إليه ولا يأتي الناس إليه.

واحْذَرِ القُعودَ عن هذا على مسلك المُتَصوِّفةِ البطَّالين، الذين يُفَضِّلون «علم الخِرَق» على «علم الوَرَق». وقد قيل لبعضهم: ألا ترحلُ حتى تسمعَ من عبد الرَّزَّاق؟ فقال: ما يصنعُ بالسماعِ مِنْ عبد الرزَّاق مَنْ يسمعُ من الخلاَّق؟!

وقال آخر:

إذا خاطَبُوني بعِلْمِ الوَرَق * بَرَزْتُ عَلَيْهِم بعِلْمِ الخِرَق**

فاحْذَرْ هؤلاء، فإنهم لا للإسلام نَصَروا، ولا للكُفر كسَروا، بل فيهم من كان بأسًا وبلاءً على الإسلام.

(١) «تذكرة السامع والمتكلم».

الصوفية يدَّعون أن الله يخاطبهم ويوحي إليهم، وأنه يزورهم ويزورونه وهذا من خرافاتهم.

والعبارة الأخيرة مأخوذة من كلام شيخ الإسلام رحمه الله في المتكلمين قال في هؤلاء: «**لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا**» يعني أنهم ما نصروا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ولا كسروا الفلاسفة الذين هاجوا وماجوا على الإسلام كله، ويدلك لذلك أن هؤلاء المتكلمين حرَّفوا النصوص عن ظاهرها وأوَّلوها إلى معان أو جددوها بما يزعمون أنه عقل، فتسلط عليهم الفلاسفة وقالوا لهم: أنتم إذا أوَّلتم آيات الصفات وأحاديث الصفات، مع ظهورها ووضوحها، فاسمحوا لنا أن نأول آيات المعاد، أي آيات اليوم الآخر فإن ذِكْرَ أسماء الله وصفاته في الكتب الإلهية أكثر بكثير من ذكر المعاد وما يتعلق به، فإذا أبحتم لأنفسكم أن تأولوا في أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، فاسمحوا لنا أن نأوِّل في آيات المعاد وننكر المعاد رأسًا ولاشك أن هذه حُجة قوية لهؤلاء الفلاسفة على هؤلاء المتكلمين، إذ لا فرق.

المهم أن الشيخ وفقه الله هاجم الصوفية، فهم جديرون بالمهاجمة، لأن بعضهم يصل إلى حد الكفر والإلحاد بالله، حتى يعتقد أنه هو الرب كما يقول بعضهم «**ما في الجبَّة إلا الله**» يعني نفسه. ويقول:

الرب عبد والعبد رب ❖❖❖ يا ليت شعري من المكلف

يعني هما شيء واحد. إلى أمثال ذلك من الخرافات التي يقولونها، لكن ينبغي أيضًا أن نهاجم ونركز على مهاجمة أهل الكلام الذين سلبوا الله من كماله بكلامهم انكروا الصفات، فمنهم من انكر الصفات رأسًا كالمعتزلة[1]. ومنهم من أثبت

---

(١) المعتزلة: تنفي الصفات عن الله تعالى خوفًا من التشبيه كما يزعمون، ولذا تأولوا جميع الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها رسول الله ﷺ ومن ذلك صفة الكلام لله تعالى، فجعلوا القرآن الذي هو كلام الله متصلاً بباب العدل الذي هو أحد أصول التوحيد الخمسة عندهم، ووجه اتصاله أن =

الأسماء، لكن جعلها أسماء جامدة لا تدل على معنى، وغالى بعضهم وقال: إنها أسماء واحدة، وأن السميع هو البصير، وأن السميع والبصير هما العزيز وهما شيء واحد. وغالى بعضهم فقال: هي أسماء متعددة، لكن لا تدل على معنى. مسلوبة المعنى.

لأنهم لو أثبتوا لها معنىً - بزعمهم - لزم تعدد الصفات، وبتعددها وبتعدد الصفات يرون أنه شرك، لأنهم يقولون يلزم تعدد الصفات القديمة كالعلم والسمع والبصر، فيلزم من ذلك تعدد القدماء، وهو أشد شركًا من النصارى.

فالحاصل أنه أيضًا ينبغي أن يهاجم على أهل الكلام الذين عطلوا لله مما يجب له من صفات كمال بعقول واهية.

والعلماء رحمهم الله الذين تكلموا عن الرحلة لم يدركوا هذا الأثر، الأشرطة المسجلة تغني عن الرحلة، لكن الرحلة أكبر لأن الرحلة إلى العالِم، يكتسب الإنسان من علمه وأدبه وأخلاقه، ثم يترك الرجل يتكلم ليس كما يعمله إياه في الشريط. مثلاً: الخطبة، أنت عند رجل يخطب وكلامه جيد .. تتأثر به لكن لو تسمع هذا الكلام من الشريط لن تتأثر به تأثرك وأنت تشاهد الخطيب.

= القرآن فعل من أفعال الله وباب العدل كلام في أفعاله، وعلى هذا فهم يقولون: القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث.

انظر: «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار: (ص٥٢٧-٥٣٩).

٢٧ - حفْظُ العلمِ كتابةً[1]

ابذُلِ الجُهْدَ في حفظ العلم (حفظَ كتابٍ)، لأنَّ تقييدَ العلم بالكتابةِ أمانٌ من الضَّياعِ، وقَصْرٌ لمسافةِ البحث عند الاحتياجِ، لاسيَّما في مسائلِ العلمِ التي تكونُ في غير مظانِّها، ومن أجَلِّ فوائده أنه عند كِبَرِ السنِّ وضَعْفِ القوى يكون لديك مادةٌ تَسْتَجِرُّ منها مادةً تكتبُ فيها بلا عناءٍ في البحث والتقصِّي.

«ابذل» همزة وصل، لكن عند الإبتداء بها تكون همزة قطع[2]. بَذْل الجهد في الكتابة مهم، لاسيما في نوادر المسائل أو في التقسيمات التي لا تجدها في بعض الكتب.

كم من مسألة نادرة مهمة لا يقيدها اعتمادًا على أنه يقول: إن شاء الله لا أنساها. فإذا به ينساها ويتمنى لو كتبها، ولكن احذر أن تكتب على كتابك على هامشه أو بين سطوره، كتابةً تطمس الأصل فإن بعض الناس يكتب على هامش الكتاب أو بين سطوره كتابةً تطمس الأصل، لكن يجب إذا أردت أن تكتب على كتابك أن تجعله على الهامش البعيد من الأصل لئلا يلتبس هذا بهذا، فإن لم يتيسر هذا، كأن ما تريد تعليقه أكثر من الهامش فلا خَيْرَ عليك أن تجعل ورقة بيضاء تلصقها بين الورقات وتشير إلى موضعها من الأصل وتكتب ما شئت، وكان طلبة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله يحدثوننا أنهم يأخذون مذكرات صغيرة يجعلونها في الجيب كلما ذكر الإنسان منهم مسألة قيدها، إما فائدة علم في خاطر، أو مسألة يُسأل عنها الشيخ فيقيدها، فاستفادوا بذلك كثيرًا.

(١) «الجامع» للخطيب: (٢/ ١٦، ١٨٣-١٨٥).

(٢) ارجع لكتابنا: «المؤتلف في أحكام الهمزة والألف».

ولذا، فاجعل لك (كُنَاشًا)[1] أو (مُذكِّرة) لتقييد الفوائدِ والفرائدِ والأبحاثِ المنثورةِ في غير مظانِّها، وإنِ استعملتَ غلافَ الكتابِ لتقييدِ ما فيه من ذلك، فَحَسَنٌ، ثم تنقُلُ ما يجمعُ لك بَعْدُ في مذكِّرة، مرتبًا له على الموضوعاتِ، مُقَيِّدًا رأْسَ المسألة، واسْمَ الكتابِ، ورقمَ الصفحة والمُجَلَّد، ثم اكْتُب على ما قَيَّدْتَهُ: «نُقِل»، حتى لا يختلط بما لم يُنقَل، كما تكتبُ: «بَلَغَ صفحة كذا» فيما وَصَلْتَ إليه من قراءةِ الكتاب حتى لا يفوتَك ما لم تبلُغْه قراءةً.

وللعُلماء مؤلفاتٌ عدَّة في هذا، منها: «بدائع الفوائد» لابن القيِّم، و«خبايا الزوايا» للزَّرْكَشي، ومنها: كتاب «الإغفال»، و«بقايا الخبايا»، وغيرها.

ومنها أيضًا «صيد الخاطر» لابن الجوزي، لكن أحسن ما رأيت «بدائع الفوائد» لابن القيم أربعة أجزاء في مجلدين، فيها من بدائع العلوم ما لا تكاد تجده في كتاب آخر لكل فن. كل ما طرأ على باله قيده، لذلك تجد فيه من العقائد في التوحيد، في الفقه، في النحو، في البلاغة، في التفسير، في كل شيء.

أحيانًا يبحث في كلمة من الكلمات اللغوية في صفحة تحليلاً وتفريعًا واشتقاقًا وغير ذلك. بحث بحثًا بالغًا في الفرق بين «المدح والحمد»، كتب كتابة فائقة في ذلك، وقال: كان شيخنا إذا بحث في مثل هذا أتى بالعجب العجاب لكنه كما قيل:

تألق البرق نجديًا فقلت له ❖❖❖ إليك عني فإني عنك مشغول

يعني رحمه الله مشغول بما هو أهم من التحقق في اللغة العربية وإلا فهو - شيخ الإسلام - رحمه الله آية في اللغة العربية، لما قدم مصر اجتمع بأبي حيان المصري الشهير صاحب «البحر المحيط» في التفسير، وكان أبو حيان يثنى على شيخ الإسلام ثناءً عطرًا، ويمدحه بقصائد عصامية، ومن جملة ما يقول فيه:

(١) الكُنّاش - بضم الكاف - وتخفيف النون، وشين معجمة، على وزن (غراب)، لفظ سرياني، بمعنى: المجموعة، والتذكرة. وانظر: «التراتيب الإدارية»: (٢/ ٢٧٠).

قام ابن تيمية في نصر شريعتنا ❖❖❖ مقام سيِّد تيم إذ عصت مُضر

يعني أبي بكر يوم الردة. فلما قدم مصر شيخ الإسلام اجتمع بهذا الرجل ـ أبي حيان ـ وتناظر معه في مسألة نحوية واحتج عليه أبو حيان بقول سيبويه في كتابه، قال إن سيبويه في كتابه قال كذا وكذا. فكيف تخالفه؟.

فقال له شيخ الإسلام: «وهل سيبويه نبي النحو؟!» يعني: حتى يجب علينا اتباعه، ثم قال: «لقد غلط في الكتاب في أكثر من ٨٠ موضعًا لا تعلمها أنت ولا هو». سبحان الله!! هكذا يقول لسيد النحاة.

يقال: إن أبا حيان بعد ذلك أخذ عليه وصار بنفسه فأنشأ قصيدة يهجوه فيها. عفا الله عنا وعنهم جميعًا. المهم أن كتاب «بدائع الفوائد» من أجمل الكتب، فيه فوائد لا تجدها في غيره.

وعليه، فَقيِّدِ العلمَ بالكتاب[1]، لاسيَّما بدائعَ الفوائدِ في غير مظانِّها، وخَبايا الزوايا في غير مساقِها، ودُررًا منثورةً تراها وتسمعُها تخشى فواتَها .. وهكذا، فإنَّ الحفظَ يضعفُ، والنِّسيانَ يَعرِضُ.

قوله: «**لاسيما بدائعَ**» الأفصح في هذا أن تكون مرفوعة بعد لاسيما، يجوز النصب ولكن الأحسن الرفع.

ومعنى الكلام: أنه يحث على كتابة هذه الأشياء، بدائع الفوائد التي تعرض للإنسان حتى لا ينساها وكذلك أيضًا ولاسيما إذا كانت في غير مظانها لأنك أحيانًا تبحث عن مسألة تظنها مثلاً في باب الصيد وهي مذكورة في مكان آخر، فإذا ذُكرت في مكان آخر فقيدها، وكذلك أيضًا «**خبايا الزوايا في غير مساقها**» وهي بمعنى الجملة

(١) وقد صحَّ نحو هذا الأمر مرفوعًا إلى النبي ﷺ فانظره في «السلسلة الصحيحة»: (رقم ٢٠٢٦).

الأولى. و«درر منثورة تراها» وتسمعها تخشى فواتها. وهذه أيضًا مسائل تعرض لك أو تعرض في كتب أهل العلم وهي منثورة، فهذه يجب أن تجمعها وتجعلها في كتاب.

قال الشَّعْبي: «إذا سمعتَ شيئًا، فاكْتُبْه، ولو في الحائطِ». رواه خَيْثَمةُ.

وإذا اجتمع لديك ما شاء الله أن يجتمعَ، فَرتِّبْه في (تذكرة) أو (كُنَّاش) على الموضوعاتِ، فإنَّه يُسْعِفُك في أضيقِ الأوقاتِ التي قد يَعْجَزُ عن الإدراك فيها كبارُ الأثباتِ.

وهل الأولى أن ترتبها على الموضوعات أو أن ترتبها على ألف باء؟ نرى أنه على ألف باء أحسن، وذلك لأن ترتيبها على الموضوعات تختلف فيه كتب العلماء، تجد مثلاً: ترتيب الحنابلة يفترق عن الشافعية لاسيما في المعاملات، بل إن نفس المذهب الواحد يختلف ترتيبه. ترتيب المتقدمين منهم والمتأخرين.

٢٨ـ حفظُ الرِّعاية:

ابْذُلِ الوُسْعَ في حفظِ العلم (حِفْظَ رعاية) بالعمل والاتِّباع، قال الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله تعالى[1]: «يجبُ على طالبِ الحديثِ أن يُخلص نيَّتَه في طَلَبِه، ويكونَ قصدُه وجهَ الله سبحانه. وَلْيَحْذَرْ أن يجعلَه سبيلاً إلى نَيْلِ الأعراضِ، وطريقًا إلى أخذ الأعْواض، فقد جاء الوعيدُ لمن ابْتَغَى ذلك بعلمِه».

جاء الوعيد لمن طلب علمًا وهو ما يبتغى به وجه الله لم يجد عرف الجنة، أي ريحها، وما ذكره الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ حق أن يخلص الإنسان النية في طلب العلم بأن ينوي امتثال أمر الله تعالى والوصول إلى ثواب طلب العلم وحماية

(١) «الجامع» للخطيب: (١/ ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٤٢).

الشريعة والذَّب عنها ورفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن غيره، كل هذه تدل على الإخلاص، ولا يكون قصده نيل الأعراض كالجاه والرئاسة والمرتبة، أو طريقًا إلى أحد الأعواض كالمرتبات لا يريد هذا.

فإذا قال قائل: كل الذين يطلبون العلم في الكليات إنما يقصدون الشهادة ولذلك نرى بعضهم يريد الوصول إلى هذه الشهادات ولو بالباطل كالشهادات المزيفة والغش وما أشبه ذلك. فيقال يمكن للإنسان أن يريد الشهادة في الكلية مع إخلاص النية وذلك أن يريد بها الوصول إلى منفعة الخلق لأن مَنْ لم يحمل الشهادة لا يتمكن من أن يكون مدرسًا أو مديرًا أو ما أشبه ذلك مما يتوقف على نيل الشهادة.

فإذا قال: أنا أريد أن أنال الشهادة لأتمكن من التدريس في الكلية مثلاً، ولولا هذه الشهادة ما درَّست. أريد الشهادة لأن أكون داعية، لأننا في عصر لا يمكن أن يكون الإنسان فيه داعيًا إلى الله إلا بالشهادة.

فإذا كانت هذه نية الإنسان فهي نية حسنة لا تضر إن شاء الله هذا في العلم الشرعي. أما في العلم الدنيوي فانوِ فيه ما شئت مما أحله الله. لو تعلم الإنسان الهندسة وقال أريد أن أكون مهندسًا ليكون الراتب ١٠ آلاف ريال. فهل هذا حرام؟ لا ... لماذا؟ لأن هذا علم دنيوي، كالتاجر يتاجر من أجل أن يحصل على ربح.

وَلْيَتَّقِ المُفاخرةَ والمُباهاةَ به، وأن يكونَ قصدهُ في طَلَب الحديث نَيْلَ الرئاسةِ، واتِّخاذَ الأتباعِ، وعَقْدَ المجالسِ، فإنَّ الآفةَ الداخلةَ على العُلماءِ أكثرُها من هذا الوجه.

وقد جاء الوعيد فيمن طلب ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء[1]. فأنت لا تقصد بعلمك المفاخرة والمباهاة، وأن يكون قصدك أن تصرف وجوه الناس إليك وما

(١) من حديث كعب بن مالك: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» الحديث رواه الترمذي (٢٦٥٤) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

أشبه ذلك. هذه نيات سيئة، وهي ستحصل لك مع النية الصالحة إذا نويت نية صالحة، صرت إمامًا، صرت رئيسًا يشير الناس إليك وأخذوا بقولك.

وَلْيَجْعل حِفظَه للحديث حفظَ رعايةٍ لا حفظَ روايةٍ، فإنَّ رُواة العلوم كثيرٌ ورُعاتَها قليلٌ، ورُبَّ حاضرٍ كالغائبِ، وعالمٍ كالجاهلِ، وحاملٍ للحديثِ ليس معه منه شيءٌ إذا كان في اطِّراحِه لحُكمِه بمنزلةِ الذاهبِ عن معرفتِه وعلمِه.

ومعنى «رعاية» أن يفقه الحديث ويعمل به ويبينه للناس، لأن مجرد الحفظ بدون فقه للمعنى ناقص جدًا، وقد قال النبي ﷺ: «رُبَّ مبلغ أوعى من سامع»[1]. والمقصود بالأحاديث أو القرآن الكريم هو فقه المعنى حتى يعمل به الإنسان ويدعو إليه، ولكن الله سبحانه وتعالى بحكمته جعل الناس أصنافًا، منهم راوي فقط ولا يعرف من المعنى شيئًا إلا شيء واضح بين لا يحتاج الناس إلى مناقشته فيه، لكنه في الحفظ والثبات قوي جدًا، ومن الناس من أعطاه الله فهمًا وفقهًا لكنه ضعيف الحفظ إلا أنه يفجر ينابيع العلم من النصوص إلا أنه ضعيف الحفظ، ومن الناس من يعطيه الله الأمرين: قوة الحفظ وقوة الفقه، لكن هذا نادر، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لما أتاه الله تعالى من العلم والحكمة مطر أصاب أرضًا فصارت الأرض ثلاثة أقسام:

قسم ـ قيعان ابتلعت الماء ولم تنبت الكلأ، فهذا مثل من أتاه الله العلم والحكمة ولكنه لم يرفع به رأسًا ولم ينتفع به ولم ينفع به غيره.

والقسم الثاني ـ أرض أمسكت الماء ولكنها لم تنبت الكلأ. هؤلاء من الرواة، امسكوا الماء فسقوا الناس واستقوا وزرعوا، لكن هم أنفسهم ليس عندهم إلا حفظ هذا الشيء.

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١/٤٣٧) والترمذي (٢٦٥٧).

والأرض الثالثة - أرض رياض قبلت الماء فأنبتت العشب والكلأ فانتفع الناس وأكلوا وأكلت مواشيهم. وهؤلاء الذين منَّ الله عليهم بالعلم والفقه، فنفعوا الناس وانتفعوا به.

وينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام باستعمال آثار رسول الله ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن على نفسه، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١). أهـ.

«ينبغي» أحيانًا يراد بها الوجوب، لكن الشائع في استعمالها أنها للندب. وهذا في الأمور التعبدية ظاهر. أنه ينبغي للإنسان أن يتميز باستعمال آثار رسول الله ﷺ في الأمور الاتفاقية التي وقعت اتفاقًا من غير قصد هل يشرع أن يتبعها الإنسان أم لا؟ كان ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه يتبع ذلك، حتى أنه يتحرى المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ وبال فيه، فنزل ويبول. وإن لم يكن محتاجًا للبول.

كل هذا من شدة تحريه لاتباع الرسول ﷺ لكن هذا قد خالفه أكثر الصحابة فيه ورأوا أن ما وقع اتفاقًا فليس بمشروع اتباعه للإنسان. ولهذا لو قال قائل: أيُسَنّ لنا الآن ألا نقدم مكة في الحج إلا في اليوم الرابع لأن الرسول ﷺ قدم في اليوم الرابع؟ الصحيح أنه لا يشرع.

ما وقع عادة فهل يشرع لنا أن نتبعه فيه؟ مثلاً: العمامة والرداء والإزار. نقول: نعم يشرع أن نتبعه فيه.

لكن ما معنى الاتباع. هل معناه اتباعه في عين ما لبس؟ أو اتباعه في جنس ما لبس؟ الجواب: الثاني. لأنه لَبِسَ ما اعتاده الناس في ذلك الوقت.

وعلى ذلك نقول: السنة لبس ما يعتاده الناس، ما لم يكن محرمًا، فإن كان محرمًا وجب اجتنابه.

ما وقع على سبيل التشهي فهل نتبعه فيه. كان عليه الصلاة والسلام يحب الحلوى، يحب العسل، يتتبع الدُّبَّاء في الأكل. هل نتبعه في ذلك.

قال أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يتتبع الدُّبَّاء - يعني القرع - في الطعام، فمازلتُ أتبعها منذ رأيت النبي ﷺ يتتبعها.

وعلى هذا فهل نقول من المشروع أنك تتبع الدُّبَّاء، لأن النبي ﷺ يتبعه أم لا؟

الظاهر أن هذا الاتباع فيه أحرى من الاتباع فيما سبقه - وهو ما وقع اتفاقًا - لأن هذا لم يقع اتفاقًا، حيث أننا نعلم أن الرسول ﷺ حين يتتبعها أنه يتتبعها قصدًا لا اتفاقًا، ولاشك أن الإنسان إذا تتبع الدُّبَّاء من على ظهر القصعة وهو يشعر أنه يفعل كما فعل الرسول ﷺ لاشك أن هذا يوجب له محبة لرسول الله ﷺ واتباع آثاره وحينئذ نقول: إذا تتبعت هذا فإنك على الخير، وقد يكون في الدُّبَّاء منفعة طبية، تسهل وتلين وتكون قُدُمًا للطعام.

قوله «**باستعمال آثار**» هذه العبارة فيها شيء من الركاكة، ولو قال «**باتباع آثار**» كما عبر بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية قال: من أصول أهل السنة والجماعة اتباع آثار النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا». وهذا هو اللفظ المطابق للقرآن. ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (سورة آل عمران: ٣١). أما استعمال الآثار فقد يتوهم واحد أن استعمال ثيابه وعمامته وما أشبه ذلك. لكن إذا قلنا اتباع آثار كان ذلك أحسن وأوضح.

وقوله: «**توظيف السنن على نفسه**» يراد بذلك أن يطبق توظيفها، بمعنى تطبيق السنن على نفسه لأن الله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١). ولو ذكر آخر الآية لكان أحسن ما هي ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

٢٩ ـ تعاهُدُ المحفوظاتِ:

تعاهَدْ عِلْمَكَ من وقتٍ إلى آخَرَ، فإنَّ عدمَ التعاهُدِ عنوانُ الذَّهابِ للعلمِ مهما كان. عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّما مَثَلُ صاحبِ القرآنِ كَمَثَلِ صاحبِ الإبلِ المُعَقَّلَةِ، إنْ عاهَدَ عليها، أَمْسَكَها، وإنْ أَطْلَقَها، ذهبت». رواه الشيخان، ومالكٌ في «الموطأ»[1].

لو عبر بقوله: «فإن عدم التعاهد سبب لذهاب العلم» لكان أولى لقول النبي ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتًا من الإبل في عقلها»[2]. فيدل ذلك على أن عدم التعاهد سببه النسيان، وليس عنوانًا لذهاب العلم، لأن عنوان الشيء يكون بعد الشيء.

قال الحافظُ ابنُ عبدِ البَرِّ رحمه الله: «وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ من لم يتعاهَدْ عِلْمَه، ذهب عنه أيَّ مَن كان، لأنَّ عِلْمَهم كان ذلك الوقتَ القرآنُ لا غير، وإذا كان القرآنُ المُيَسَّرُ للذِّكرِ يذهبُ إن لم يُتَعاهَد، فما ظنُّك بغيره من العلومِ المعهودة؟ وخيرُ العلومِ ما ضُبِطَ أصلُه، واسْتُذْكِرَ فَرْعُه، وقادَ إلى اللهِ تعالى، ودَلَّ على ما يرضاه» اهـ.

هذا فيه دليل على أن من لم يتعاهد علمه ذهب عنه. وهذا واضح، أن من لم يتعاهد حفظه نسيه، وكما أن هذا في المعقول، هو أيضًا في المحسوس، فمن لم يتعاهد الشجرة بالماء تموت أو تذبل، وكذلك من لم يتعاهد أغصانها تتكاثر ويفسد بعضها بعضًا فلا يستقيم وكذلك العلوم.

(١) «التمهيد»: (١٤/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٣١). ومسلم (٧٨٩). ومالك في كتاب القرآن (١٥) باب (٤) حديث (٦).

وقال بعضهم[1]: «كُلُّ عِزٍّ لم يُؤَكَّدْ بعلمٍ، فإلى ذُلٍّ مصيرُه» اهـ.

٣٠ ـ التفقُّه بتخريجِ الفُروعِ على الأُصولِ:

من وراء الفقهِ: التفقُّهُ، ومُعْتَمِلُه هو الذي يُعَلِّقُ الأحكامَ بمدارِكِها الشرعيَّةِ.

وفي حديثِ ابنِ مَسْعودٍ[2] رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله قال: «نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مقالَتي فحفِظَها، ووَعاها، فأدَّاها كما سمِعَها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ ليسَ بفقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه».

«التفقه» يعني طلب الفقه، والفقه ليس العلم. بل هو إدراك أسرار الشريعة. وكم من إنسان عنده كثير ولكنه ليس بفقيه، ولهذا حذر ابن مسعود رضي الله عنه من ذلك فقال: «كيف بكم إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم».

الفقيه هو العالم بأسرار الشريعة وغاياتها وحكمها حتى يستطيع أن يرد الفروع الشاردة إلى الأصول الموجودة، ويتمكن من تطبيق الأشياء على أصولها، فيحصل له بذلك خير كثير.

قال: «نضَّر الله ...» نضَّر بمعنى: حسنه، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (سورة القيامة: ٢٢). أي: حسنه، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (سورة الإنسان: ١١). نضرة: يعني حُسنًا في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، فيجتمع لهم حسن الظاهر والباطن. لأن الإنسان قد يغتم قلبه، ووجهه قد أعطاه الله نضارة لكن سرعان ما تزول. ومن الناس من يكون قلبه مسرورًا لكن لم يعطه الله نضارة الوجه، ومن الناس من يحصل له الأمران: السرور في القلب ونضارة في الوجه. وبذلك تتم النعمة.

(١) «شرح الإحياء»: (١/ ٩٣).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٣٧).

قال ابنُ خَيْرٍ[1] ـ رحمه الله تعالى ـ في فِقْهِ هذا الحديث: «وفيه بيانُ أنَّ الفِقْهَ هو الاستنباطُ والاستدراكُ في معاني الكلام من طريق التفهُّم، وفي ضِمْنِهِ بيانُ وجوب التفقُّهِ، والبحثُ على معاني الحديث، واستخراجُ المكنون من سِرِّه» أهـ. وللشَّيْخَيْنِ، شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وتلميذِهِ ابن القَيِّم الجَوْزِيَّة رحمهما الله تعالى، في ذلك القِدْحُ المُعَلَّى، ومَنْ نَظَرَ في كُتُبِ هذين الإمامين، سلك به النَّظَرُ فيها إلى التفقُّه طريقًا مستقيمًا.

لاشك أن ما ذكره ـ وفقه الله ـ هو الصواب؛ أن الفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة[2]. لكن لا ينبغي أن يقتصر على الحديث، بل نقول من الأدلة في القرآن والسنة ودلالات القرآن أقوى من دلالات السنة وأثبت، لأنه لا يعتريه عيب النقل بالمعنى، وأما السنة فهي تنقل بالمعنى. وعلى هذا فيقال: «بالبحث عن معاني القرآن والحديث».

ومِنْ أحسن مَنْ رأيت في استخراج الأحكام من الآيات شيخنا ـ رحمه الله ـ عبد الرحمن بن سعدي، فإنه يستخرج ـ أحيانًا ـ من الآيات من الفقه ما لا تراه في كتاب آخر، وهذا الطريق ـ أعني طريق استنباط الأحكام من القرآن والسنة ـ هو طريق الصحابة، فما كانوا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلمونها، وما فيها من العلم والعمل.

(١) في «فهرسته»: (ص٩).

(٢) انظر غير مأمور في تعريف الفقه: المعتمد (١/٨)، شرح اللمع (١/٥٨)، الأحكام للآمدي (١/٧)، شرح العضد (١/٢٥)، الحدود (ص٣٥)، معراج المنهاج (١/٣٩)، الإبهاج (١/٨)، نهاية السول (١/١٩)، البحر المحيط (١/٢١)، القواعد والفوائد الأصولية (ص٤)، البرهان (١/٨٥)، المستصفى (١/٤)، شرح الورقات للدمياطي (ص٣).

ثم أشار الشيخ بكر إلى شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم ـ رحمهم الله ـ وبيان ما يوصلان إليه من الأحكام الكثيرة من الأدلة القليلة، وقد أعطاهما الله فهمًا عجيبًا في القرآن والسنة.

ونضرب مثلاً لهذا ـ أعني التفقه ـ، أن العلماء اتخذوا الحكم بأن أقل مدة الحمل ستة أشهر من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ (سورة الأحقاف: ١٥). ومن قوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (سورة لقمان: ١٤). فإن ثلاثين شهرًا، عامان وستة أشهر، فإذا كان حمله وفصاله ﴿ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ وفي الآية الأخرى ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ لزم أن يكون الحمل أقله ستة أشهر.

ومِن مليح كلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله تعالى ـ قولُه في مجلسٍ للتفقُّه[1]: «أما بعدُ، فقد كُنَّا في مجلس التفقُّهِ في الدين، والنَّظَرِ في مدارك الأحكام المشروعة، تَصْويرًا، وتَقْريرًا، وتَأْصيلاً، وتَفْصيلاً، فوقَعَ الكلامُ في ... فأقولُ: لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله، هذا مبنيٌّ على أصل وفصلين ...».

واعلَمْ أرشدكَ اللهُ أنَّ بين يدي التفقُّه: (التَّفَكُّر)[2]، فإن الله سبحانه وتعالى دعا عبادَه في غير ما آيةٍ من كتابِهِ إلى التحرُّك بإجالةِ النَّظَرِ العميق في (التفكُّر) في مَلَكوتِ السموات والأرض، وإلى أن يُمْعِنَ المرءُ النَّظَرَ في نفسِه، وما حولَه، فتحًا للقوى العقليَّةِ على مِصْراعَيْها، وحتى يصل إلى تقويةِ الإيمان، وتعميقِ الأحكام، والانتصارِ العلميّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١٩)، **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾** (سورة الأنعام: ٥٠).

(١) «مجموع الفتاوي»: (٢١/٥٣٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة»: (ص ١٩٦-٣٢٤)، و«مدارج السالكين»: (١/١٤٦)، و«التفسير الإسلامي للتاريخ» لعماد الدين خليل (ص ٢١٠-٢١٥).

وعليه، فإنَّ «التفقُّه» أبعدُ مدىً من (التفكُّر)، إذ هو حصيلته وإنتاجه، وإلاَّ: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء: ٧٨). لكنَّ هذا التفقُّه محجوزٌ بالبرهان، محجوزٌ عن التشهي والهوى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (سورة البقرة: ١٢٠).

إذًا نقول: المراتب، أولاً ـ العلم، ثم الفهم، ثم التفكير، ثم التفقه. لابد من هذا، فمن لا علم عنده كيف يتفقه؟ وكيف يعلم . . . من عنده علم وليس عنده فهم . . كيف يتفقه؟ حتى لو حاول أن يتفقه وهو مما لا يفهم لا يمكن ذلك. بعد أن تفهم . . تتفكر ما مدلول هذه الآيات؟ ما مدلول هذا الحديث؟ وتتفكر أيضًا في أنواع الدلالة، وأنواع الدلالة ثلاثة[1]:

دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه، دلالة مطابقة.

ودلالته على بعض معناه، دلالة تضمن.

ودلالته على لازمٍ خارج، هذه دلالة التزام.

وهذا النوع الثالث من الدلالة هو الذي يختلف فيه الناس اختلافًا عظيمًا، إذ قد يلتزم بعض الناس من الدليل ما لا يلزم، وقد يفوته ما يلزم. وبين ذلك تفاوت عظيم، فلابد أن يعمل هذه الدلالات حينئذ يصل إلى درجة التفقه واستنباط الأحكام من أدلتها.

(١) انظر غير مأمور في تعريف وأنواع الدلالة:
كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ٢٨٤)، التعريفات (١٣٩)، الإحكام للآمدي (١/ ١٩)، سلاسل الذهب (ص١٦٤)، البحر المحيط (١/ ٣٠٠)، ميزان العلوم لـلشيخ عبد السلام القويسني (ص١٠-١٢)، القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين (ص١٢٠).

ويذكر أن الشافعي رحمه الله نزل ضيفًا على الإمام أحمد بن حنبل ـ وأحمد تلميذ الشافعي وكان يثني عليه عند أهله ـ فقدم له العشاء فأكله كله ورد الصحفة[1] خالية، فتعجب أهل أحمد كيف يأكل الطعام كله، والسنة أن الإنسان يأكل قليلاً. «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[2]. لكن الشافعي أكل كل الطعام. هذه واحدة ثم إن الإمام أحمد انصرف إلى أهله ونام الشافعي فلما كان في آخر الليل قام يتهجد ولم يطلب ماءً يتوضأ به، أو أظنه أنه لم يقم يتهجد، ثم أذن الفجر فخرج إلى الصلاة ولم يطلب ماءً للوضوء، هذه اثنتان.

فلما أصبح قال أهل الإمام أحمد له كيف تقول في الشافعي ما تقول، والرجل أكل الطعام ونام وقام ولم يتوضأ كيف إذًا؟

قال: «آتيكم بالخبر ..» فسأله. قال: فأما الطعام فلا أجد أحلَّ من طعام الإمام أحمد بن حنبل فأردت أن أملأ بطني منه، أما كوني لم أتهجد فلأن التفكر في العلم أفضل من التهجد، وأنا جعلت أتفكر في العلم واستنبط من قول الرسول ﷺ: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[3]. كذا وكذا ما أدري قال: مائة، أو ألف.

أما كوني لم أطلب ماءً وأن خارج لصلاة الفجر، فلم أشأ أن أطلب ماءً وأنا على وضوء. فذكر ذلك لأهله. فقالوا: الآن !!

(١) الصحفة، أكبر من القصعة وهي ما تشبع نحو من خمسة.
(٢) أخرج أحمد (٤/ ١٣٢). والترمذي (٢٣٨٠). وابن المبارك في الزهد (٦٠٣).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، والنغير: طير صغير.

فهيا أيها الطالب! تحلَّ بالنظرِ والتفكرِ، والفقهِ والتفقهِ، لعلك أن تتجاوزَ من مرحلةِ الفقيهِ إلى (فقيهِ النَّفْس) كما يقولُ الفقهاء، وهو الذي يُعَلِّقُ الأحكامَ بمداركِها الشرعية، أو (فقيهِ البَدَن) كما في اصطلاحِ المُحَدِّثين[1].

هناك فقه ثالث ظهر، وهو فقه الواقع الذي علَّق عليه بعض الناس العلم.

وقالوا: من لم يكن فقيهاً للواقع فليس بعالم، ونسوا أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2]. ثم غفلوا عن كون الإنسان يشتغل بفقه الواقع أن ذلك يشغله عن فقه الدين، بل ربما يشغله عن الاشتغال بالتعبد الصحيح، عبادة الله وحده وانصراف القلب إلى الله والتفكر في آياته الكونية والشرعية. والحقيقة أن انشغال الشباب بفقه الواقع صدٌّ لهم عن الفقه في دين الله، لأن القلب إذا امتلأ بشيء امتنع عن الآخر.

فانشغال الإنسان بالفقه في الدين وتحقيق العبادة والدين والإخلاص خيرٌ له من البحث عن الواقع، وماذا فعل فلان؟ وماذا فعل فلان، وربما يتلقون فقه الواقع من روايات ضعيفة أو موضوعة في وسائل الإعلام المسموعة أو المقروءة أو المرئية أو يبنون ما يظنونه فقه واقع على تقديرات وتخمينات يقدرها الإنسان، ثم يقول هذا فُعِلَ لهذا، ويعلل بتعليلات قد تكون بعيدة من الواقع.

أو ينظر إلى أشياء خطط لها أعداؤنا من قبل على واقع معين، تغيَّر الواقع وزال بالكلية فبقيت هذه الخطط لا شيء.

(١) وانظر عن قولهم: «فقيه البدن»، «معالم الإيمان»: (٢/ ٣٣٦، ٣٤٠) و«الثقات» لابن حبان: (٩/ ٢٤٢).

(٢) سبق تخريجه.

والمهم أن فقه النفس، الذي هو صلاح القلب والعقيدة السليمة ومحبة الخير للمسلمين وما أشبه ذلك هذا ينبني عليه فقه البدن: معرفة هذا القول حلال أم حرام. هذا الفعل حلال أم حرام.

فأجلِ النَّظَرَ عند الوارداتِ بتخريجِ الفُروعِ على الأُصولِ، وتمامِ العنايةِ بالقواعدِ والضوابطِ. وَأَجْمِعْ للنَّظَرِ في فَرْعٍ ما بين تتبُّعِهِ وإفراغِهِ في قالبِ الشريعةِ العامِّ من قواعدِها وأُصولِها المُطَّرِدَةِ، كقواعدِ المصالحِ، ودَفْعِ الضَّررِ والمشقَّةِ، وجَلْبِ التيسيرِ، وسَدِّ بابِ الحِيَلِ، وسدِّ الذَّرائعِ.

لابد لطالب العلم من أصول يرجع إليها، والأصول ثلاثة: الأدلة من القرآن والسنة والقواعد والضوابط المأخوذة من الكتاب والسنة.

والمهم أن يكون لدى الإنسان علم بالقواعد والضوابط حتى يُنزل عليها الجزئيات. والفرق بين القاعدة والضابط[1]:

أن الضابط يكون لمسائل محصورة معينة.

والقاعدة أصل يتفرع عليه أشياء كثيرة.

فالضابط أقل رتبة من القاعدة، كما يدل ذلك اللفظ، الضابط يضبط الأشياء ويجمعها في قالب واحد. والقاعدة أصل تفرع عنه الجزئيات.

قوله: «**فأجل النظر عند الواردات بتخريج الفروع على الأصول، وتمام العناية بالقواعد والضوابط**» هذا من أهم ما يكون، أن الإنسان يجعل نظره أي فكره يتجول بتخريج

(١) انظر في ذلك: الأشباه والنظائر لابن نجيم/ ١٩٢، والكليات/ ٧٢٨، هداية العقول (١/ ٣٦)، التعريفات/ ٢١٩، شرح الكوكب المنير (١/ ١٣)، المحلى على شرح جمع الجوامع (١/ ٢١).

الفروع على الأصـول حتى يتمـرن، لأن بعض الناس قد يحفظ القـاعدة كمـا يحفظ الفاتحة ولكن لا يعرف أن يُخرِّج عليها. وهذا لاشك نقص في التفكير. فلابد من أن يجتهد ويُجيلَ نظره بتخريج القواعد على الأصول.

قوله: «**وأجمع للنظر في فرع ما بين تتبعه وإفراغه في قالب الشريعة العام ..**» وهذا أيضًا مهم عند أهل الحـديث. يأتي مثـلاً نص ظاهره. الحكم بكذا لكن إذا تأملت في هذا النص وجدته مخالفًا للقواعد العامة من الشريعة، فما موقفك؟

نقول: لابد أن نرجع إلى القواعد، ويُحكم على هذا بما تقتضيه الحاجة. وكذلك قال العلماء فيـما لو خالف الإنسان الثقة الثبت مـن هو أرجح منه، فإن حديثه هذا - وإن كـان من حيث النظر إلى مـجرد الطـريق نحكم بصحتـه - نقـول: إن هذا غيـر صحيح. لماذا؟ لأنه شاذ. والذي أوجب لكثير من المبتدئين في طلب العلم أن يسلكوا مسلكًا شاذًا هو هذا. أعنى عدم النظر إلى القواعـد والأصول الثابتة. وهذا أمرٌ مهم، وذلك لأن الشـريعة إنما جـاءت لجلب المصـالح الدينيـة والدنيـوية ولدرء المفاسـد أو تقليلها، سواء كانت المفاسد دينية أو دنيوية،ولهذا تجد أن الله عزَّ وجلَّ يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة شرعًا وقدرًا.

تنزل الأمطار على الأرض، وهذا رجل تم بُنيـانه قريبًا. هـل يضره المطر أو لا؟ نعم يضره، لكن لا عبرة. لأن العبرة بالعموم.

وكذلك تنـزل وهذا الرجل قد انتهـى من السقي، والمعـروف أن الزرع إذا أصابه الماء، مطرًا كان أو سُقى بعد الانتهاء من سقيه أنه يضره لكن العبرة بالعموم.

فهذه مسائل ينبغي لطالب العلم أن ينتبـه لها، ولهذا قال الشيخ بكر رحمه الله ووفقه الله «**وأصولها المطردة كقواعد المصالح**».

وهنا نقف لنبين أن بعض الأصوليين أتى بدليل خامس: وهو المصالح المرسلة[1]. فقال: الأدلة هي القرآن والسنة والقياس الصحيح والمصالح المرسلة.

وهذا غلط لأن هذه المصالح الذين يدَّعون أنها - مـصالح مرسلة - إن كان الشرع قد شهد لها أنها مصالح مرسلة فهي من الشرع داخلة في عموم الشرع: كتاب أو سنة قياس كان أو إجمـاع، وإن لم تكن فيها مصالح شرعية فهي باطلة فـاسدة الاعتبار، وحينئذ لا نؤصل أصلاً، دليلاً ندين الله بالتعبد به بدون دليل من القرآن والسنة. لأن كونك تؤصل أصلاً يعني أنك تبني دينك على هذا.

وعلى هذا فتـمسح أو فتنسخ ذكر المصـالح المرسلة من الأدلة. لماذا؟ لأننا نقول: إن شهد الشرع بهذه المصلحة فهي ثابتة بالكتاب والسنة بعمومتها وقواعدها، وإن شهد ببطلانها فهي باطلة.

الآن من أهل البـدع من ركَّب بدعـته على هذا الدليـل. قال: هذا من المصـالح المرسلة. فالإنسان يحيي قلبه ويحركه بماذا؟ ببدعـة صوفية وما أشبه ذلك وقال: نحن نطمـئن الآن إذا أتينا بهذه الأذكـار وعلى هذه الصفـة ويضرب الأرض حـتى تتغبر قدماه. قال: هذه مصلحة عظيمة تحرك القلوب.

ماذا نـقول: لو قلنا باعـتبـار المصالح المرسلة كل واحـد يدعي أن هذه مصلـحة وأصل النزاع الذي أمر الله فـيه بالرد إلى الكتاب والـسنة أصله أن كل واحد يرى أن كل ما عليه مصلحة، وربما يماري ليكون قوله المقبول.

(١) انظر المصلحة المرسلة: شرح تنقيح الفصول (ص٤٤٥)، المستصفى (١/ ٢٨٤)، الروضة (ص١٦٩)، المحصـول (٢/ ٢١٩)، نهاية السول (٣/ ١٣٦)، أصـول مذهب الإمـام أحمد (٤١٣) شـفاء الغليل (ص٢١١)، الاعتـصام (٢/ ١١١)، إرشـاد الفحـول (ص٢٤١) الإبهاج (٣/ ١٧٨)، مـختـصر ابن الحاجب مع شرح العضد (٢/ ٢٨٩)، أثر الأدلة المختلف فيها (٤١) للدكتور مصطفى البنا.

المهم أن قول الشيخ بكر «كقواعد المصالح» مراده بذلك المصالح الشرعية، فإن كان هذا مراده فهو حق، وإن كان يريد المصالح المرسلة فهو بعيد، لأنه قال بعد ذلك «**ودفع الضرر والمشقة**»، إن كان يشير إلى المصالح المرسلة فقد علمت فساد ما يجعلها دليلاً مستقلاً.

وقوله: «**ودفع الضرر**» أين نجد من القرآن والسنة دفع الضرر؟ كثير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾(سورة النساء:٢٩). وهذه الآية تعم قتل النفس مباشرة بأن ينتحر الإنسان أو فعل ما يكون سببًا للهلاك، ولهذا استدل عمرو بن العاص رضي الله عنه بهذه الآية على التيمم خوفًا من البرد، مع أن البرد قد لا يميت الإنسان، ولكن قد يكون سببًا لموته، استدل بها، فأقره النبي ﷺ على ذلك وضحك.

هذا من القرآن. وأيضًا من القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾(سورة المائدة: ٦). الشاهد قوله: ﴿مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾لماذا يتيمم وهو مريض، يقدر أن يستعمل الماء؟ لكن لئلا يزاد مرضه أو يتأخر بُرؤُه.

ومن دفع المشقة أن النبي ﷺ رأى زحامًا وهو في السفر، ورجلاً قد ظُلِّل عليه. فقال: ما هذا؟ قالوا: صائم. قال: «**ليس من البر الصيام في السفر**»[1]. مع أن الرسول ﷺ يصوم وهو مسافر، وهل يفعل غير البر؟! لا لكن إذا وصلت الحال من المشقة فإنه ليس من البر، وإذا انتفى أن يكون من البر، فهو إما من الإثم وإما أن يكون من "لا لك ولا عليك".

شُكِيَ إلى النبي ﷺ أن الناس عطاش وقد شقَّ عليهم الصيام، لكنهم ينظرون متى، فدعا بماء بعد صلاة العصر ووضعه على فخذه الشريفة، وجعل الناس ينظرون

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٦) في كتاب الصوم / ومسلم في الصيام (٩٢/ ١١١٥).

إليه، فأخذه وشرب، والناس ينظرون. ثم قيل له إن بعض الناس قد صام. فقال: «**أولئك العصاة، أولئك العصاة**»[1].

هل ورد نهي أن يبقوا على صيامهم؟ لا، ولكن العموم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾(سورة النساء:٢٩). ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (سورة الحج:٧٨). إذًا الشرع يراعي قواعد المصالح ودفع الضرر، دفع المشقة.

قوله: «**وجلب التيسير**» كل الإسلام تيسير، لكن هل اليسر هو ما تيسر على كل شخص بعينه أو باعتبار العموم؟ باعتبار العموم. ومع ذلك إذا حصل للإنسان ما يقتضي التيسير وجد الباب مفتوحًا: «**صل قائمًا ...**»[2]. إذًا هذا تيسير، بل قال رسول الله ﷺ «**إن الدين يسر ولا يُشادُّ الدين أحدًا إلا غلبه**»[3]

كل الدين يسر، وكان إذا بعث البعوث يقول: «**يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»[4].

فالحمد لله. هذا الدين للإنسان دين يسر، وبناء على ذلك هل يتعمد الإنسان فعل العبادة على وجه يشق عليه أو أن يفعلها على الوجه الأيسر. أيهما أقرب إلى مقاصد الشريعة؟

الثاني، ولهذا لو أن رجلاً في البرد حانت صلاة الفجر وعنده ماء، أحدهما ساخن والآخر بارد.

فقال أنا أريد أن أتوضأ بالماء البارد حتى أنال أجر إسباغ الوضوء على المكاره. وقال الثاني أنا أريد أن أتوضأ بالماء الساخن حتى أوافق مراد الله الشرعي، حيث قال:

(١) أخرجه مسلم (١١١٤).
(٢) أخرجه البخاري (١١١٧) في كتاب تقصير الصلاة/ باب إذا لم يُطق قاعدًا صلى على جنب.
(٣) أخرجه البخاري (٣٩) في كتاب الإيمان/ باب الدين يسر.
(٤) أخرجه مسلم (٦/ ١٧٣٢).

﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ (سورة البقرة:١٨٥) . أيهما أصوب؟ الثاني بالإجماع بلا شك هو الموافق للشريعة، لأن إسباغ الوضوء على المكاره ليس المراد منه أن يتقصد الإنسان ما يكره. المراد إذا لم يمكن الوضوء إلا بمكروه .. يتوضأ هذا معناه.

وإلا لكان يقول أحجج البيت على قدميك ... سر من أفغانستان إلى مكة على قدميك، فإن لم تفعل فعلى سيارة خربة، تمشي قليلاً وتقف كثيرًا لماذا؟ لأنها أشق. فإن لم تستطع فعلى طيارة. ليس هذا بصحيح !! أيهما أفضل الطيارة لأنها أسهل وأيسر.

وأول ما خرجت الطيارات كنا نُحَدث ونحن صغار أن الحج على الطيارة ثُمن الحج. وعلى السيارة نصف الحج.

والشاهد على كل حال: جلب التيسير هو الموافق لروح الدين. من هنا نرى أنه إذا اختلف عالمان في رأي، ولم يتبين لنا الأرجح من قولهما لا من حيث الدليل، ولا من حيث الاستدلال، ولا من حيث المستدل.

وأحدهما أشد من الثاني، فمن نتبع الأيسر أم الأشد؟ الأيسر. وقيل الأشد لأنه أحوط. لكن في هذا القول نظر لأننا نقول ما هو الأحوط؟ هل هو الأشد على بني آدم أم هو الموافق للشرع؟ الثاني... ما كان أوفق للشرع.

ثم قال: «**وسد الحيل وسد الذرائع**». إن هذه الأمة اتبعت سنن من كان قبلها في مسألة الحيل، وأشد الناس حيلاً ومكرًا هم اليهود، وهذه الأمة فيها من تشبه باليهود وتحايلوا على محارم الله.

والحيلة: أصلها حِولَة من حال يحول. هذا في اللغة.

أما في الشرع والإصطلاح: هي التوصل إلى اسقاط واجب أو انتهاك محرم بما ظاهره الإباحة[1].

مثال ذلك: رجل سافر في نهار رمضان، قصده أن يفطر في رمضان وليس له قصد في السفر إلا أن يفطر. ظاهر فعله أنه حلال، لكن أراد بذلك إلى إسقاط واجب وهو الصوم.

مثال آخر: رجل تزوج بمطلقة صاحبه ثلاثًا، ورآه محزونًا عليها فذهب وتزوجها من أجل أن يحللها للزوج الأول ـ الذي هو صاحبه ـ ليس له غرض في المرأة، وإنما يريد أن يجامعها ليلة ثم يدعها.

نقول: هذا تحيل على محرم، لأن هذه المرأة لا تحل لزوجها الأول الذي طلقها ثلاثًا وأراد أن يحللها له.

(١) تنقسم الحيلة إلى ثلاثة أقسام:
الأول ـ ما لا خلاف في بطلانه، كحيل المنافقين والمرائين. ومثال ذلك: ما سجله القرآن الكريم على المنافقين الذين اتخذوا مسجد الضرار. (انظر تفسير الآيات ١٠٧-١١٠ من سورة التوبة).
وأيضًا الحيل على أخذ أموال الناس بالباطل وجعل ما ليس بشرعي لابسًا المظهر الشرعي. ومن ذلك قوله ﷺ: «**لا يُجمع بين متفرق ولا يُفرق بين مجتمع خشية الصدقة**». أخرجه البخاري (١/ ١٥٢) فهذا نهي عن الاحتيال لإسقاط الواجب أو تقليله، وقوله ﷺ: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود والنصارى يستحلُّون محارم الله بأدنى الحيل**». أخرجه ابن بطه في إبطال الحيل برقم (٤٢) وانظر الضعيفة (٤١٦)، فهذه الحيل وأمثالها لا يستريب مسلم في أنها حرام من كبائر الإثم وأقبح المحرمات، وهي من التلاعب بدين الله.
الثاني ـ ما لا خلاف في جوازه كالنطق بكلمة الكفر حالة الإكراه. قال الله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة النحل:١٠٦). قال ابن القيم: فهذه وأمثالها هي الحيل التي أباحتها الشريعة وهي تحيِّل الإنسان بفعل المباح على تخلصه من ظلم غيره وأذاه، لا الاحتيال على إسقاط فرائض الله واستباحة محارمه.
الثالث ـ ما لم يتبين بدليل قاطع موافقته لمقصد الشارع أو مخالفته، وهذا محل خلاف بين العلماء.
انظر: الموافقات (٢/ ٣٨٢) و(٤/ ١ ٢٠) وإعلام الموقعين (٣/ ١٤٣) و(٣/ ٢٩١) والطرق الحكمية (٤١)، قاعدة سد الذرائع (٧٢) للدكتور محمود حامد عثمان.

ولهذا جاء في الحديث بما هو أهل له حيث سُمي «التيس المستعار». ومن باب الحيل أيضًا ما يفعله كثير من الناس اليوم في مسائل الربا رجل باع سلعة بـ ١٠ آلاف إلى سنة، ثم اشتراها نقدًا بـ ٨ آلاف. هذه حيلة على أن يعطي ٨ آلاف ويأخذ ١٠ آلاف لأن هذا العقد صوري. ولهذا قال فيه عبد الله بن مسعود أنه دراهم بدراهم دخلت بينهم حريرة، يعني قطة قماش.

«سد الذرائع» الذرائع جمع ذريعة، وهي الوسيلة[1]. والفرق بينها وبين الحيلة: أن فاعل الحيلة قد قصد التحيُّل. وفاعل الذريعة لم يقصد، ولكن فعله يكون ذريعة إلى الشر والفساد.

مثال ذلك: بعض النساء اليوم صارت تلبس النقاب، تغطي وجهها بالنقاب[2]، لكن هل إنَّ المرأة بقيت على هذا. بمعنى أنها لم تخرق فيه لستر وجهها إلا مقدار العين؟ ... لا. إذًا يُمنع النقاب لأنه ذريعة يتوصل به إلى شيء محرم؟

وهكذا هُديتَ لرُشْدِك أبدًا، فإنَّ هذا يُسْعِفُك في مواطنِ المضايق. وعليك بالتفقُّه كما أسلفتُ في نُصوصِ الشرْع، والتبصُّر فيما يَحُفُّ أحوالَ التشريع، والتأمُّلِ في مقاصدِ الشريعة، فإن خلا فَهْمُك من هذا، أو نَبَا سَمْعُك، فإنَّ وَقْتَك ضائعٌ، وإنَّ اسْمَ الجهلِ عليك لَوَاقِعٌ. وهذه الخَلَّةُ بالذاتِ هي التي تُعطيك التمييزَ الدقيقَ، والمِعْيارَ الصحيحَ، لِمدى التحصيلِ والقُدرةِ على التخريج:

(١) انظر في الذريعة:
قاعدة سد الذرائع(٥٧)، الفروق للقرافي (٣/ ٣٣)، أعلام الموقعين (٣/ ١٢٠)، الموافقات (٤/ ١٩٩)، الحدود للباجي (ص٦٨)، أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٢٦٥)، المقدمات الممهدات (٢/ ٥٢٤)، تفسير القرطبي (٢/ ٧٥) الفتاوى الكبرى (٣/ ١٨٩)، تقريب الوصول(٣٣).

(٢) النقاب الذي يقصده الشيخ رحمه الله هو ما يسمى البرقع. حيث تظهر المرأة عينيها منه. وليس مقصوده النقاب المتعارف عليه في بلادنا.

فالفقيهُ هو مَن تَعرَّضَ له النازلةُ لا نَصَّ فيها فيقتبسُ لها حُكمًا.

والبلاغيُّ ليس مَن يذكُرُ لك أقسامَها وتفريعاتها، لكنَّه مَن تَسْري بصيرتُه البلاغيَّةُ في كتابِ الله، مَثَلًا، فَيُخرج من مكنونِ علومِه وجوهَها، وإن كَتَبَ أو خَطَب، نَظَمَ لك عِقْدَها. وهكذا في العلوم كافَّةً.

هذا صحيح .. الفقيه حقيقةً هو الذي يستنبط الأحكام من النصوص وينزل الأحكام عليها، وليس من يقرأ النصوص.

من يقرأ النصوص فهو كنسخة من الكتاب، لكن من يشقق النصوص وينزل الوقائع عليها، كالبلاغي ... وهل البلاغي هو من يبين لك البلاغة وأقسامها، والفصاحة وأقسامها؟ أم من يكون كلامه بليغًا؟ ... الثاني، من يكون كلامه بليغًا فهو البلاغي، حتى ولو لم يكن يعرف من البلاغة شيئًا.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يطبق المعلومات على الواقع. بمعنى: أنه إذا نزلت نازلة يعرف كيف يتصرف في النصوص حتى يعرف الحكم، وإذا عرف شيئًا يمرن نفسه على أن يطبق هذا في حياته القولية والفعلية.

٣١. اللُّجوءُ إلى الله تعالى في الطَّلَبِ والتَّحْصيل:

لا تَفْزَعْ إذا لم يُفتح لك في علم من العلوم، فقد تعاصت بعضُ العلوم على بعضِ الأعلامِ المشاهير، ومنهم من صرَّح بذلك كما يُعلم من تراجمِهم، ومنهم: الأصمعيُّ في علم العَروض، والرُّهاويُّ المُحَدِّث في الخطِّ، وابن الصَّلاح في المنطق، وأبو مُسلم النَّحْوي في علم التصريف، والسُّيوطي في الحِساب، وأبو عُبيدة، ومحمَّد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبو الحَسَن القَطيعي، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء، وأبو حامد الغَزالي، خمستُهم لم يُفتح لهم بالنحو.

لكن هذا لا يضر . . . مادمنا نطلب الفقه لا يضرنا أن نتكلم بكلامٍ أو ألاَّ نعرف النحو. لكن لاشك إذا تكلم بكلام مطابق للغة العربية فإن كلامه يكون مقبولاً محبوبًا للنفس، والإنسان الذي يعرف العربية أكره ما يسمع أن يتكلم الإنسان ويلحن يكره الكلام من هذا الرجل كراهية عظيمة.

فإن عجزت عن فنٍ فالجأ إلى الله عزَّ وجلَّ، ومَرَّ علينا في خلاف الأدباء أن أحد أئمة النحو - إذا لم يكن الكسائي - فهو مثله، طلب النحو وعجز عن إدراكه في يوم من الأيام رأى نملة تريد أن تصعد بُطعم لها من الجدار فكلما صعدت سقطت ثم تأخذ هذا الطعم وتمشي ثم تسقط ثم تصعد وربما كل مرة تقول: أرفع قليلاً حتى اقتحمت العقبة وتجاوزته، فقال: إذا كانت هذه تحاول وتفشل عدة مرات ولكنها استمرت حتى انتهى أمرها، فرجع إلى علم النحو وتعلمه حتى صار من أئمته.

فأنت حاول لا تقول عجزت هذه المرة، تعجز هذه المرة، لكن المرة الثانية يقرب لك الأمر.

فيا أيُّها الطالبُ! ضاعفِ الرَّغْبَة، وافزَع إلى الله في الدُّعاءِ واللجوءِ إليه والانكسارِ بين يديه. وكان شيخُ الإسلامِ ابن تيميَّة - رحمه الله تعالى - كثيرًا ما يقولُ في دُعائهِ إذا استعصى عليه تفسيرُ آيةٍ من كتاب الله تعالى: «اللهمَّ يا مُعلِّمَ آدمَ وإبراهيمَ علِّمني، ويا مُفَهِّمَ سُليمان فَهِّمْني». فيجدُ الفَتْحَ في ذلك[1].

وهذا من باب التوسل بأفعال الله، والتوسل بأفعال الله جائز، لأن التوسل جائز وممنوع، وإن شئت فقل: مشروع وغير مشروع.

(١) «فتاوى ابن تيمية»: (٤/٣٨).

التوسل إلى الله بأسماءه وصفاته وأفعاله من المشروع، وكذلك التوسل إلى الله تعالى بذكر شكوى الحال وأنه مفتقر إليه، والتوسل إلى الله بالإيمان به، والتوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، والتوسل إلى الله تعالى بدعاء من يُرجى استجابة دعاءه. كل هذا مشروع.

٣٢ - الأمانةُ العلميةُ:

يجبُ على طالبِ العلم فائقُ التحلِّي بالأمانةِ العلميةِ في الطَّلَبِ، والتحمُّلِ، والعَمَلِ، والبلاغِ، والأداءِ: «فإنَّ[1] فلاحَ الأُمَّةِ في صلاحِ أعمالِها، وصلاحَ أعمالِها في صحَّةِ علومِها، وصحَّةُ علومِها في أن يكونَ رجالُها أُمناءَ فيما يَرْوون أو يَصِفُون، فمن تَحدَّثَ في العلم بغيرِ أمانةٍ، فقد مَسَّ العلمَ بقُرْحةٍ، ووَضَعَ في سبيلِ فلاحِ الأُمةِ حَجَرَ عَثْرَةٍ.

من أهم ما يكون في طالب العلم أن يكون أمينًا في علمه، فيكون أمينًا في نقله، ويكون أمينًا في وصفه. إذا وصف الحال فيكون أمينًا لا يزيد ولا ينقص، وإذا نقل فليكن أمينًا في النقل لا يزيد ولا ينقص وكثير من الناس تنقصه هذه الأمانة، فتجده يصف في كثير من الحال ما يوافق رأيه ويحذف الباقي، وينقل من أقوال أهل العلم، بل ومن النصوص ما يوافق رأيه ويحذف الباقي فيكون كالذي قال:

ما قال ربك ويلٌ للأُولى سَكِروا * بل قال ربك ويلٌ للمصلين**

وحذف ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (سورة الماعون:٥). وهذا لاشك أنه حجر عثرة وأنه تدليس على العلم، لأن الواجب النقل بأمانة والوصف بأمانة، وما يضرك إذا كان الدليل على خلاف ما تقول، فإنه يجب عليك أن تتبع الدليل وأن تنقله للأمة حتى تكون على بصيرة من الأمر.

(١) «رسائل الإصلاح»: (١/١٣).

ومثل هذه الحال ـ أعني عدم الأمانة ـ يوجب أن يكون الإنسان فاسقًا لا يوثق له بخبر ولا يقبل له نقل لأنه مدلس.

لا تَخلو الطوائفُ المنتميةُ إلى العلوم من أشخاصٍ لا يَطلُبون العلمَ ليتحلَّوا بأسنى فضيلةٍ، أو ليَنفَعوا الناسَ بما عَرفوا من حكمةٍ، وأمثالُ هؤلاء لا تجدُ الأمانَةَ في نفوسِهم مُستَقرًا، فلا يتحرَّجون أن يَرْوُوا ما لم يسمعوا، أو يَصِفُوا ما لم يعلموا، وهذا ما كان يَدْعُو جهابذَةَ أهلِ العلمِ إلى نَقْدِ الرجالِ.

نعم ... لأن طلب العلم يؤدي إلى التحلي بأسنى فضيلة، وبأن ينقلوا إلى الناس ما عرفوا من الحكمة، وإنما يطلبون العلم من أجل نصر آرائهم فتجده يبحث في الكتب ليجد شيئًا يقوي به رأيه، سواء كان خطأً أو صوابًا، وهذا والعياذ بالله هو المراء والجدال المنهي عنه، أما من يقلب بطون الكتب ليعرف الحق فيصل إليه، فلاشك أن هذا هو الأمين المنصف.

وتَمْييز مَن يُسْرِفُ في القولِ ممَّن يصوغُه على قَدْرِ ما يعلمُ، حتى أصبح طُلَّابُ العلمِ على بصيرةٍ من قيمةِ ما يقرؤونه، فلا تخفى عليهم منزلتُه، من القَطْعِ بصدقِهِ، أو كذبِهِ، أو رُجحانِ أحدِهما على الآخرِ، أو احتمالِهما على سواء» أهـ.

٣٣. الصِّدْقُ[١]:

صدقُ اللهجةِ: عنوانُ الوَقارِ، وشرفُ النفسِ، ونقاءُ السريرةِ، وسُمُوُّ الهمَّةِ، ورُجحانُ العقلِ، ورسولُ المودَّةِ مع الخلقِ، وسعادةُ الجماعةِ، وصيانةُ الديانةِ، ولهذا كان فَرْضَ عينٍ، فيا خَيْبَةَ من فرَّط فيه، ومن فعل فقد مسَّ نفسَه وعلمَه بأذى.

(١) «فتاوى شيخ الإسلام»: (٢٠/ ٧٤-٨٥).

الصدق هنا قريب من مسألة الأمانة العلمية، لأن الأمانة العلمية تكون بالصدق، والصدق كما قال: عنوان الوقار، وشرف النفس، ونقاء السريرة وإذا كان الكذب ينجي، فإن الصدق أنجى وأنجى. وإن كان الكذب أيضًا لا يدوم، لأنه سرعان ما يتبين الكذب ويفتضح الكاذب.

لكن الصدق عاقبته حميدة. فعليك بالصدق، ولو كنت تتخيل أنه يضرك فاصبر، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا.

وإني لأذكر رجلاً من عامة الناس شُهِر بالصدق، فكان الناس يتناقلون أخباره في المجالس على التلذذ بها أكثر مما يذكرون أخبار العلماء الذين في وقته لأن الصدق يرفع الله به من اتصف به، لاسيما في مسائل العلم.

فلا تقل إن الله حرم هذا وهو لم يحرمه، ولا أوجب هذا وهو لم يوجبه، ولا قال فلان كذا وهو لم يقله. بل تجنب هذا كله.

وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وغيره من الأئمة لا يصرحون بالتحريم إلا ما جاءت النصوص به، وإلا فإنك تجد الإمام أحمد يقول: أكره كذا، لا يعجبني، لا تفعل. وما أشبه ذلك.

وقول الشيخ بكر ـ وفقه الله ـ «ولهذا كان فرض عين»، يعني الصدق فرض عين، لا فرض كفاية، فلا يقول: أنا أكذب، والثاني يصدق ... لا ... لا يجوز أن تكذب.

استثنى بعض العلماء ما جاء عن طريق التورية، ولكن لا حاجة للاستثناء، لأن التورية صدق باعتبار ما في نفس القائل، كمثل قول إبراهيم عليه السلام للملك الجبار هذه أختي.

وهذا ليس بالكذب، وإن كان إبراهيم اعتذر عن الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات، لكنه كذب من وجه وهو التلبيس على الظالم المعتدي، ولكنه صدق باعتبار ما في نفس القائل.

استثنى بعض العلماء أيضًا ما جاء في الحديث أنه لا يجوز الكذب إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث المرأة لزوجها وحديث الرجل لزوجته.

ولكن بعض العلماء يقول: إن هذا محمولٌ على التورية، وليس على الحقيقة، فالحرب خدعة، بأن تُريَ عدوك أنك تريد جهة ما، وأنت تريد الجهة الأخرى، أو تُريَ عدوك أن عندك جنود كثيرة بحيث أن تجعل الجيش يتراسم، كما فعل القعقاع بن عمرو في إحدى غزواته، قسم الجيش وهم عدد قليل، لكن العدو يظنه عددًا كثيرًا.

كذلك الإصلاح بين الناس ... لا تكذب، ولكن تأوَّل. إذا قال لك فلان: يقول فيَّ كذا وكذا. تقول: لا لم يقل فيك شيئًا.

كذلك حديث المرأة زوجها وحديث الرجل زوجته، يعني: على سبيل التورية لا التصريح وهذا القول ليس ببعيد، لأن الكذب كما قال الرسول ﷺ يهدي إلى الفجور، لا يهدي إلى الخير. ثم إن الإنسان إذا اعتاد هذا ـ لاسيما مع الزوجة وصار كلما حدثها بحديث وبحثت عنه وجدته كذبًا لم تثق فيه بعد ذلك، وربما يكون سببًا لفقدها إياه وللفراق التام.

وعند العامة يستثنى كذبًا أكثر من ذلك يقولون: الكذب الحرام ما كان فيه أكل للمال بالباطل، وأما ما سواه فهو كذب أبيض ويقسمون الكذب إلى قسمين: كذب أبيض وكذب أسود. والأبيض حلال، والأسود حرام. والأسود ما فيه أكل المال بالباطل، والأبيض ما ليس كذلك، ولكن هذا هو دين العامة وليس شريعة محمد ﷺ.

قال الأوزاعيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: «تعلَّم الصِّدْقَ قبل أن تتعلَّم العلم».

وقال وكيعٌ ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذه الصَّنْعَةُ لا يرتفعُ فيها إلا صادقٌ»[(١)].

فتعلَّم ـ رحمك اللهُ ـ الصِّدْقَ قبل أن تتعلَّم العلم، والصِّدْقُ: إلقاءُ الكلام على وَجْهٍ مطابقٍ للواقعِ والاعتقادِ، فالصِّدْقُ من طريقٍ واحدٍ، أمَّا نقيضهُ الكذبُ فَضُروبٌ وألوانٌ ومسالكُ وأودية، يجمعُها ثلاثةٌ[(٢)]:

١ ـ كَذِبُ المتملِّق: وهو ما يخالفُ الواقعَ والاعتقادَ، كَمَنْ يتملَّق لمن يعرفُه فاسقًا أو مبتدعًا فَيَصِفُه بالاستقامة.

٢ ـ وكَذِبُ المُنافقِ: وهو ما يخالفُ الاعتقادَ ويُطابق الواقعَ، كالمُنافق ينطقُ بما يقولُه أهلُ السُّنَّةِ والهدايةِ.

٣ ـ وكَذِبُ الغبي: بما يُخالِفُ الواقعَ ويطابقُ الاعتقادَ، كمن يعتقدُ صلاحَ صوفي مبتدعٍ فيصفه بالولاية.

الصدق لاشك أنه سبيلٌ واحد، والكذب سُبل، وهكذا الهداية والضلالة. الهداية سبيلها واحد، والضلالة سبل متفرقة. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(سورة الأنعام:١٥٣). وأما قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾(سورة المائدة:١٦). فقد جمعها باعتبار تنوع الشرائع ... صلاة، زكاة، صيام، حج، بر، صلة، صدقة ـ وما أشبه ذلك فجمعها باعتبار وتوحيدها باعتبار آخر.

أما الكذب فضروب وألوان متعددة، ويتعدد بتعدد أغراضه فهو يجمعها ثلاثة. يقول:

---

(١) «الجامع»: (١/ ٣٠٤)، (٢/ ٧) للخطيب البغدادي.
(٢) «رسائل الإصلاح»: (١/ ٩٥-١٠٥) مهم.

١ ـ «**كذب المتملق: وهو ما يخالف الواقع والاعتقاد، كمن يتملق لمن يعرفه فاسقًا أو مبتدعًا فيصفه بالاستقامة**».

تعرف أن هذا الرجل فاسق ثم تأتي إليه وتقول: ما شاء الله أنت رجل مستقيم، مستقيم الأخلاق، مستقيم الدين، مستقيم المنهج. وأنت تعرف أنه أفسق عباد الله. هذا ماذا يقال له؟ يقال له متملق وهذا أكثر ما يكون عند الملوك والأمراء، تجد الرجل يتملق إلى الأمير أو الملك ويقول: أنت فيك كذا وأنت فيك كذا، وهذا من النفاق والعياذ بالله.

٢ ـ «**كذب المنافق: وهو ما يخالف الاعتقاد ويُطابق الواقع**» ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ﴾. وكونه رسول الله مطابق للواقع. ما الدليل؟ قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾. لكن شهادتهم هذه مخالفة لاعتقادهم، لأن الله قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة المنافقون: ١).

أي في قولهم نشهد إنك لرسول الله لا في قولهم إنه لرسول الله. هذا يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع.

وهذا باعتبار قول المنافق في غيره، أما باعتبار قوله في نفسه مثلاً أنه صالح، فهو يخالف الاعتقاد، ويخالف الواقع إلا ظاهرًا.

٣ ـ «**كذب الغبي: بما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد**». وهو أن يقول الشيء ما ليس فيه لغبائه فيقول مثلاً عن أهل الكلام أنهم هم العقلاء، وأنهم أهل العلم والحكمة، أما أهل السنة فهم أغبياء يفوضون النصوص ولا يعرفون لها معنى.

نقول: هذا غبي، ولهذا عبر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في كتابه الفتوى الحموية، عبر بهذا الوصف فقال: «قال بعض الأغبياء: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم».

وكذلك من يشاهد الصوفية وتصنعهم وعباداتهم، فيقول: إنهم أهل الصلاح وأهل الولاية.

نقول: أنت غبي لا تعرف حقيقتهم فلا تحكم عليهم بالصلاح حتى تعرف الحقيقة، وإلا كنت غبيًا.

فهذا كاذب، فهل يعذر بكذبه؟ نقول: إذا فرط في البحث فلا يُعذر وإن كان هذا منتهى علمه، فإنه يعذر لأنه جاهل. أما الأول فهو متملق، والثاني فهو منافق فلا عذر لهم في ذلك.

فالزَمِ الجادَّةَ (الصِّدْقَ)، فلا تضغط على عَكَدِ اللسانِ، ولا تضُمَّ شَفَتيك، ولا تفتح فاكَ ناطقًا إلاَّ على حروفٍ تُعبِّرُ عن إحساسِكَ الصادقِ في الباطنِ، كالحبِّ والبُغْضِ، أو إحساسِكَ في الظاهرِ، كالَّذي تُدرِكُه الحواسُ الخمسُ: السمعُ، البصرُ، الشمُّ، الذوقُ، اللمسُ. فالصادقُ لا يقولُ: «أحببتُك» وهو مُبْغِضٌ، ولا يقولُ: «سمعتُ» وهو لم يسمع، وهكذا ... واحذَرْ أن تحومَ حولك الظنونُ، فتخونك العزيمةُ في صدقِ اللهجةِ، فتُسجَّلَ في قائمةِ الكذابين. وطريقُ الضَّمانةِ لهذا: إذا نازعَتْك نفسُك بكلامٍ غيرِ صادقٍ فيه: أن تَقْهَرَها بذكرِ منزلةِ الصدقِ وشَرَفِهِ، ورذيلةِ الكذبِ ودَرَكِهِ، وأنَّ الكاذبَ عن قريبٍ ينكشفُ. واستعِنْ باللهِ ولا تعجزنَّ.

ولا تفتح لنفسِك سابلةَ المعاريضِ في غيرِ ما حَصَرَهُ الشرعُ. فيا طالبَ العلمِ! احذَرْ أن تَمْرُقَ من الصدقِ إلى المعاريضِ فالكذبِ، وأسوأُ مرامي هذا المروقِ (الكذبُ في العلمِ)، لِدَاءِ مُنافسةِ الأقرانِ، وطَيَرانِ السُّمعةِ في الآفاقِ.

هنا إضافة مهمة جدًا، هو أن بعض الناس يتسرع في الرقي إلى العلو بما يُلَفِّقُهُ ويوهم الناس به من أنه عنده علم واسع، وأنه عبقري، وأنه في كل فن له يد وما

أشبه ذلك. وهذا لاشك أنه غلط عظيم، فهو مع جمعه الكذب، فيه خيانة الناس وإيهامهم بخلاف الواقع. وفيه أيضًا التغرير بالنفس، أن الإنسان يزهو بنفسه حتى يحجمها ويكبرها وهي دون ذلك، وكم من إنسان هلك بمثل هذا سواء في طريق العلم أو في طريق العبادة، ولكن سرعان ما ينكشف، سرعان ما يَرِدُ عليه شيء يعجز عنه وحينئذ إما أن يقول ما هو معلوم كذبه فينكشف، وإما أن يتذبذب ويفتضح أمره. ولهذا كان مما قاله عبد الله بن مسعود: **«إن من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم»**.

وذكر بعضهم أن قول القائل: **«لا أعلم»** هي نصف العلم، ولكن في الواقع: العلم كله، والإنسان إذا عرف بالتحري وأنه يقول بما لا يعلم **«لا أعلم»** وثق الناس بقوله، أما إذا كان يجيب على كل ما يسأل حتى لو كان لا يعرف شيئًا فيما سُئل فيه، فإنه سوف ينكشف أمره وسوف لا يثق الناس بقوله حتى ولو كان حقًا. ولكن ما الذي يحمل على الإنسان على أن يقول مثل هذا؟

يحمله طلب العلو، أن يكون فائقًا على الأقران، أو طلب الصيت والشهرة بحيث يقال العلامة، الفهامة، البحر الزاخر وما أشبه ذلك.

وهذه لاشك إنها من مكائد الشيطان، فالواجب عليك أن تعرف قدر نفسك وأن لا تنزلها فوق منزلتها، ثم إن القول في مسائل الدين أخطر ما يكون لأنه قولٌ على الله بلا علم، وقد قال الله عزَّ وجلَّ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣).

بعض الناس إذا عُثر على خطأه قال: سبحان الله، سبحان الذي لا ينسى. نعم ... لكن أنت لم تنس، بل أنت جاهل من أصله.

ومن تطلَّع إلى سُمعةٍ فوقَ منزلتِه فَلْيَعلَمْ أنَّ في المرصادِ رجالاً يحملونَ بصائرَ نافذةً، وأقلامًا ناقدةً، فَيَزِنُون السُّمْعةَ بالأثرِ، فتتمُّ تعريتُك عن ثلاثةِ معانٍ:

١- فَقْدُ الثقةِ في القُلُوبِ.

٢- ذهابُ علمِك وانْحِسارُ القَبولِ.

٣- أن لا تُصَدَّقَ ولو صَدَقْتَ.

وبالجُملةِ، فمن يحترفْ زُخْرُفَ القَوْلِ، فهو أخو الساحرِ، ولا يُفلح الساحرُ حيثُ أتى[1]. والله أعلم.

هذا صحيح .. الإنسان إذا تطلع إلى السمعة فقط ونزل فوق منزلته فسرعان ما ينكشف، ثم إن النية في طلب العلم يجب فيها الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، ولهذا ورد عن النبي ﷺ: **«أن من طلب علمًا وهو مما يُبتغى به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عرضًا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة. وأن من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليجاري به العلماء فليتبوء مقعده من النار»**[2]. فالمسألة خطيرة، ولاسيما العلوم الشرعية. وذكر ثلاث مضار.

أولاً- فقد الثقة في القلوب: متى تُفقد؟ إذا تبين أنه قال عن جهل؛ ما يثقون به وينصرفون إلى غيره.

ثانيًا- ذهاب علمك وانحسار القبول: لأنه إذا فقدت الثقة لم يقبله الناس فإذا كان يقبله مثلاً (١٠)، فإنهم إذا فقدوا الثقة انحسروا إلى (٥) أو إلى (٤).

ثالثًا- أن لا تُصدَّق ولو صدقتَ: حتى لو حدثتهم بحديث يعرفونه. قالوا: هذا رمية من غير رامٍ.

---

(١) المرجع قبله.
(٢) سبق تخريجه.

فالحاصل أن الإنسان يجب أن يعرف مقدار نفسه وأن يحترم العلم، وأن لا يجعله له وسيلة للرقي الخادع.

٣٤ـ جُنَّةُ طالبِ العلم:

جُنَّةُ العالم (لا أدري) وَيَهْتِكُ حجابَه الاستنكافُ منها، وقوله: يُقال ... وعليه، فإن كان نصفُ العلم (لا أدري)، فنصفُ الجهل (يُقال) و(أظنُّ)[١].

هذا صحيح ... هذا متمم لما قبله، أن الإنسان يجب عليه إذا لم يعلم أن يقول: لا أعلم ولا يضره، بل يزيده ثقة بقوله.

وأما قوله: «**نصف الجهل أظن**» أو يقال هذا صحيح. بعض العوام الآن يتصل ويقول هذا حلال أو حرام أظنه حرام. يُقال لهذا أيضًا. نصف الجهل، ولكن هل أثق بكلام عامي؟! لا ... لا يجوز، ولهذا كم من الناس أفتاهم العوام بفتاوى خاطئة ولاسيما في أيام الحج.

٣٥ـ المُحافَظةُ على رأسِ مالِك (ساعاتِ عُمُرِك):

الوَقْتَ الوَقْتَ للتَّحْصيل، فكن حِلْفَ عَمَلٍ لا حِلْفَ بطالةٍ وبَطَرٍ، وحِلْسَ مَعْمَلٍ لا حِلْسَ تَلَهٍ وسَمَرٍ، فالحفظُ على الوقت، بالجدِّ والاجتهاد، ومُلازمةِ الطلب، ومُثافنَةِ الأشياخ، والاشتغالِ بالعلم قراءةً وإقراءً، ومُطالعةً وتدبُّرًا وحِفظًا وبَحْثًا، لاسيَّما في أوقاتِ شَرْخِ الشباب، ومُقْتَبَلِ العُمُر، ومعدنِ العافية، فاغتنم هذه الفُرصةَ الغاليةَ، لتنالَ رُتَبَ العلمِ العاليةِ، فإنها «وقتُ جمعِ القلبِ، واجتماعِ الفِكْرِ»، لقلَّةِ الشواغلِ والصوارفِ عن التزاماتِ الحياةِ والتَّرَؤُّسِ، ولخفَّةِ الظَّهْرِ والعيالِ:

(١) «التعالم»: (ص٣٦).

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «**تفقهوا قبل أن تسوّدوا**» وفي لفظ «تسودوا» لأن الإنسان إذا ساد كثرت المشاكل، وكثرت أفكاره وتفرقت وتمزقت عزائمه، فبينما يعزم على شيء إذا بحاجة نزلت به أشد إلحاحًا مما عزم عليه ... فيتفرق. ولذلك اجتهد مادمت في زمن الإمهال وانتبح، واعمل، وابحث، واجعل بطون الكتب هي مرئياتك حتى تعتاد على هذا، واعلم أنك إذا اعتدت على هذا ـ يعني على الجد والاجتهاد ـ صار طبيعة لك بحيث لو أنك إذا كسلت يومًا من الأيام في الرحلة فإنك تستنكر هذا وتجد الفراغ.

وليكن بحثك مُركزًا، بحيث لا تقطف من كل زهرة جزءًا، اجعل بحثك مُركزًا الأهم فالأهم، حتى يكون لك ملكة تستطيع أن تخرج المسائل على القواعد والفروع على الأصول.

ما للمُعيلِ وللعَوالي إنَّما * يَسْعى إليهنَّ الفَريدُ الفَارِدُ**

المعيل: كثير العيال. **والعوالي:** جمع عالية ـ يعني المنازل العالية فإذا كثرت العيال وكثرت المشاغل أَلْهَتكَ لأن الإنسان بشر، والطاقة محدودة، فما دمت متفرغًا فلتكن متفردًا. ولا تظن أن المؤلف يريد بهذا إلاَّ تطلب العيال والنكاح، بل إن النكاح قد يكون من أسباب الراحة إذا وُفق الإنسان فيه ويُسرت له امرأة صالحة.

وإيَّاكَ وتأميرَ التسويفِ على نَفْسِك، فلا تُسَوِّف لنفسك بعد الفراغ من كذا، وبعد (التقاعُد) من العمل هذا ... وهكذا، بل البِدارَ قبل أن يَصْدُقَ عليك قولُ أبي الطَّحَّانِ القَيْني:

حَنَتْني حانياتُ الدَّهرِ حتَّى * كأنِّي خاتِلٌ أدْنو لِصَيْدِ**

قَصيرُ الخَطْوِ يَحْسَبُ مَنْ رآني * ولستُ مُقَيَّدًا أنِّي بِقَيْدِ**

خاتل أدنو لصيد: الرجل يكسر ظهره كأنه راكب يمشي ببطء على الأرض يخشى أن الطير يحسُّ به فيطير.

«ولست مقيداً أني بقيد» وهذا صحيح، لأن الله عزَّ وجلَّ قال في كتابه ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (سورة الروم: ٥٤).

والإنسان في حالة شبابه يظن أنه لن يتعب ولن يسأم ولن يمل، لكن إذا كبر فكما قال عن زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم: ٤). لابد أن يتعب، لابد أن يملَّ، فكون الإنسان ينتهز الفرصة هذا أمرٌ لابد منه.

وقال أُسامة بن مُنقذ:

مَعَ الثَّمانينَ عاثَ الضَّعْفُ في جَسَدي * وَساءَني ضَعْفُ رِجْلي واضْطِرابُ يَدي**

إذا كَتَبْتُ فَخَطِّي خَطُّ مُضْطَرِبِ * كَخَطِّ مُرْتَعِشِ الكَفَّيْنِ مُرْتَعِدِ**

فَاعْجَبْ لِضَعْفِ يَدي عن حَمْلِها قَلَمًا * مِن بَعْدِ حَمْلِ القَنَا في لَبَّةِ الأَسَدِ**

فَقُلْ لِمَن يَتَمَنَّى طُولَ مُدَّتِهِ * هذي عَواقِبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ**

فإنْ أَعْمَلْتَ البِدارَ، فهذا شاهدٌ منك على أنَّك تحملُ «كِبَرَ الهِمَّةِ في العِلْمِ».

هذه كلها أبيات تدل على الحكمة، أن الإنسان مآله إلى هذا. يقول: «مع الثمانين عاث الضعف في جسدي» أي: انتشر وشاع.

لكن المؤمن ـ والحمد لله ـ مادام عقله باقياً وقلبه ثابتاً، فإن بلغ هذا المبلغ من العجز البدني، فالقلب حاضر يستطيع أن يشغل وقته بذكر الله عزَّ وجلَّ والتفكير في آياته، لأن هذا لا عجز عن مراده إلا الغفلة، والغفلة شيء مشكل.

على كل حال فالمؤلف ـ وفقه الله ـ يدعونا إلى انتهاز الفرصة وألا نضيع الأوقات واعلم أنك إذا اعتدت على تضييع الوقت، عجزت بعد ذلك عن الحرص عليه وعن الانتفاع به، لأنك تكون قد اعتدت على الكسل. فإن قال قائل: أليس لنفسك عليك حقًا؟

فالجواب: بلى، إن لنفسك عليك حقًا، ونحن لا نقول إذا تعبت أو مللت استمر. نقول: لا استرح، حتى إن الإنسان الذي يصلي إذا أتاه النعاس مأمور أن يدع الصلاة وينام.

لكن مادمت نشيطًا فاحرص، لأن هناك فرقًا بين العجز والكسل. الكسل ضعف في الإرادة، والعجز ضعف في البدن، وضعف البدن لاحيلة فيه. لكن الإرادة هي التي يستطيع الإنسان يعود نفسه على الهمة العالية كي يستغل.

٣٦ ـ إجْمامُ النَّفْس:

خُذْ من وقتِك سُوَيعاتٍ تُجِمُّ بها نفسَك في رياضِ العلمِ من كُتُبِ المحاضراتِ (الثقافة العامَّة)، فإنَّ القلوبَ يُرَوَّحُ عنها ساعةً فساعةً. وفي المأثورِ عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أَجِمُّوا هذه القلوب، وابْتَغُوا لها طرائفَ الحكمة، فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ»[١].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله تعالى ـ في حكمة النهي عن التطوُّع في مُطْلَقِ الأوقات[٢]: «بَلْ في النَّهْيِ عنه بعضَ الأوقاتِ مصالحُ أُخَرُ من إجمامِ النُّفوسِ بعضَ الأوقاتِ، من ثِقَلِ العبادةِ، كما يُجَمُّ بالنومِ وغيرِه، ولهذا قال مُعاذ: إني لأحتسِبُ نَوْمَتي، كما أحتسِبُ قَوْمَتي ...».

(١) «جامع بيان العلم وفضله».
(٢) «مجموع الفتاوى»: (٢٣/١٨٧).

وقال[١]: «بل قد قيل: إنَّ مِن جُملة حكمةِ النَّهي عن التطوعِ المُطْلَق في بعض الأوقاتِ: إجمامَ النُّفوسِ في وقت النهي لِتنشَطَ للصلاة، فإنَّها تنبسطُ إلى ما كانت ممنوعةً منه، وتنشطُ للصلاةِ بعد الراحةِ، والله أعلم» أهـ.

وهنا يجب أن نعلم أن إجمام النفس وإعطاءها شيئًا من الراحة حتى تنشط في المستقبل وحتى تستريح بعض الراحة مما سبق أن هذا من الأمور الشرعية التي دل عليها قول النبي ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا ولربك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا ولزوجك عليك حقًا فاعط كل ذي حق حقه»[٢]. وهذا الحديث هو الميزان الحقيقي الذي تطمئن إليه النفس لا المروي عن عمر ولا عن علي ولا عن غيره، فلو أن المؤلف استدل بهذا الحديث لكان أبين وأظهر، والنفس إذا جعلتها دائمًا في جد لابد أن تمل وتسأم، وأما ما قيل أن من جملة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات. فهذا من جملة الحكمة، وليس هو الحكمة، بل الحكمة الطبيعية هو ما ذكره النبي ﷺ: «إن الشمس إذا طلعت فإنها تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار وكذلك إذا غربت يسجدون لها»[٣]. فهم يسجدون لها استقبالاً، ويسجدون لها وداعًا.

أما وقت الزوال فإن الحكمة فيه: أنه الوقت التي تسجر فيه جهنم فيلحق النفس من التعب ومن الحر لاسيما في أيام الصيف ما ينهي أن يصلي الإنسان فيه. وليس هذا القيل الذي قيل معارض للحديث ولكنه من جملة الحكمة، والله أعلم.

(١) «مجموع الفتاوى»: (٢٣/ ٢١٧).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٩).
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٣) في كتاب مواقيت الصلاة/ باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس.

ولهذا كانت العُطَلُ الأُسبوعيةُ للطُّلَّابِ منتشرةً منذ أَمَدٍ بعيد، وكان الأغلبُ فيها، يومَ الجُمُعةِ، وعصرَ الخميس، وعند بعضهم يومُ الثلاثاء، ويومُ الاثنين، وفي عيدي الفِطْرِ والأضحى من يوم إلى ثلاثةِ أيام وهكذا ..

صحيح ... العطل الأسبوعية منتشرة من زمان، لكن بعضهم يقتصر على الجمعة فقط، وبعضهم يضيف إلى الجمعة يوم الخميس، وبعضهم يجعل الجمعة ونصف الأسبوع، وكان شيخنا - رحمه الله - السعدي يفعل هذا، تكون العطلة يوم الجمعة، ويوم الثلاثاء الذي هو وسط الأسبوع لأجل لا يتوالى يومان كلاهما عطلة، وكي لا يمل الإنسان، وهذا يرجع على كل حال إلى أحوال الناس والأحوال تختلف، فيجعل من العطل ما يناسب.

ونجدُ ذلك في كُتُب آداب التعليم، وفي السِّيَر، ومنه على سبيل المثال: «آداب المُعَلِّمين» لِسُحنون: (ص١٠٤)، و«الرسالة المفصَّلة» للقابسي: (ص١٣٥-١٣٧)، و«الشقائق النُّعمانية»: (ص٢٠)، وعنه في: «أبجد العلوم»: (١/ ١٩٥-١٩٦)، وكتاب «أليس الصبحُ بقريب» للطاهر بن عاشور، و«فتاوى رشيد رضا»: (١٢١٢)، و«معجم البلدان»: (٣/ ١٠٢)، و«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميَّة»: (٢٥/ ٣١٨-٣٢٠، ٣٢٩).

٣٧ - قراءةُ التَّصْحيح والضَّبْط:

احْرِصْ على قراءةِ التصحيحِ والضبطِ على شيخٍ مُتْقِن، لتأمَنَ من التحريفِ والتصحيفِ والغَلَطِ والوَهَم. وإذا استقرأتَ تراجمَ العلماء - وبخاصَّةِ الحُفَّاظَ منهم - تجد عددًا غيرَ قليلٍ ممَّن جَرَدَ المُطوَّلاتِ في مجالس أو أيام قراءةَ ضبطٍ على شيخٍ متقن.

هذه الفقرة من أهم الفقرات، وهو إتقان العلم وضبطه ومحاولة الرسوخ في القلب، لأن ذلك هو العلم، ولابد أن يكون على شيخ متقن أما الشيخ المتمشيخ فإياك إياك فقد يضرك ضرراً كثيراً والإتقان يكون في كل فن بحسبه، قد تجد رجلاً متقنًا في علم الفرائض مثلاً غير متقن في أحكام الصلاة، وتجد رجلاً متقنًا لعلوم العربية غير عارف بالعلوم الشرعية وآخر بالعكس، فخذ من كل عالم ما يكون متقنًا فيه ما لم يتضمن ذلك ضرراً، مثل أن نجد رجلاً متقنًا في علوم العربية، لكنه منحرف في عقيدته وسلوكه فهذا لا ينبغي أن نجلس إليه لأننا إذا جلسنا إليه اغْتَرَّ به الآخرون وظنوا أنه على حق، فنحن نطلب العلم على غيره وإن كان أجود الناس في هذا الفن، لكن ما دام منحرفًا فلا ينبغي أن نجلس إليه.

فهذا الحافظُ ابنُ حَجَر- رحمه الله تعالى - قرأ «صحيحَ البُخاري» في عشرة مجالس، كلُّ مجلسٍ عشرُ ساعات، و«صحيح مسلم» في أربعةِ مجالسَ في نحو يومينِ وشَيءٍ من بُكرةِ النهارِ إلى الظهر.

كم عدد الساعات؟ ! ١٠٠ ساعة .. الله المستعان، ولكن على كل حال هو قراءة فقط دون الشرح والتأمل.

وانتهى ذلك في يَوْمِ عَرَفَة، وكان يومَ الجمعة سنة ٨١٣هـ، وقرأ «سُنَن ابن ماجة» في أربعة مجالسَ، و«معجم الطَّبراني الصغير» في مجلس واحد، بين صلاتي الظهر والعصر. وشيخُه الفَيْرُوز آبادي قرأ في دمَشْق «صحيح مسلم» على شيخه ابن جَهْبَل قراءةَ ضَبْطٍ في ثلاثة أيام. وللخطيبِ البَغْدادي والمؤتَمن السَّاجي، وابن الأبار وغيرهم في ذلك عجائبُ وغرائبُ يطول ذكرها، وانظرْها في: «السِّيَر» للذهَبي: (١٨/٢٧٧، ٢٧٩)، و(١٩/٣١٠)، و(٢١/٢٥٣)، و«طَبَقات الشافعية» للسُّبْكي: (٤/٣٠)، و«الجواهر والدُّرر» للسَّخاوي: (١/١٠٣-

١٠٥)، و«فتح المُغيث»: (٢/٤٦)، و«شَذَرات الذَّهَب»: (٨/١٢١، و٢٠٦)، و«خُلاصة الأثَر»: (١/٧٢-٧٣)، و«فِهْرِس الفهارس» للكتَّاني، و«تاج العروس»: (١/٤٥-٤٦).
فلا تَنسَ حَظَّكَ هذا.

الظاهر ما لنا حَظٌّ أبدًا . . . والله المستعان.

٣٨- جَرْدُ المُطَوَّلات:

الجَرْدُ للمُطَوَّلات من أهمِّ المُهِمَّات، لِتَعَدُّدِ المعارفِ، وتوسيعِ المدارك، واستخراجِ مكنونها من الفوائدِ والفَرائد، والخِبْرَةِ في مظانِّ الأبحاث والمسائلِ، ومعرفةِ طرائقِ المُصَنِّفينَ في تآليفهم واصطلاحِهم فيها. وقد كان السَّالِفون يَكْتُبون عند وقوفِهم: «بَلَغَ»، حتى لا يفوتَه شيءٌ عند المُعاوَدَة، لاسيَّما مع طُولِ الزَّمَن.

هذه فيها نظر - يعني الجرد في المطولات - قد يكون فيه مصلحة للطالب وقد يكون فيه مضرة، فإذا كان الطالب مبتدئ، فإن جرد المطولات له هلكة، كرجل لا يحسن السباحة يرمي نفسه في البحر.

فإذا كان عند الإنسان علم، ولكنه أراد أن يصل إلى هذه المطولات من أجل أن يكسب فوق علمه الذي عنده، فهذا قد يكون حسن.

فهذه الفقرة تحتاج إلى تفصيل. لو أن رجلاً بدأ بالعلم من الآن ونقول له راجع المغني وراجع المجموع شرح المهذب وراجع الحاوي الكبير .. راجع كذا وأعددت له الكتب الموسعة. هذا معناه أنك أهلكته ورميته في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج. أما الإنسان الذي أعطاه الله العلم وأراد أن يتبحر ويتوسع فهنا نقول: عليك بالمطولات، وقد ذكر لي بعض الإخوة أن الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بُطين لم يتجاوز «الروض المربع» في مراجعته للفقه، ومع ذلك كان يطلق عليه مفتي الديار

النجدية وله حواشي على الروض المربع وهو لم يتجاوزه، لكنه يكرره ويتأمله منطوقًا ومفهومًا إيماءً وإشارة.

أما كتابة «بَلَغَ» فهذا طيب إنك إذا راجعت كتابًا فاكتب عند المنتهى «بلغ» لتستفيد فائدتين:

الأولى - ألا تنس ما قرأت، لأن الإنسان قد ينسى فلا يدري أبلغ هذه الصفحة أم لا؟ وربما يفوته بعض الصفحات إذا ظن أنه قد تقدم في المطالعة.

الثانية - أن يعلم الآتي بعدك أنك قد أحصيته وأكملته فيثق به أكثر.

٣٩ - حُسْنُ السُّؤال:

الْتَزِمْ أدبَ المُباحَثَةِ من حُسْنِ السؤالِ، فالاستِماعِ، فصحَّةِ الفهمِ للجوابِ، وإيَّاك إذا حَصَلَ الجوابُ أن تقولَ: لكنَّ الشيخَ فلانًا قال لي كذا، أو قال كذا، فإنَّ هذا وَهْنٌ في الأدَبِ، وضَرْبٌ لأهلِ العلمِ بعضِهم ببعضٍ، فاحْذَرْ هذا. وإن كُنتَ لابُدَّ فاعلاً، فكُن واضِحًا في السؤالِ، وقل: ما رأيُك في الفتوى بكذا، ولا تُسَمِّ أحدًا.

من آداب طالب العلم:

أولاً - أن يكون عنده حسن سؤال، حسن إلقاء مثل أن يقول: أحسن الله إليك ما تقول في كذا، وإنْ لم يقل هذه العبارة فليكن قوله رقيقًا بأدب.

الثاني - حسن الاستماع، أما أن تقول: يا شيخ أحسن الله إليك ماذا تقول في كذا وكذا ... وانتظر.

الثالث - صحة الفهم للجواب ... وهذا أيضًا يفوت بعض الطلبة، تجده إذا سأل وأُجيب. يستحيي أن يقول ما فهمت.

بعد هذا يأتي بعض الناس بعدما يستمع للجواب يقول: لكن قال الشيخ الفلاني كذا وكذا ... في وسط الحلقة. هذا من سوء الأدب، معنى هذا إنك لم تقتنع بجوابه، ومعنى هذا إثارة البلبلة بين العلماء.

وإن كان لابد فيقول: قال قائل ... ثم يورد ما قاله الشيخ فلان لأن أحدًا لا يفهم إذا قال إن قال قائل أنه أراد بذلك جواب شيخ آخر. لهذا يقول: «**لكن إن كنت لابد فاعلاً فقل ما رأيك في الفتوى بكذا**» وهذا أيضًا ما هو بحسن.

أحسن منه أن تقول(فإن قال قائل)، لأنك إذا قلت: ما رأيك في الفتوى بكذا - وهي خلاف ما أفتاك به - فيعني إنك تريد أن تعارض فتواه بفتوى آخر، لكن هي أحسن من قولك: قال الشيخ الفلاني كذا.

قال ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى[1]: «وقيل: إذا جَلَسْتَ إلى عالم، فَسَلْ تَفَقُّهًا لا تَعَنُّتًا» أهـ.

وقال أيضًا: «وللعلم ستُّ مراتبَ:

أولها - حُسْنُ السؤالِ. الثانية - حُسْنُ الإنصاتِ والاستماعِ.

الثالثة - حُسْنُ الفهمِ. الرابعة - الحِفْظُ.

الخامسة - التعليمُ. السادسة - وهي ثمرتُه، العمل به ومراعاة حدوده» أهـ. ثم أخذ في بيانها ببحث مهم.

ترتيبها على هذا الوجه لاشك أنه مناسب.

حسن السؤال: إذا دعت الحاجة إلى حسن السؤال أما إذا لم تَدْعُ إلى السؤال فلا تلق السؤال، لأنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل إلا إذا احتاج هو إلى السؤال، أو أظن

(١) «مفتاح دار السعادة»: (ص١٨٤).

أن غيره يحتاج إلى السؤال قد يكون مثلاً هو فاهم الدرس ولكن فيه مسائل صعبة يحتاج إلى بيانها إلى بقية الطلبة، بل من أجل حاجة غيره.

والسائل من أجل حاجة غيره كالمعلم، لأن النبي ﷺ لما جاءه جبريل وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها. قال «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[١].

فإذا كان الباعث على السؤال حاجة السائل. فسؤاله واضح أنه وجيه أو حاجة غيره إن سُئل ليعلم غيره فهذا أيضًا طيب، أما إذا سأل ليقول الناس: ما شاء الله فلان عنده حرص على العلم كثير السؤال، وابن عباس رضي الله عنهما يقول: لما سُئل بما أدركت العلم؟ قال: «بلسان سؤول وقلب عقول وبدن غير ملول»، فهذا غلط، وعلى عكس من ذلك من يقول: لا أسأل حياءً. فالثاني مُفرِّط.

والأول - مُفرِط، وخير الأمور الوسط.

الثاني - حسن الاتصال. الإنصات والاستماع

الثالث - حسن الفهم.

الرابع - الحفظ، وهذا الحفظ ينقسم إلى قسمين: قسم غريزي يهبه الله لمن يشاء، فتجد الإنسان يمر عليه المسألة والبحث فيحفظه ولا ينساه، وقسم آخر كسبي. بمعنى أن يمرن الإنسان نفسه على الحفظ ويتذكر ما حفظ، فإذا عوَّد نفسه تذكر ما حفظ، سهل عليه الحفظ.

الخامسة - التعليم، والذي أرى أن تكون هي السادسة وأن العمل بالعلم قبل السادسة، فيعمل بالعلم ليصلح نفسه قبل أن يبدأ بإصلاح غيره ثم بعد ذلك يعلم الناس. قال النبي ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[٢]. فالعمل به قبل تعليمه. بل قد

(١) أخرجه مسلم (١) في الإيمان.
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠) والبيهقي (٤/ ١٨٢).

تقول أن تعليمه من العمل به، لأن من جملة العمل بالعلم أن تفعل ما أوجب الله عليك فيه من بثه ونشره.

٤٠ - المناظرةُ بلا مُماراةٍ[١].

إيَّاك والمماراةَ، فإنها نِقْمَةٌ، أمَّا المُناظرةُ في الحقِّ، فإنها نِعْمَةٌ، إذ المناظرةُ الحقَّةُ فيها إظهارُ الحقِّ على الباطل، والراجح على المرجوح، فهي مَبْنِيَّةٌ على المُناصَحةِ، والحِلمِ، ونَشْرِ العِلْم، أمَّا المماراةُ في المحاوراتِ والمناظراتِ، فإنَّها تَحَجُّجٌ ورياءٌ، ولَغَطٌ وكبرياءُ، ومُغالبةٌ ومِراءٌ، واخْتِيالٌ وشَحْناءُ، ومُجاراةٌ للسُّفهاءِ، فاحْذَرْها واحْذَرْ فاعِلَها، تَسْلَم من المآثمِ وهَتْكِ المحارمِ، وأعْرِضْ تَسْلَم وتَكْبُتُ المأثمَ والمَغْرَم.

المناظرة والمناقشة تشحذ الفهم وتعطي الإنسان قدرة على المجادلة. والمجادلة في الحق مأمور بها كما قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥).

فإذا تمرن الإنسان على المناظرة والمجادلة حصل على خير كثير، وكم من إنسان جادل بالباطل فغلب صاحب الحق لعدم قدرته على المجادلة. لكن المجادلة نوعان: مجادلة المماراة، يماري بذلك السفهاء ويجادل الفقهاء ويريد أن ينتصر قوله، فهذه مذمومة.

والثاني لإثبات الحق وإن كان عليه، فهذه محمودة مأمور بها. وعلامة ذلك - المجادلة الحقة - أن الإنسان إذا بلغه الحق اقتنع وأعلن الرجوع، أما المجادل الذي يريد الانتصار لنفسه فتجده لو بان الحق، وكان ظاهر الحق مع خصمه يورد إيرادات: لو

(١) وانظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: (٢٤/ ١٧٢-١٧٤).

قال قائل. ثم إذا أُجيب. ولو قال قائل. ثم إذا أجيب، قال ولو قال قائل. ثم تكون سلسلة لا منتهى لها، ومثل هذا عليه خطر أن لا يقبل قلبه الحق، لا بالنسبة للمجادلة مع الآخر، لكن حتى في خلوته، ربما يورد الشيطان عليه هذه الإيرادات. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١١٠). وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ (سورة المائدة: ٤٩).

فعليك يا أخي ابتغاء الحق سواء كان بمجادلة غيرك أو بمجادلة نفسك متى تبين قل: سمعنا وأطعنا. لهذا تجد الصحابة يقبلون ما حكم به النبي ﷺ وما أخبر به دون أن يوردوا عليه الاعتراضات أو قول: أرأيت ... أرأيت.

ولهذا جادل رجل عبد الله بن عمر فقال له: أرأيت؟! قال له: «**اجعل أرأيت في اليمن**». لأنه من أهل اليمن.

عندما سأل أهل العراق عن دم البعوضة. وهل يجوز قتل البعوضة؟! قال: سبحان الله !! أهل العراق يقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ ويأتون يسألون عن دم البعوضة!! هذه مجادلة ولاشك.

٤١ ـ مُذاكَرَةُ العِلْمِ:

تمتَّع مع البُصَراء بالمُذاكَرةِ والمُطارَحةِ، فإنَّها في مواطنَ تفوقُ المُطالَعةَ، وتشحذُ الذِّهْنَ، وتُقوّي الذاكرةَ، مُلتزمًا الإنصافَ والمُلاطفةَ، مُبْتَعِدًا عن الحَيْفِ والشَّغَبِ والمجازفةِ. وكُنْ على حَذَرٍ، فإنَّها تكشف عُوارَ مَنْ لا يَصْدُقُ. فإن كانت مع قاصرٍ في العلمِ، باردِ الذهنِ، فهي داءٌ ومُنافرةٌ، وأمّا مذاكرتُكَ مع نفسك في تقليبكَ لمسائلِ العلمِ، فهذا ما لا يسوغُ أن تنفكَّ عنه. وقد قيل: إحياءُ العلمِ مُذاكرتُه.

وهذا أيضًا الذي ينبغي لطالب العلم أن يقوم به، وهو المذاكرة. والمذاكرة نوعان: مذاكرة مع النفس. ومذاكرة مع الغير.

المذاكرة مع النفس: تجلس مكانك جلسة واحدة، ثم تقلب مسألة من المسائل أو تظنها مثلاً مرت عليك، ثم تأخذ في محاولة ترجيح ما قيل في هذه المسألة بعضها على بعض. يعني ترجيح بعض الأقوال بعضها على بعض في هذه المسألة.

أما المذاكرة مع الغير: فهي أيضًا واضحة يختار الإنسان مع إخوانه من الطلبة ـ من يكون معه ـ يعينه على طلب العلم، مفيدًا له فيجلس معه ويتذاكرا، يقرأ مثلاً ما حفظاه كل واحد يقرأ على الآخر قليلاً أو يتذاكرا مسألة من المسائل بالمراجعة أو بالمفاهمة إن قدرا على ذلك، فإنه مما ينمي العلم ويزيده.

ولكن إياك والشغب والصلت، لأن هذا لا يفيد. أنت الآن تحاجُّ في مقام الإقناع. واعلم أنه لن يقتنع كلما اشتد غضبك عليه، بل ربما إذا اشتد غضبك عليه، اشتد غضبه عليك ثم ضاع الحق بينكما، لكن بالهدوء.

أما لو علمت منه الإعنات، مثل أن تكون أنت أعلم منه وتفهم من العلم ما لا يفهم، ولكن عرفت أن هذا الرجل يريد العنت. فحينئذ لك أن تشتد عليه وأن تقول لن أفهمك لقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (سورة المائدة: ٤٢). ولهذا قال المؤلف: «**فإن كانت مع قاصر في العلم بارد الذهن فهي داء ومنافرة**».

٤٢ ـ طالبُ العلمِ يعيشُ بين الكِتابِ والسُّنَّة وعلومِها:

فهما له كالجناحَيْنِ للطائرِ، فاحْذَرْ أن تكونَ مَهيضَ الجناحِ.

هذا أيضًا من آداب طالب العلم. طالب العلم يعيش بين الكتاب والسنة، كالطائر لا يطير إلا بجناحين إذا انكسر أحدهما لم يطر، إذًا لا تراعي السنة وتغفل عن القرآن، أو القرآن وتغفل عن السنة، كثير من طلبة العلم يعتني بالسنة وشروحها

ورجالها، ومصطلحها إعتناءً كاملاً، ولكن لو سألته عن آية من كتاب الله. ما قدم الإجابة، ولا عرف شيئًا.

هذا غلط، لكن لابد أن يكون القرآن والسنة جناحين لك، والجناح الأصل هو القرآن.

وثم أيضًا شيء ثالث ـ لكن هو داخل في قول المؤلف وعلومها: كلام العلماء، لا تهمل كلام العلماء ولا تغفل عنهم، لأن العلماء أشد منك رسوخًا في العلم، وعندهم من قواعد الشريعة وضوابط الشريعة ما ليس عندك فلا تغفل عنهم.

ولذلك كان العلماء الأجلاء المحققون إذا ترجح عندهم قول يقولون: «**إن كان أحد قال به وإلا فلا نقول به**».

شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على سعة علمه وإطلاعه، إذا قال قولاً لا يعلم له قائلاً. قال: «**أنا أقول به إن كان قد قيل به**». ولا يأخذ برأيه، يقول: خلاص أنا فهمت من القرآن كذا ولا عليَّ من الناس.

هذا غلط. أنت إذا رأيت أكثر العلماء على قول، فلا تعدل على أكثر العلماء إلا بعد التمحيص والتحقيق، لأنه من المستبعد أن يكون الأقل هم أهل العلم.

٤٣ ـ استكمال أدوات كل فن:

لن تكونَ طالبَ علم مُتْقِنًا مُتَفَنِّنًا ـ حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ ـ ما لم تستكمِلْ أدواتِ ذلك الفَنِّ، ففي الفقهِ بين الفقهِ وأُصولِه، وفي الحديث بين علْمَي الروايةِ والدراية ... وهكذا، وإلاَّ فلا تَتَعَنَّ. قال الله تعالى: ﴿الَّذِين آتَيْنَاهُم الْكِتَاب يَتْلُونَه حَقَّ تِلاوَتِه﴾ (سورة البقرة: ١٢١). **فَيُستفاد منها أنَّ الطالبَ لا يتركُ علمًا حتى يُتْقِنَه**[(١)].

استكمال أدوات كل فن. يريد بذلك: أنك إذا أردت أن تكون طالب علم في فن معين، وهو ما يعرف عندنا بالتخصص، فلابد أن تكون مستكملاً أدوات ذلك الفن، يعني عندك علمًا به، فمثلاً في الفقه إذا كنت تريد أن تكون عالمًا بالفقه، فلابد أن تقرأ الفقه وأصول الفقه لتكون مُتَبَحِّرًا فيه، وإلا فيمكن أن تعرف الفقه بدون علم الأصول، ولكن لا يمكن أن تعرف أصول الفقه بدون الفقه.

يعني: يمكن أن يستغني الفقيه عن أصول الفقه، لكن لا يمكن أن يستغني الأصولي عن الفقه، إذا كان يريد الفقه.

ولهذا اختلف العلماء، علماء الأصول: هل الأولى لطالب العلم أن يبدأ بأصول الفقه لإبتناء الفقه عليه أو بالفقه لدعاء الحاجة إليه، حيث أن الإنسان يحتاجه في عمله، حاجاته، ومعاملاته قبل أن يفطن إلى أصول الفقه.

والثاني ـ هو الأَوْلى وهو المتبع غالبًا. وهنا استدل بقول الله تعالى: ﴿الَّذِين آتَيْنَاهُم الْكِتَاب يَتْلُونَه حَقَّ تِلاوَتِه﴾ (سورة البقرة: ١٢١). والمراد بالتلاوة هنا: التلاوة اللفظية، والتلاوة المعنوية، والتلاوة العملية، مأخوذة من تلاه إذا اتبعه، فالذين آتاهم الكتاب لا يمكن أن يوصفوا بأنهم أهل الكتاب حتى يتلوه حق تلاوته.

قوله: «**وفي الحديث بين علمي الرواية والدراية**» يعني بذلك الرواية في أسانيد الحديث ورجال الحديث. والدراية في فهم معناه.

---

(١) «شرح الإحياء»: (١/ ٣٣٤).

الفصل السادس

التحلي بالعمل

٤٤ ـ مِنْ علاماتِ العلم النَّافع:

تساءَلْ مَعَ نَفْسِكَ عن حَظِّكَ من علاماتِ العلمِ النافعِ، وهي:

١ ـ العملُ به.

٢ ـ كراهيةُ التزكيةِ، والمدحِ، والتكبُّرِ على الخَلْقِ.

٣ ـ تكاثُرُ تواضُعِكَ كلَّما ازددتَ علماً.

٤ ـ الهَرَبُ من حُبِّ الترؤُسِ والشهرةِ والدُّنيا.

٥ ـ هَجْرُ دعوى العِلْمِ.

٦ ـ إساءةُ الظَّنِّ بالنفسِ، وإحسانُهُ بالناسِ، تنزُّهًا عن الوقوعِ بهم.

هذه من علامات العلم النافع:

أولاً ـ العمل به: وهذا بعد الإيمان، أن تؤمن بما علمت ثم تعمل إذ لا يمكن العمل إلا بإيمان، فإن لم يوفق الإنسان لذلك، بأن كان يعلم الأشياء ولكن لا يعمل بها فعلمه غير نافع، لكن هل هو ضار أم لا نافع ولا ضار؟ هو ضار .. لأن النبي ﷺ قال: «القرآن حجة لك أو عليك»[1] ولم يقل: لا لك ولا عليك فالعلم إما نافع أو ضار.

ثانيًا ـ كراهية التزكية، والمدح، والتكبر على الخلق: وهذه ابتلي به بعض الناس، فيزكي نفسه ويرى أن ما قاله هو الصواب وأن غيره إذا خالفه فهو مخطأ وما أشبه

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٤٣) وابن ماجة (٢٨٠). ومسلم (٢٢٣).

ذلك، كذلك يحب المدح. تجده يسأل ماذا قالوا لما تحدثوا عنه؟ وإذا قالوا: إنهم مدحوك، انتفخ وزاد انتفاخه حتى يعجز جلده عن تحمل بدنه، كذلك التكبر على الخلق، بعض الناس - والعياذ بالله - إذا آتاه الله علمًا تكبَّر. الغني بالمال ربما يتكبر، ولهذا جعل النبي ﷺ: العائل المستكبر من الذين لا يكلمهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

لأنه ليس عنده مال يوجب الكبرياء، ولكن العالم لا ينبغي أن يكون كالغني كلما ازداد علمًا ازداد تكبرًا، بل ينبغي العكس كلما ازداد علمًا ازداد تواضعًا، لأن من العلوم التي يقرؤها أخلاق النبي ﷺ، وأخلاقه كلها تواضع للحق، وتواضع للخلق، لكن على كل حال إذا تعارض التواضع للخلق أو الحق. أيهما يقدم؟ التواضع للحق.

ثالثًا - تكاثر تواضعك كلما ازددت علمًا: وهذا في الحقيقة فرع من الثاني، يعني تتكبر على الخلق، وينبغي كلما ازددت علمًا تزداد تواضعًا.

رابعًا - الهرب من حب الترؤس والشهرة والدنيا: هذه أيضًا قد تكون متفرعة عن كراهية التزكية والمدح، يعني لا تحاول أن تكون رئيسًا لأجل علمك، لا تحاول أن تجعل علمك مطية إلى نيل الدنيا، فإن هذا يعني إنك جعلت الوسيلة غاية، والغاية وسيلة، ولكن هل معنى ذلك لو أنك كنت تجادل شخصًا لإثبات الحق هل ينبغي أن تجعل نفسك فوقه أو دونه؟ فوقه لأنك لو شعرت بأنك دونه ما استطعت أن تجادله، أمَّا لو أنك شعرت أنك فوقه من أجل أن الحق معك، فإنك حينئذ تستطيع أن تسيطر عليه.

خامسًا - هجر دعوى العلم: معناها: لا تدعي العلم. لا تقول أنا العالم.

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ❖❖❖ متى أضع العمامة تعرفوني

منذر أبو سعيد

منذر أبو سعيد

ومتى كان في المجلس تصدر المجلس، وإذا أراد أحد أن يتكلم يقول: اسكت أنا أعلم منك.

سادسًا - إساءة الظن بالنفس، وإحسانه بالناس، تنزهًا عن الوقوع بهم: أن يسيئ الظن بنفسه لأنها ربما تَغرُّه وتأمره بالسوء فلا يحسن الظن بالنفس، وكلما أملت عليه أخذ بها.

أما قوله: «إحسانه بالناس» فهذا يحتاج إلى تفصيل. الأصل إحسان الظن بالناس وإنك متى وجدت محملاً حسنًا للكلام غيرك فأحمله عليه ولا تسيء الظن، لكن إذا علم عن شخص من الناس أنه محل لإساءة الظن، فهنا لا حرج أن تسيئ الظن من أجل أن تحترس منه لأنك لو أحسنت الظن به لأفضت إليه كل ما في صدرك، ولكن ليس الأمر كذلك.

- وقد كان عبدُ الله بن المُبارَك إذا ذُكر أخلاقَ مَن سَلَف يُنشِد:

لا تَعرِضَنَّ بِذِكرِنا مَعَ ذِكرِهِم ❖❖❖ لَيسَ الصَّحيحُ إِذا مَشى كَالمُقعَدِ

٤٥ - زكاةُ العلم:

أدِّ (زكاةَ العلم): صادعًا بالحقِّ، أمَّارًا بالمعروف، نَهَّاءً عن المُنكر، مُوازنًا بين المصالح والمضارِّ، ناشرًا للعلم، وحُبِّ النفع، وبَذلِ الجاه، والشفاعة الحَسَنة للمسلمين في نوائبِ الحقِّ والمعروف.

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه أن النبي قال: «إذا مات الإنسانُ انقطَعَ عملُه، إلاَّ من ثلاث: صَدَقَة جارية، أو علم يُنتَفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له». رواه مسلم وغيره[1].

(١) مسلم رقم (١٤/ ١٦٣١) في الوصية/ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

منذر أبو سعيد

قال بعضُ أهلِ العلْمِ[1]: هذه الثلاثُ لا تجتمعُ إلاّ للْعَالمِ الباذلِ لعلمِه، فبذلُه صَدَقَةٌ، يَنتَفِعُ بها، والمُتَلَقِّي لها ابنٌ للعالم في تعلُّمِهِ عليه. فاحْرِصْ على هذه الحلْيَةِ، فهي رأسُ ثمرةِ علمِك. ولِشَرَفِ العلم، فإنَّه يزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ، ويَنقصُ مع الإشفاقِ، وآفتُهُ الكِتْمانُ. ولا تَحْمِلْك دعوى فسادِ الزمانِ، وغَلَبةِ الفُسَّاقِ، وضَعْفِ إفادةِ النَّصيحةِ عن واجبِ الأداءِ والبلاغِ، فإن فَعَلْتَ، فهي فَعْلَةٌ يسوقُ عليها الفُسَّاقُ الذهبَ الأحمرَ، ليَتِمَّ لهم الخروجُ على الفضيلةِ، ورفعُ لواءِ الرذيلةِ.

هذا زكاة العلم. تكون بأمور:

منها: نشر العلم. كما يتصدق الإنسان بشيء من ماله، فهذا العالم يتصدق بشيء من علمه، وصدقة العلم أبقى دوامًا وأقل كلفة ومؤنة.

أبقى دوامًا لأنه ربما كلمة من عالم تُسمع ينتفع بها فئام[2] من الناس ومازلنا الآن ننتفع بأحاديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولم ننتفع بدرهم واحد من الخلفاء الذين كانوا في عهده.

وكذلك العلماء تنتفع بكتبهم وعلومهم، فهذه زكاة. وهذه الزكاة لا تنقص العلم بل تزيده.

يزيدُ بكثـرةِ الإنفـاقِ منه * ويَنقُصُ إنْ بهِ كفًا شددتَ**

ومن زكاة العلم أيضًا: العمل به لأن العمل به دعوة إليه بلاشك، وكثير من الناس يتأسون بالعالم وبأعماله، أكثر مما يتأسون بأقواله وهذا بلاشك زكاة أيما زكاة، لأن الناس يشربون منها وينتفعون.

(1) «تذكرة السامع والمتكلم».
(2) جماعـة.

ومنها أيضًا: ما قاله المؤلف أن يكون صدّاعًا للحق. وهذا من جملة النشر، لكن النشر قد يكون في حال السلامة والأمن على النفس، وقد يكون في حالة الخطر، فيكون صدّاعًا بالحق.

ومنها: أي من تزكية العلم ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لاشك أنه من زكاة العلم، لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو عارف بالمعروف وعارف بالمنكر، ثم قائم بواجبه نحو هذه المعرفة.

والمعروف: كل ما أمر به الله ورسوله. والمنكر: كل ما نهى الله عنه ورسوله. موازنًا بين المصالح والمضار. لأنه قد يكون من الحكمة ألاّ تنهى حسب ما تقتضيه المصلحة، فالإنسان ينظر إلى المصالح والمضار.

وقوله: **«ناشراً للعلم وحب النفع»** يعني تنشر العلم بكل وسيلة للنشر من قول باللسان وكتابة بالبنان. وبكل طريق، وفي عصرنا هذا سخَّر الله لنا الطرق لنشر العلم، فعليك أن تنتهز هذه الفرصة من أجل أن تنشر العلم الذي أعطاك الله إياه، فإن الله تعالى أخذ على أهل العلم ميثاق أن يبينوه للناس ولا يكتموه، ثم ساق المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه والشاهد في قوله **«أو علم ينتفع به»**.

أما قوله: **«قال بعض أهل العلم .. فبذله صدقة ينتفع بها والمتلقي لها ابن للعالم في تعلمه عليه»**.

هذا قصور. والصواب خلاف ذلك. أن المراد بالصدقة الجارية، صدقة المال. وأما صدقة العلم فذكرها بعده بقوله **«أو علم ينتفع به أو ولد صالح»** المراد به الولد بالنسب، لا الولد بالتعليم.

فحمل الحديث على أن المراد بالعالم يُعَلِّم فيكون صدقة ويبقى علمه بعد موته ينتفع به ويكون طلابه أبناءً له، فهذا لاشك تقصير في تفسير الحديث.

والصواب: أن الحديث دلَّ على ثلاثة أجناس مما ينتفع به الإنسان بعد موته. الصدقة الجارية، والصدقة إما جارية وإما مؤقتة. فإذا أعطيت فقيرًا يشتري طعامًا فهذه صدقة لكنها مؤقتة، وإذا حفرت بئرًا ينتفع به المسلمون بالشرب، فهذه صدقة جارية.

والأَوْلى أن يقال «ولبركة العلم» فهذا أمثل، لكونه يزيد بكثرة الإنفاق. ووجه زيادته أن الإنسان إذا علَّم الناس مكث علمه في قلبه واستقر، وإذا غفل نسي.

ثانيًا ـ أنه إذا علَّم الناس فلا يخلو هذا التعليم من الفوائد الكثيرة، بمناقشة أو سؤال، فينمي علمه ويزداد، وكم من أستاذ تعلم من تلاميذه. قد يذكر التلميذ مسألة ما جرت على بال الأستاذ وينتفع بها الأستاذ فلهذا كان بذل العلم سببًا في كثرته وزيادته.

ثم لا تيأس ولا تقل: إن الناس غلب عليهم الفسق والمجون والغفلة، لا! أبذل النصيحة ما استطعت ولا تيأس لأنك إذا تقاعست واستحسرت فمن يفرح بذلك؟ الفُساق والفُجار. كما قيل:

خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

فلا تيأس، فكم من إنسان يأست من صلاحه، ففتح الله عليه وصلح.

٤٦ ـ عِزَّةُ العُلَماء:

التَّحلِّي بـ (عِزَّةِ العلماء): صيانةُ العلم وتعظيمُه، وحمايةُ جَنَابِ عِزِّهِ وشَرَفِهِ، وبِقَدْرِ ما تبذُلُه في هذا يكونُ الكَسْبُ منه ومن العَمَلِ به، وبِقَدْرِ ما تهدِرُه يكونُ الفَوْتُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله العزيزِ الحكيم.

وعليه، فاحذَرْ أن يَتَمَنْدَلَ بك الكُبَراءُ، أو يَمْتَطِيكَ السُّفَهاءُ، فتُلاين في فتوى أو قضاءٍ، أو بحثٍ، أو خطابٍ... ولا تَسْعَ به إلى أهل الدُّنيا، ولا تَقِفْ به على أعتابِهم، ولا تَبْذُلْه إلى غيرِ أهلِه وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ.

هذا فيه شيء صواب، وشيء فيه نظر، صيانة العلم وتعظيمه وحماية جنابه، لاشك أنه عزٌّ وشرف. فإن الإنسان إذا صان علمه عن الدناءة وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس، وعن بذل نفسه فهو أشرف له وأعزُّ، ولكن كون الإنسان لا يسعى به إلى أهل الدنيا ولا يقف على أعتابهم ولا يبلغه إلى غير أهله وإن عظم قدره فيه تفصيل.

فيقال إذا سعيت به إلى أهل الدنيا وكانوا ينتفعون بذلك فهذا خير، وهو داخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما إن كانوا يقفون من هذا العالم الذي دخل عليهم وأخذ يحدثهم، موقف الساخر المتململ، فهنا لا ينبغي أن يهدي العلم إلى هؤلاء، لأنه إهانة له وإهانة لعلمه. ولنفرض أن رجلاً دخل على أناس من هؤلاء النفر، وجلس، وجعل يتحدث إليهم بأمور شرعية، ولكنه يشاهدهم تتمعر وجوههم، ويتململون ويتغامزون، فهؤلاء لا ينبغي أن يحوم حولهم لأن هذا ذل له ولعلمه.

أما إذا دخل على هؤلاء وجلس وتحدث، ووجد وجوهًا تهش، وأفئدة تطمئن، ووجد منهم إقبالاً، فهاهنا يجب أن يفعل، ولكل مقام مقال.

لو كان دخل طالب علم صغير على هؤلاء المترفين، فلربما يقفون منه موقف الاستهزاء والسخرية، لكن لو دخل عليهم من له وزن عندهم وعند غيرهم لكان الأمر بالعكس، فلكل مقام مقال.

وَمَتِّع بَصَرَك وبصيرتك بقراءةِ التَّراجمِ والسِّيَرِ لأئمَّةٍ مضَوا، تَرَ فيها بَذْلَ النفسِ في سبيلِ هذه الحماية، لاسيَّما من جمعَ مُثُلاً في هذا، مِثْلَ كتاب «من أخلاق العلماء» لمحمد سُليمان - رحمه الله تعالى -[1]. وكتاب «الإسلام بين العُلَماء والحُكَّام» لعبد العزيز البَدْري - رحمه الله تعالى -. وكتاب «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السَّامَرَّائي[2].

وأرجو أن ترى أضعافَ ما ذكروه في كتاب «عِزَّةِ العُلَماء» يسَّر الله إتمامَه وطَبْعَه. وقد كان العُلَماء يُلَقِّنُون طلاَّبَهم حِفْظَ قصيدةِ الجُرجاني علي بن عبد العزيز (م سنة ٣٩٢ هـ) رحمه الله تعالى كما تَجِدُها عند عَدَدٍ من مُترجميه، ومطلعُها:

ومن أحسن ما رأيت في هذا كتاب «روضة العقلاء» للبستي، كتاب عظيم على اختصاره، فيه فوائد عظيمة ومآثر كريمة للعلماء المحدثين وغيرهم، وكان مقررًا في المعاهد أيام كنا ندرس في المعهد، مقررًا كتاب مطالعة للطلاب وانتفع به الكثير.

أما ما ذكره الشيخ بكر، بعضها اطلعنا عليه، وبعضها لم نطلع عليه، لكن بعضها مختصر جدًا، لا يستفيد الإنسان منه كثير فائدة. لكن سير أعلام النبلاء مفيد أيضًا فائدة كبيرة، فمراجعته عظيمة. أما كتاب «عزة العلماء» فهو من كتابات المؤلف، وهو يدعو الله تعالى أن ييسر إتمامه وطبعه.

(١) مطبوع مرارًا.
(٢) طبع بجدة عام ١٤٠٧ هـ، نشر دار الوفاء بجدة.

يَقُولون لي فيكَ انقِبَاضٌ وإنَّما * رَأَوا رَجُلاً عن مَوْضعِ الذُّلِّ أحْجَما**

أرى النَّاسَ مَنْ داناهمُ هانَ عِندَهم * ومَنْ أكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِما**

ولَوْ أنَّ أهْلَ العِلْمِ صَانُوه صَانَهم * ولو عَظَّموه في النُّفوسِ لَعَظَّما**

• (لَعَظَّما)، بفتح الظاء المعجمة المُشَالَة.

هذا الضبط فيه نظر، والظاهر: ولو عظموه في النفوس لَعُظِّما. يعني لكان عند الناس عظيمًا، لكنهم لم يعظموه في النفوس، بل أهانوه وبذلوه لكل غالٍ ورخيص. وهذه مرت عليَّ في البداية والنهاية لابن كثير في ترجمة الناظم الذي نظمها.

صِيانةُ العلم:

إن بَلَغْتَ مَنصِباً، فتذكَّر أنَّ حَبْلَ الوصلِ إليه طلبُك للعلم، فَبِفَضْلِ الله ثُمَّ بسببِ علمك بَلَغْتَ ما بَلَغْتَ من ولايةٍ في التعليم، أو الفُتيا، أو القضاء ... وهكذا، فأعْطِ العلمَ قَدْرَه وحظَّه من العمَل به وإنزاله منزلتَه. واحذَر مسلكَ من لا يَرْجون لله وَقاراً، الذين يَجْعلون الأساسَ (حِفْظَ المنصب)، فَيطْوون ألسنتَهم عن قولِ الحقِّ، ويحملُهم حُبُّ الولايةِ على المجاراة. فالزَمْ - رحمك الله - المُحافظةَ على قيمتِكَ بحفظِ دينك، وعلمك، وشَرَفِ نفسك، بحكمةٍ ودرايةٍ وحُسْنِ سياسة: «احْفَظِ الله يَحْفَظْك» «احفَظِ الله في الرَّخاءِ يَحْفَظْكَ في الشِّدَّةِ ...».

إذا أراد بهذا الحديث، فليس هذا لفظ الحديث، والجملة الثانية «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» هذا نص الحديث.

يريد بهذه الآداب: أن الإنسان يصون علمه، فلا يجعله مبتذلاً، بل يجعله محترمًا، معظمًا، فلا يلين في جانب من لا يريد الحق، بل يبقى طورًا شامخًا، ثابتًا، وأما أن يجعله الإنسان سبيلاً إلى المداهنة وإلى المشي فوق بساط الملوك وما أشبه ذلك، فهذا أمر لا ينبغي، ولم يكن الإنسان صائنًا لعلمه إذا سلك الإنسان هذا المسلك.

والواجب قول الحق، لكن قول الحق قد يكون في مكان دون مكان، والإنسان ينتهز الفرصة فلا يفوتها، ويحذر الذلة فلا يقع فيها.

قد يكون من المستحسن أن لا أتكلم في هذا المكان بشيء، وأن أتكلم في مكان آخر، لأني أعرف أن كلامي في الموضع الآخر أقرب إلى القبول والإستجابة. فلكل مقام مقال، ولهذا يقال: «**بحكمة ودراية وحسن سياسة**»، فلابد أن الإنسان يكون عنده علم ومعرفة وسياسة، بحيث يتكلم إذا كان للكلام محل، ويسكت إذا كان ليس للكلام محل.

وقوله: «**وفي الحديث «احفظ الله يحفظك»**» يعني: احفظ حدود الله كما قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة: ١١٢). فلا ينتهكونها بفعل محرم، ولا يضيعونها بترك واجب.

وقوله «**يحفظك**» يعني في دينك ودنياك وفي أهلك ومالك. فإن قال قائل: إننا نرى بعض الحافظين لحدود الله يصيبهم ما يصيبهم. فنقول: هذا زيادة في تكفير سيئاتهم ورفعة درجاتهم، ولا ينافي قوله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**» قوله «**يعرفك**» لا تظن أن الله تعالى لا يعرف الإنسان إذا لم يتعرف إليه، لكن هذه معرفة خاصة، فهي كالنظر الخاص المنفي عمن نُفيَ عنه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ (سورة آل عمران: ٧٧). مع أن الله لا يغيب عن نظره شيء، لكن النظر، نظران:

نظر خاص، ونظر عام. كذلك المعرفة: معرفة خاصة، ومعرفة عامة. والمراد هنا المعرفة الخاصة.

بقي أن يقال: إن المشهور عند أهل العلم أن الله تعالى لا يوصف بأنه عارف. يُقال: عالم، ولا يقال عارف.

وفرقوا بين العلم والمعرفة[1]. بأن المعرفة تكون للعلم اليقيني والظني وأنها - أي معرفة - انكشاف بعد خفاء. وأما العلم فليس كذلك.

فنقول ليس المراد بالمعرفة هنا ما أراده الفقهاء أو أراده الأصوليون إنما المراد بالمعرفة هنا: أن الله تعالى يزداد عناية لك ورحمة بك، مع علمه بأحوالك - عزَّ وجلَّ.

وإنْ أصْبَحْتَ عاطلاً من قلادةِ الولايةِ. وهذا سبيلُك ولو بَعْدَ حينٍ. فلا بَأسَ، فإنَّهُ عَزْلُ مَحْمَدةٍ لا عَزْلُ مذمةٍ ومنقصةٍ.

هذه قاعدة مهمة: وهي أن الإنسان إذا أصبح عاطلاً عن قلادة الولاية، - وهذا سبيلك ولو بعد حين - يعني سوف تترك الولاية ولو بقيت في الولاية حتى الموت فإنك ستتركها لابد.

وقوله: «**فلا بأس، فإنه عزل محمدة لا عزل مذمة ومنقصة**». هذا أيضًا ليس على عمومه، لأن من الناس من يُعزل عزل محمدة وعزة لكونه يقوم بالواجب عليه من

(١) انظر - غير مأمور - تعريف العلم وما قيل فيه في: المعتمد للبصري (١/ ١٠)، البرهان لإمام الحرمين (١/ ٩٧)، شرح اللمع للشيرازي (١/ ٤٤٦)، المستصفى للغزالي (١/ ٢٤)، المحصول للرازي (١/ ١٢)، الإحكام للآمدي (١/ ١٣)، المسودة (ص٥١٤)، نهاية الوصول للهندي (١/ ٦)، شرح مختصر الطوخي (٢/ ١٥٣)، شرح العضد على ابن الحاجب (١/ ٤٧)، شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني (١/ ٧١)، التعريفات (ص١٣٥)، البحر المحيط (١/ ٥١)، شرح المحلي على جمع الجوامع مع حاشية العطار (١/ ٢٠٣)، الآيات البينات للعبادي (١/ ٢٢٢)، إرشاد الفحول (ص٣).

الملاحظة والنزاهة، لكن يضيق على من تحته فيحفرون له حتى يقع، وهذا كثير مع الأسف. ومن الناس من يُعزل لأنه قد تبين أنه ليس أهلاً للولاية، فهل هذا العزل عزل محمودة أم عزل مذمة؟ عزل مذمة لاشك.

ومن العجيبِ أنَّ بعضَ من حُرِمَ قَصْدًا كبيرًا من التَّوفيقِ لا يكونُ عنده الالتزامُ والإنابةُ والرجوعُ إلى الله إلاَّ بعد (التقاعد) فهذا وإن كانت توبتُهُ شَرعيَّةً، لَكنَّ دينَه ودينَ العجائزِ سواءٌ، إذ لا يتعدَّى نفعُه، أما وقتَ ولايتِه، حالَ الحاجةِ إلى تعدِّي نفعِهِ، فتجدُهُ من أعظم الناس فُجورًا وضَرَرًا، أو باردَ القلبِ، أخرسَ اللِّسانِ عن الحقِّ. فنعوذُ بالله من الخُذلانِ.

من العجب أن بعض الناس إذا عُزل عن الولاية وترك المسئولية إزداد إنابة إلى الله عزَّ وجلَّ، لأنه إن عُزل في حالة يُحمد عليها لجأ إلى الله وعرف أنه لا يغنيه أحد عن الله عزَّ وجلَّ، وعرف افتقاره إلى الله تبارك وتعالى، فصلحت حاله. وإن كان انفصاله إلى غير ذلك فلربما يَمُنُّ الله عليه بالتوبة لتفرغه وعدم تحمله المسئولية، فيعود إلى الله تبارك وتعالى.

وأما قوله: «**وأما في وقت ولايته، وقت تعدي نفعه، فتجده من أعظم الناس فجورًا وضررًا**» هذا موجود بلاشك، لكنه ليس كثيرًا في الناس، والحمد لله. لكن من الناس من يكون متهاونًا في أداء وظيفته، فإذا تركها رجع إلى الله عزَّ وجلَّ.

٤٨ ـ المُدارَاة لا المُداهَنة:

المُداهَنة خُلُقٌ مُنْحطٌ أمَّا المُداراةُ، فلا، لكن لا تَخلِط بينَهما، فتحملك المداهنةُ إلى حَضارِ النفاقِ مجاهرةً، والمُداهَنَةُ هي التي تَمسُّ دينَك[1].

لابد أن تعرف ما الفرق بين المداهنة والمداراة.

المداهنة: أن يرضى الإنسان بما عليه قبيله، كأن يقول: لكم دينكم ولي دين، ويتركهم.

وأما المداراة: فهو أن يعزم في قلبه على الإنكار عليه، لكنه يداريه فيتألفه تارة، ويؤجل الكلام تارة أخرى، وهكذا حتى تتحقق المصلحة.

فالفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة يراد بها الإصلاح لكن على وجه الحكمة والتدرج في الأمور.

وأما المداهنة، فإنها الموافقة ولهذا جاءت بلفظ الدهن، لأن الدهن يسهل الأمور، والعامة يقولون في أمثالهم: ادهن السيل يسير يعني: اعطي الرشوة إذا أردت أن تمشي أمورك.

(١) انظر «الغرباء» للآجُرِّي: (ص٧٩-٨٠) مهم، و«روضة العقلاء»: (ص٧٠) لابن حبان.

٤٩ـ الغَرامُ بالكُتُبِ[1]:

شَرَفُ العلمِ معلومٌ؛ لِعُمومِ نفعِهِ، وشدَّةُ الحاجةِ إليه كحاجةِ البَدَنِ إلى الأنفاسِ، وظهورُ النقصِ بِقَدَرِ نقصِهِ، وحصولُ اللذَّةِ والسُّرورِ بقدرِ تحصيلِهِ، ولهذا اشتدَّ غَرامُ الطُّلاَّبِ بالطَّلَبِ، والغرامُ بجمعِ الكُتُبِ مع الانتقاءِ، ولهم أخبارٌ في هذا تطولُ، وفيه مُقَيَّداتٌ في «خَبَرِ الكتابِ» يسَّرَ اللهُ إتمامَه وطبعَه. وعليه، فَأَحرِزِ الأُصولَ من الكُتُبِ، واعلَمْ أنَّه لا يُغْني منها كتابٌ عن كتابٍ، ولا تَحْشُرْ مكتبتَك وتُشَوِّشْ على فِكْرِكَ بالكُتُبِ الغُثائيةِ، لاسيَّما كُتُبَ المبتدعةِ، فإنَّها سُمٌّ ناقعٌ.

جمع الكتب مما ينبغي لطالب العلم أن يهتم به، ولكن يبدأ بالأهم فالأهم. فإذا كان الإنسان قليل الراتب فليس من الخير ولا من الحكمة أن يشتري كتبًا كثيرة يلزم نفسه بغرامة قيمتها، فإن هذا من سوء التصرف.

ولذلك لم يأمر النبي ﷺ الرجل الذي أراد أن يزوجه ولم يجد شيئًا، أن يقترض ويستدين.

واحرص على كتب الأمهات، الأصول، دون المؤلفات الحديثة لأن بعض المؤلفين حديثًا ليس عنده علم راسخ، ولهذا إذا قرأت كتابًا ما تجد أنه سطحي، قد ينقل الشيء بلفظه، وقد يحرفه إلى عبارة طويلة، لكنها غثاء.

فعليك بالأمهات، عليك بالأصل ككتب السلف، فإنها خيرٌ وأبرك بكثير من كتب الخلف.

---

(١) انظر: «روضة المحبين»: (ص٦٨-٦٩) مهم، و«مفتاح دار السعادة»: (ص٨١) ففيهما أخبار ظريفة وحكايات طريفة.

ثم احذر أن تضم مكتبتك الكتب التي ليس فيها خير، لا أقول التي فيها ضرر، بل أقول التي ليس فيها خير لأن الكتب تنقسم إلى ثلاثة أقسام: خير، وشر، ولا خير ولا شر.

فاحرص أن تكون مكتبتك خالية من الكتب التي ليس فيها خير. هناك كتب يقال أنها كتب أدب، لكنها تقطع الوقت وتقتله من غير فائدة، هناك كتب غامضة ذات أفكار معينة ومنهج معين، فهذه أيضًا لا تدخل مكتبتك.

٥٠ـ قِوامُ مكتبتِك:

عليك بالكُتُبِ المنسوجةِ على طريقةِ الاستدلالِ، والتفقُّهِ في عِلَلِ الأحكامِ، والغَوْصِ على أسرارِ المسائلِ، ومِن أَجَلِّهَا كُتُبُ الشيخينِ: شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمه الله تعالى، وتلميذِهِ ابنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ رحمه الله تعالى. وعلى الجادَّةِ في ذلك مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ كُتُبٌ:

١ـ الحافظُ ابن عبد البَرِّ (م سنة ٤٦٣ هـ) رحمه الله تعالى، وأجلُّ كتبِه «التَّمهيد».

٢ـ الحافظُ ابنُ قُدامةَ (م سنة ٦٢٠هـ) رحمه الله تعالى، وأرأسُ كتبِهِ «المُغْني».

٣ـ الإمام الحافظ النووي «م سنة ٦٧٦هـ» رحمه الله تعالى.

٤ـ الحافظُ الذَّهَبي (م سنة ٧٤٨هـ) رحمه الله تعالى.

٥ـ الحافظ ابنُ كثير (م سنة ٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى.

٦ـ الحافظ ابن رَجَب (م سنة ٧٩٥هـ) رحمه الله تعالى.

٧ـ الحافظُ ابن حَجَر (م سنة ٨٥٢) رحمه الله تعالى.

٨ـ الحافظ الشَّوْكاني (م سنة ١٢٥٠هـ) رحمه الله تعالى.

٩ـ الإمامُ محمد بن عبد الوهَّاب (م سنة ١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى.

١٠ـ كتبُ علماءِ الدعوة ومن أجمَعها «الدرر السَّنيَّة».

١١ـ العلاَّمة الصَّنْعاني (م سنة ١١٨٢هـ) رحمه الله تعالى، لاسيَّما كتابه. النافع «سُبُل السلام».

١٢ـ العلاَّمة صِدِّيق حسن خانَ القنُّوجي (م سنة ١٣٠٧ هـ) رحمه الله تعالى.

١٣ـ العلاَّمة محمد الأمين الشنقيطي (م سنة ١٣٩٣ هـ) رحمه الله تعالى. لاسيَّما كتابه: «أضْواء البَيَان».

هذا أيضًا مهم، أن يختار الإنسان في مكتبته الكتب الأصيلة القديمة، لأن غالب المتأخرين قليلة المعاني، كثيرة المباني، تقرأ صفحة كاملة يمكن أن تلخصها في سطر أو سطرين مع التعريج والمطآب والتعزيزات في بعض الكلمات التي لا تفهم إلا بعد افتراض، لكن كتب السلف تجدها سهلة لينة رصينة، لا تجد كلمة واحدة ليس لها معنى.

٥١ـ التَّعامُلُ مع الكتاب:

لا تستفد من كتابٍ حتى تعرفَ اصطلاحَ مؤلِّفِهِ فيه، وكثيراً ما تكونُ المُقَدِّمَةُ كاشفةً عن ذلك، فابْدَأْ من الكتابِ بقراءةِ مُقَدِّمتِهِ.

التعامل مع الكتاب يكون بأمور:

الأول ـ معرفة موضوعه، حتى يستفيد الإنسان منه لأنه يحتاج إلى التخصص.

الثاني ـ أن تعرف مصطلحاته، وهذا في الغالب يكون في المقدمة، لأن معرفة المصطلحات يحصل بها في الواقع أنك تحفظ أوقات كثيرة، وهذا يفعله الناس في مقدمات الكتب، فمثلاً نعرف أن صاحب بلوغ المرام إذا قال: متفق عليه، يعني رواه البخاري ومسلم. لكن صاحب المنتقى إذا قال: متفق عليه في الحديث يعني أنه رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم. كذلك أيضًا كتب الفقه يُفرق بين القولين، الوجهين، الروايتين، والإحتمالين، كما يعرف الناس من تتبع كتب الفقهاء. الروايتين عن الإمام، والوجهين عن أصحابه، لكن أصحاب المذهب الكبار أهل التوجيه، والإحتمالين للتردد بين قولين: والقولين أعمُّ من ذلك كله.

كذلك يحتاج أن تعرف إذا قال المؤلف: إجماعًا أو إذا قال: وفاقًا. إذا قال: إجماعًا يعني بين الأمة، وفاقًا مع الأئمة الثلاثة كما هو اصطلاح صاحب الفروع في فقه الحنابلة.

الثالث ـ معرفة أسلوبه وعباراته، ولهذا تجد أنك إذا قرأت الكتاب أول ما تقرأ لاسيما من الكتب العلمية المملوءة علمًا، تجد أنك تمر بك العبارات تحتاج إلى تأمل وتفكير في معناها، لأنك لم تألفها فإذا كررت هذا الكتاب ألفته، وانظر مثلاً إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، الإنسان الذي لا يتمرن على كتبه يصعب أن يفهمها لأول مرة، لكن إذا تمرن عرفها بيسر وسهولة.

أما ما يتعلق بأمر خارجي عن التعامل مع الكتاب، وهو التعليق بالهوامش أو بالحواشي، فهذا أيضًا مما يجب لطالب العلم أن يغتنمه، وإذا مرت به مسألة تحتاج إلى شرح أو دليل أو إلى تعليق ويخشى أن ينساها فإنه يعلقها، إما بالهامش وهو الذي على يمينه أو يساره وإما بالحاشية، وهي التي تكون بأسفل.

وكذلك أيضًا إذا كان الكتاب فيه فقه مذهب من المذاهب ورأيت أنه يخالف المذهب في حكم هذه المسألة، فإنه من المستحسن أن تقيد المذهب في الهامش أو الحاشية حتى تعرف أن الكتاب خرج عن المذهب، ولاسيما إذا كان المذهب أقوى مما ذهب إليه صاحب الكتاب.

٥٢ - ومِنْهُ:

إذا حُزْتَ كتابًا، فلا تُدْخِلْه في مكتبتك إلاَّ بعدَ أن تَمُرَّ عليه جَرْدًا، أو قراءةً لِمُقدِّمتِه، وفهرسِه، ومواضعَ منه، أمَّا إنْ جَعَلْتَه مع فنِّه في المكتبةِ، فَرُبَّما مَرَّ زمانٌ وفاتَ العُمُرُ دونَ النَّظرِ فيه، وهذا مُجَرَّبٌ، واللهُ المُوَفِّق.
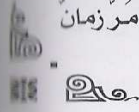
هذا صحيح ... وهو حاصل كثيراً، أكثر ما يكون في حال الإنسان إذا جاءه كتاب جديد يتصفحه، أو إذا كان كثيراً يقرأ الفهرس.

قلَّ أن تجد شخصًا - مثلاً - أو مر بك حال من حين يأتيك الكتاب أن تقرأه .. هذا قليل.

وإنما قال الشيخ هذا، لأجل إنْ احتجت إلى مراجعته عرفت أنه يتضمن الحكم الذي تريد، أما إذا لم تجرده مراجعة ولو مروراً فإنك لا تدري ما فيه من الفوائد والمسائل، فيفوتك شيء كثير موجود في هذا الكتاب الذي عندك في الرف.

٥٣ - إعجامُ الكتابةِ:

إذا كَتَبْتَ فأعجِمِ الكتابةَ بإزالةِ عُجْمَتِها، وذلك بأُمور:

١ - وُضوحُ الخَطِّ.

٢ - رسمُه على ضوءِ قواعدِ الرسمِ (الإملاء). وفي هذا مؤلَّفاتٌ كثيرةٌ من أهمِّها: «كتابُ الإملاء» لحُسين والي[1]. «قواعد الإملاء» لعبد السَّلام محمد هارون[2]. «المُفْرَد العَلَم» للهاشِمي، رحمهم الله تعالى[3].

(١) طبع ثم صور عام ١٤٠٥ هـ، بيروت/ دار القلم.

(٢) طبع الخانجي بمصر عام ١٣٩٩هـ، الطبعة الرابعة.

(٣) الطبعة الثانية والعشرون، المكتبة البخارية الكبرى بمصر.

٣ - النَّقْطُ للمُعْجَم والإهمالُ للمُهْمَل[1].

٤ - الشَّكْل لما يُشْكِل.

٥ - تثبيتُ علاماتِ الترقيمِ في غيرِ آيةٍ أو حديثٍ[2].
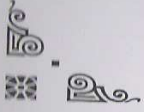
لابد أن تكون عالمًا، أخشى أن تقع في قول القائل: يريد أن يعربه فيعجمه، لابد أن تكون عالمًا بالنحو، وإذا شكلت عليك الكلمة فأرجع إلى مظانها، إذا أشكل عليك تركيب الكلمة أو حركاتها في تركيبها لا في إعرابها فارجع إلى كتب اللغة لأن هناك أخطاء شائعة بين الناس، مثلاً يقولون: تجرِبة وتجارِب.

ثم ذكر قواعد إملائية يجب مراعاتها.

(١) لأنَّ الترك يؤدي إلى الاشتباه.

(٢) «الترقيم وعلاماته»، أحمد زكي باشا، طبع عام ١٣٣٠ هـ.

الفصل السابع

المحـــاذير

٥٤ـ حلْمُ اليَقَظَةُ:

إيَّاك و (حُلْمَ اليَـقَظَة)، ومِنه بأن تَدَّعي العِلمَ لما لم تَعْلَم، أو إتقانَ ما لم تُتْقِن، فإن فَعَلتَ؛ فهو حجابٌ كثيفٌ عن العلم.

هذا صحيح . . . أحيانًا بعض الناس يُرِيَ الحاضرين بأنه عالم مطلع، فتجده إذا سُئِل . . . يسكت قليلاً ـ كأنه يتأمل ويطلع على الأسرار ثم يرفع رأسه ويقول: هذه المسألة فيها قولان للعلماء!!

فلا تدعي ولا تنصب نفسك عالمًا مفتيًا وأنت لا علم عندك؛ لأن هذا من السفه بالعقل وضلال في الدين. ولهذا قال: «فإن فعلت فهو حجاب كثيف عن العلم».

٥٥ـ احْذَر أن تكونَ «أبا شِبر»[1]:

فقد قيلَ: العِلْمُ ثلاثةُ أشبارٍ، مَن دَخَلَ في الشِّبْرِ الأولِ، تكبَّر، ومن دَخَلَ في الشِّبْرِ الثاني، تواضَعَ، ومَن دَخل في الشِّبْرِ الثالث، علم أنه ما يَعْلَمُ.

يتكبر لأنه ما عرف نفسه حقيقةً، والثاني تواضع، لكن يرى نفسه عالمًا، والثالث يرى نفسه جاهلاً لا يعلم.

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ص ٦٥.

لكن هذه الأخيرة محمودة أم لا؟ لو رأيت نفسك جاهلاً فاعلم أنك لن تَقْدُم على عزم في الفتيا، ولذلك ترى بعض طلبة لا يعطيك جزمًا يقول: الذي يظهر . . . يحتمل . . . إلخ.

مادام الله فتح عليك وكنت عالمًا حقًا، فاعتبر نفسك عالمًا .. اجزم بالمسألة، لا تجعل الإنسان السائل طريح الاحتمال، وإلا ما أفدت الناس.

أما الإنسان الذي ليس عنده علم ومتمكن فهذا ينبغي أن يرى نفسه غير عالم.

٥٦ - التَّصَدُّرُ قبلَ التأهُّلِ:

احذر التصدر قبل التأهل، فهو آفة في العلم والعمل. وقد قيل: مَن تصدَّرَ قبلَ أوانِه، فقد تصدَّى لِهَوانِهِ.

هذا أيضًا مما يجب الحذر منه، أن يتصدر الإنسان قبل أن يكون أهل للتصدر؛ لأنه إذا فعل ذلك كان هذا دليلاً على أمور:

الأول ـ إعجابه بنفسه، حيث تصدر فهو يرى نفسه علم الأعلام.

الثاني ـ أن ذلك يدل على عدم فقهه ومعرفته بالأمور، وإذا الناس رأوه متصدرًا، أوردوا عليه من المسائل ما يبين عواره.

الثالث ـ إنه إذا تصدر قبل أن يتأهل، لزمه أن يقول على الله ما لا يعلم، لأن غالب من كان هذا قصده الغالب أنه لا يبالي أن يحطم العلم تحطيمًا وأن يجيب عن كل ما سُئِل عنه.

الرابع ـ أن الإنسان إذا تصدر فإنه في الغالب لايقبل الحق، لأنه يظن بسفهه أنه إذا خضع لغيره، وإن كان معه الحق كان هذا دليلاً على أنه ليس بأهل في العلم.

٥٧ - التَّنَمُّرُ بالعِلْمِ:

احْذَر مَا يَتَسَلَّى بِه المُفْلِسُون مِن العِلْمِ، يُراجِعُ مسألةً أو مسألتين. فإذا كان في مجلسٍ فيه مَنْ يُشارُ إليه، أثارَ البَحْثَ فيهما؛ ليُظْهِرَ عِلْمَهُ! وكم في هذا من سوأةٍ، أقلُّها أن يعلَم أنَّ النَّاس يعلمون حقيقتَه.

وقَد بَيَّنْتُ هذه مع أخواتٍ لها في كتاب «التعالُم»، والحمد لله ربِّ العالَمين.

يأتي الإنسان بمسألة من المسائل ويبحثها ويحققها بأدلتها ومناقشة العلماء، عالم يشار إليه بالبنان يقول: ماذا تقول أحسن الله إليك في كذا وكذا؟ قال: هذا حرام. قال كيف؟ بماذا نجيب علي قول النبي ﷺ كذا وعن قول فلان بكذا ويجيب بالأدلة التي لا يعرفها العالم؛ لأن العالم ليس مُلِمًا بكل شيء، لكي يظهر نفسه أنه أعلم من هذا العالم، ولذلك تجد العوام يتحدثون: والله فلان البارحة جالس مع فلان ـ كبير من العلماء ـ وأفحمه في المسألة وصار كبير كبار العلماء.

وهذا واقع كثير من العلماء الآن وطلبة العلم، يكون له اختصاص معين كأن يدرس باب النكاح مثلاً ويحقق فيه. لكن لو تخرج به إلى باب البيع ـ الذي هو قبل باب النكاح في ترتيب الفقهاء ـ لن تجد عنده شيئًا، كثير من الناس الآن يتنمَّر في علم الحديث، يقول روى فلان عن فلان وفيه انقطاع، وسبب انقطاعه كذا. ثم لو تسأله عن آية من كتاب الله ما أجاب.

٥٨ . تَحبيرُ الكاغدِ:

كما يكون الحذَرُ من التأليفِ الخالي من الإبداعِ في مقاصدِ التأليفِ الثمانية[(١)]، والذي نهايتُه «تحبيرُ الكاغدِ»[(٢)]، فالحذَرَ من الاشتغالِ بالتصنيفِ قبل استكمالِ أدواتِه، واكتمالِ أهليَّتك، والنُّضوج على يَدِ أشياخِك، فإنَّك تُسَجِّلُ به عاراً، وتُبدي به شَناراً.

أمَّا الاشتغالُ بالتأليفِ النافعِ لمن قامت أهليتُه، واستكمل أدواتِه، وتعدَّدَتْ معارِفُهُ، وتمرَّس به بحثاً، ومُراجعةً، ومُطالعةً، وجَرْداً لمطوَّلاتِه، وحِفْظاً لمختصراتِه، واستْذكاراً لمسائلِه، فهو من أفضلِ ما يقومُ به النُّبلاء من الفُضلاء.

ولا تنسَ قولَ الخطيبِ: «مَن صنَّفَ، فقد جعل عَقْلَه على طَبَقٍ يَعْرِضُه على النَّاسِ».

هذه الشروط التي ذكرها، الآن متعذرة. الآن تجد رسائل في مسألة معينة يكتبها أناس ليس لهم ذكر ولا معرفة، وإذا تأملت ما كتبوه وجدت أنه ليس صادراً عن علم راسخ، وأن كثيراً منه نقولات، وأحياناً ينسبون النقل إلى قائله، وأحياناً لا ينسبون، وعلى كل حال نحن لا نتكلم عن النيات، فالنية علمها عند الله عزَّ وجلَّ. لكن نقول: انتظر . . . انتظر.

وإذا كان لديك علم وقدرة فاشرح هذه الكتب الموجودة شرحاً لأن بعض هذه الكتب لا يوجد فيه الدليل على وجه كامل.

(١) أول من ذكر ابن حزم في «نَقْط العروس»، وانظر تسلسل العلماء لذكرها في «إضاءة الراموس» (٢/٢٨٨) مهم.

(٢) هو القرطاس: فارسي معرَّب.

٥٩ . مَوْقِفُك من وَهَمِ مَن سَبَقك:

إذا ظَفِرْتَ بِوَهَمِ لعالِم، فَلا تَفرَحْ بِه لِلحَطِّ منه، ولكنِ افْرَح به لتصحيحِ المسألةِ فقط؛ فإنَّ المُنْصِفَ يكادُ يجزمُ بأنَّه ما من إمام إلاَّ وَله أغلاطٌ وأوهامٌ، لاسيَّما المُكْثِرين منهم.

ومَا يُشَغِّبُ بِهذا ويفرَحُ به للتنقُّص، إلاَّ متعالمٌ «يريدُ أن يُطِبَّ زُكَاماً فَيُحدِثَ بِه جُذاماً»[(١)].

نَعَم؛ يُنَبَّه على خطإٍ أو وَهم وَقَعَ لإمامٍ غُمِرَ في بَحْرِ عِلْمِهِ وفضلِه، لكن لا يُثيرُ الرَّهَجَ عليه بالتنقُّصِ منه، والحَطّ عليه فيغترُّ بِه مَنْ هو مِثْلُهُ.

هذا أيضاً مهم جداً، وهو موقف الإنسان من وهَمِ من سبقه أو من عاصره أيضاً. هذا الموقف له جهتان:

الجهة الأولى- التصحيح وهذا أمر واجب، ويجب على كل إنسان عثر على وهم إنسان - ولو كان من أكابر العلماء في عصره - أو فيمن سبقه - يجب عليه أن ينبه على هذا الوهم وعلى هذا الخطأ، لأن بيان هذا الوهم أمر واجب، ولا يمكن أن يضيع الحق لاحترام من قال بالباطل، لأن احترام الحق أولى من مراعاته.

لكن هل يُصرح بذكر قائل الخطأ أو الوهم، أو يقول: توهم بعض الناس وقال كذا وكذا؟ هذا ينظر إلى المصلحة. قد يكون من المصلحة ألاَّ يصرح، كما لو كان يتكلم عن عالم مشهور في عصره، موثوق عند الناس محبوب إليهم. فيقول: قال فلان كذا وكذا خطأ، فإن العامة لا يقبلون منه شيئاً بل يسخرون به، ويقولون: من أنت حتى ترد على فلان، ولا يقبلون الحق. ففي هذه الحال يجب أن يقول: من الوهم أن يقول القائل كذا وكذا. ولا يقل: فلان.

(١) «مجمع البلاغة» للراغب.

وقد يكون هذا الرجل - الذي توهم - متبوعًا يتبعه شرذمة من الناس وليس له قدر في المجتمع، فحينئذ يصرح، لئلا لا يغتر الناس به، فيقول: قال فلان كذا وكذا وهو خطأ.

الجهة الثانية - في موقف الإنسان من وهم من سبقه أو من عاصره أن يقصد بذلك بيان معايبه لا إظهار الحق من الباطل.

وهذه إنما تقع من إنسان حاسد - والعياذ بالله - يتمنى أن يجد قولاً ضعيفًا أو خطأ لشخصٍ ما، فينشره بين الناس ولهذا نجد أهل البدع يتكلمون في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وينظرون إلى أقرب شيء يمكن أن يقدح به، فينشرونه ويعيبونه، فيقولون: خالف الإجماع في أن الثلاث طلقات واحدة، فيكون هذا شاذًا. ومن شذَّ شذَّ في النار، يحكم بأن الإنسان إذا قال لإمرأته أنت طالق، بأن يكفِّر كفارة يمين، مع أنه لم يتكلم باليمين إطلاقًا، وإنما قال: إذا فعلت كذا فأنت طالق مثلاً.

يقول بأن الله تعالى لم يزل فعَّالاً ولم يزل فاعلاً، وهذا يستلزم أن يكون مع الله قديم، لأن هذه المقولات الواقعة بفعل الله، إذا جعل فعل الله قديمًا لم يزل، لزم أن تكون المفعولات قديمة، فيكون قد قال بوجود إلهين ... وما أشبهها من هذه الكلمات التي يأخذونها زلة من زلاته يشيعونها بين الناس، مع أن الصواب معه. لكن الحاسد الناقم - والعياذ بالله - له مقام آخر.

فأنت في وهم من سبقك يجب أن يكون قصدك الحق، ومن كان قصده الحق وُفِّقَ للقبول، أما من كان قصده أن يظهر عيوب الناس، فإن من تتبع عورة أخيه، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في بيت أمه.

ثم يقول: «**إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط**». والحقيقة إني أقول: لا تفرح به إطلاقًا، إذا عثرت على وَهَم عالم فحاول أن

تدفع اللوم عنه وأن تذب عنه، لاسيما إذا كان من العلماء المشهود لهم بالعدالة والخير ونصح الأمة.

أما أن أفرح بها، فهذا لا ينبغي حتى وإن كان قصدي تصحيح الخطأ. ولهذا لو كانت العبارة «**إذا ظفرت بوهم عالم فلا تفرح به للحط منه ولكن التمس العذر له وصحح الخطأ**» هذا صواب العبارة.

ثم قال: «**فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، ولاسيما المكثرين منهم**». والأفصح أن يقول: «**لاسيما المكثرون منهم**».

يقول أن المنصف يعني الذي يتكلم بالعدل ويتتبع أقوال العلماء يعلم أنه ما من عالم إلا وله أوهام وأخطاء، ولاسيما المكثر الذي يكثر الكتابة والفتوى. ولهذا قال بعضهم: من كثر كلامه، كثر سقطه. ومن قل كلامه، قل سقطه.

ثم قال: «**وما يُشغَبُ بهذا ويفرح به للتنقص، إلا متعالم**» يريد أن يُطبَّ زُكامًا فيحدث به جذامًا.

في الحقيقة لا يفرح به للتنقص إلا إنسان معتدي لا متعالي. معتدي يريد العدوان على الشخص نفسه، ويريد العدوان على العلم الصحيح، لأن الناس إذا وجدوا هذا العالم أخطأ في مسألة ضعف قوله، أو ضعفت قوة قوله عندهم حتى في المسائل الصحيحة.

٦٠- دَفْعُ الشُّبُهاتِ[1]:

لا تَجْعَل قَلْبَكَ كالسِّفِنْجةِ تتلقَّى ما يَرِدُ عليها، فاجْتَنِبْ إثارةَ الشُّبَهِ وإيرادَها على نفسِك أو غيرِك، فالشُّبَهُ خطَّافَةٌ، والقلوبُ ضعيفةٌ، وأكثرُ مَن يُلقيها حمَّالةُ الحطَبِ - المبتدعةُ - فتَوَقَّهُم.

هذه الوصية أوصى بها شيخ الإسلام ابن تيمية تلميذه ابن القيِّم قال: «**لا تجعل قلبك كالإسفنجة يشرب ويقبل كل ما ورد عليه، ولكن اجعله زجاجة صافية تبين ما وراءها ولا تتأثر بما يرد عليها**».

كثير من الناس يكون قلبه غير مستقر ويورد شبهات. وقد قال العلماء رحمهم الله قولاً حقًّا وهو: أننا لو طاوعنا الإيرادات العقلية ما بقي علينا نص إلا وهو محتمل مشتبه، ولهذا كان الصحابة ﭫ يأخذون بظاهر القرآن وبظاهر السنة، ولا يوردون: ولو قال قائل.

نعم إن كان الإيراد قويًا أو كان هذا الإيراد قد أُورد من قبل فحينئذ يبحث الإنسان، أما أن يجعل يفكر إذا نام على فراشه «**إنما الأعمال بالنيات**» أفلا يحتمل بالأعمال العبادات الأم: كالصلاة والزكاة والحج والصوم، والباقي لا نية له. يمكن فيه احتمال عقليًا؛ ثم يبني على الاحتمال الذي أورده على نفسه احتمالات أخرى.

وما أكثر هذا في بعض الناس، تجده دائمًا يورد إيرادات وهذا في الواقع ثَلْمٌ عظيم في تلقي العلم.

اترك الإيرادات وامش على الظاهر فهو الأصل، ولهذا اقرأوا الآن سيرة النبي ﷺ وسيرة الصحابة والأحاديث تجدون المسألة على ظاهرها.

---

(١) «مفتاح دار السعادة»: (ص١٥٣).

منذر أبو سعيد

لَّما حدَّث النبي ﷺ الصحابة بأنَّ الله عزَّ وجلَّ ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير.

قالوا: يا رسول الله كيف ينزل؟ وهل السماء تسعه؟ وهل يخلو من العرش؟ هل قالوا هكذا؟! أبدًا.

لَّما حدثهم أن الموت يؤتى به يوم القيامة على صورة كبش، ثم يُقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت، ثم يذبح بين الجنة والنار.

قالوا: كيف يكون الموت كبشًا؟ ما قالوا هذا!!

لذلك أنصح نفسي وإياكم ألا توردوا هذا على أنفسكم، لاسيما في أمور الغيب المحضة، لأن العقل بحار فيها، ما يدركها، فدعها على ظاهرها ولا تتكلم فيها.

قل سمعنا وآمنا وصدقنا، وما وراءنا أعظم مما نتخيل. فهذا مما ينبغي لطالب العلم أن يسلكه.

٦١- احْذَرِ اللَّحنَ:

ابْتَعِدْ عن اللَّحْنِ في اللَّفْظِ والكَتْبِ، فإنَّ عَدَمَ اللَّحْنِ جلالةٌ، وصفاءُ ذوقٍ، ووقوفٌ على مِلاحِ المعاني لسلامةِ المباني: فعن عُمَرَ ﭬ أنه قال: «تعلَّموا العربيَّةَ، فإنَّها تزيدُ في المروءةِ»[1]. وقد وَرَدَ عن جماعةٍ من السَّلَفِ أنهم كانوا يَضْرِبون أولادَهم على اللَّحْنِ[2]. وأسند الخطيب[3] عن الرَّحْبي قال: «سمعتُ

---

(١) «الجامع» للخطيب: (٢/ ٢٥).
(٢) «الجامع» للخطيب: (٢/ ٢٨، ٢٩).
(٣) «الجامع» للخطيب: (٢/ ٢٨).

بعضَ أصحابنا يقولُ: إذا كَتَب لحَانٌ، فَكَتَبَ عن اللَّحَانِ لحَانٌ آخر، صار الحديثُ بالفارسية»[1]! وأنشد المُبَرِّد.

النَّحْوُ يَبْسُطُ من لسانِ الألْكَنِ *** والمرءُ تُكْرِمُهُ إذا لَمْ يَلْحَنِ

فَإذَا أَرَدْتَ مِنَ الْعُلومِ أَجَلَّهَا *** فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيمُ الأَلْسُنِ[2]

وعليه، فلا تَحْفَل بقولِ القاسم بن مُخَيْمِرَة - رحمه الله تعالى -: «تعلُّمُ النَّحْوِ: أوله شغلٌ، وآخرهُ بَغْيٌ».

ولا بقولِ بِشْرِ الحافي - رحمه الله تعالى -: «لمّا قيلَ له: تَعلَّم النَّحْوَ قال: أَضِلُّ. قال: قُلْ ضَرَبَ زيدٌ عَمْرًا. قال بِشْرٌ: يا أخي! لِمَ ضَرَبَه؟ قال: يا أبا نَصْرٍ! ما ضَرَبَه وإنما هذا أصلٌ وُضِعَ. فقال بِشْرٌ: هذا أوله كَذِبٌ، لا حاجة لي فيه». رواهما الخطيب في «اقتضاء العلم العمل».
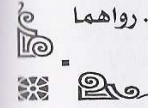
اللحن معناه: الميل سواء كان في قواعد التصريف أو في قواعد الإعراب. قواعد الإعراب يمكن الإحاطة بها، فيعرف الإنسان القواعد ويطبق لفظه أو كتابته عليها.

قواعد التصريف هي المشكلة، أحيانًا يأتي الميزان الصرفي على غير قياس، يأتي سماعيًا بحتًا، وحينئذ لا يخلو إنسان في الغلط فيه.

عندك جموع التكسير، تحتاج إلى ضبط. عندك أبنية المصادر تحتاج إلى ضبط، ومع هذا لو ضبطها سوف تجد شاذًا كثيرًا عنها، ولكن نقول: سدد وقارب. فعليك بأن تعدل لسانك وأن تعدل بنانك، وأن لا تكتب إلا بعربية، ولا تنطق إلا بعربية،

(١) «الجامع» للخطيب: (٢/ ٢٨).

(٢) لبعض العلماء تعقيب على ما أنشده المبرد من أن أجلَّ العلوم علم التوحيد، لكن الجلالة هنا نسبة إلى علوم الآلة. والله أعلم.

فإن عدم اللحن جلالة وصفاءُ لون ووقوف على ملامح المعاني لسلامة المباني. كلما سلم المبنى اتضح المعنى.

وعن عمر رضي الله عنه قال: «تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة». هذه يقولها في عهده، يأمر بتعلم العربية خوفًا من أن تتغير بلسان الأعاجم بعد الفتوحات.

لكن مع الأسف أننا في هذا الزمن - الذي ليس لنا شخصية وصرنا أذيالاً وأتباعًا لغيرنا - صار منا من يرى أن من تكلم بالإنجليزية أو بالفرنسية هو ذو مروءة، ويفخر إذا كان يعرف الإنجليزية أو الفرنسية، بل إن بعضنا يعلِّم أولاده اللغة غير العربية. بعض الصبيان يأتي يقول مع السلامة، فيقول: باي باي.

في الهاتف يقول: آلو. لماذا لم تقل: السلام عليكم، لأنك الآن تستأذن، فهذه أشياء - مع الأسف - لما كنا ليس لنا شخصية، ويجب أن يكون لنا شخصية، لأننا والحمد لله أهل دين وشريعة، لكن صار بعضنا أذيالاً.

عمر يقول: «تعلموا العربية فإنها تزيدكم مروءة»، وبناءً على ذلك: كلما كان الإنسان أعلم بالعربية صار أكبر مروءةً وأكثر.

قال: «وقد ورد عن جماعة من السلف أنهم كانوا يضربون أولادهم على اللحن»، واللحن قليل في ذلك الوقت، ومع ذلك يضربونهم عليه. عندنا الآن لا أحد يضرب على اللحن لا أولاده ولا تلاميذه ولا غيره، على الأقل بالنسبة للتلاميذ إذا أخطأ الإنسان في العربية فَرُدَّ عليه حتى لا يكون أخطأ، وظن أن سكوتك يدل على صحة ما نطق به.

٦٢ ـ الإجهاضُ الفِكْرِي:

احْذَر (الإجهاضَ الفكريَّ)، بإخراجِ الفكرةِ قبل نُضوجِها.

هذا بمعنى ما سبق، أنك لا تتعجل فيما يتبين لك شيئًا تخرجه، لاسيما إذا كان هذا الشيء الذي أنت تريد أن تخرجه مخالفًا لقول أكثر العلماء أو مخالفًا لما تقتضيه الأدلة الأخرى الصحيحة، لأن بعض الناس يمشي مع بُنيات الطريق، فتجده إذا مر بحديث ـ ولو كان ضعيفًا شاذًا ـ أخذ به، ثم قام يتكلم به في الناس، فيظن الناس لهذا أنه أدرك من العلم ما لم يدركه غيره. فنقول الذي بينك وبين الله: إذا رأيت حديثًا يدل على حكم تعارضه الأحاديث الصحيحة التي هي عماد الأمة، والتي تلقاها الأمة بالقبول فلا تتعجب، وكذلك إذا رأيته على حكم خالف الجمهور، فلا تتعجب. لكن إذا تبين لك الحق فلابد من القول به.

٦٣ ـ الإسرائيليَّات الجديدة[1]:

احْذَر الإسرائيليَّات الجديدةَ في نَفَثاتِ المستشرقين، من يهودٍ ونصارى، فهي أشدُّ نكايةً وأعظمُ خطَرًا من الإسرائيليات القديمة، فإنَّ هذه قد وضَحَ أمرُها ببيانِ النبيِّ ﷺ الموقفَ منها، ونَشْرِ العُلماءِ القَوْلَ فيها، أما الجديدةُ المُتَسَرِّبَةُ إلى الفِكْرِ الإسلاميِّ، في أعقابِ الثوريَّةِ الحضارية، واتِّصالِ العالَمِ بعضِهِ ببعضٍ، وكَبْحِ المدِّ الإسلاميِّ، فهي شرٌّ محضٌ، وبلاءٌ مُتَدَفِّقٌ، وقد أخَذتْ بعضَ المُسلمين عنها سِنَةٌ، وخفضَ الجَنَاحَ لها آخرون، فاحْذَرْ أن تَقَعَ فيها، وقَى اللهُ المسلمين شَرَّها.

يريد بهذا الأفكار الدخيلة التي دخلت على المسلمين بواسطة اليهود والنصارى، فهي ليست إسرائيليات إخبارية، بل إسرائيليات فكرية دخل على كثير من الكتاب

(١) «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» لعلَّال الفاسي: (صفحة ب).

الأدبيين، وغير الأدبيين، أفكار دخيلة في الواقع منها ما يتعلق بالمعاملات، ومنها ما يتعلق بالعبادات، ومنها ما يتعلق بالأنكحة، حتى أن بعض الكتاب ينكر تعدد النساء الذي ذهب كثير من العلماء إلى أن التعدد أفضل من الإفراد، وهو ينكر التعدد ويقول هذا في زمن ولَّى وراح، ولم يدر أن التعدد في هذا الزمن أشد إلحاحًا منه فيما سبق لكثرة النساء وكثرة الفتن واحتياج النساء إلى ما يحصن فروجهن. كذلك أيضًا من بعض الأفكار ما يتعلق بالخلافة والإمامة، كيف كان أبوبكر يُبَايع له دون أن يستشار الناس كلهم، حتى العجوز والطفل.. وما أشبه ذلك.

٦٤ ـ احْذَر الجَدَلَ البِيزَنطِي[1]:

أي الجَدَلَ العقيمَ، أو الضَّئيلَ، فقد كان الْبِيزَنْطِيُّون يتحاورون في جِنسِ الملائكةِ والْعَدُوُّ على أبوابِ بلدتهم حتى داهَمَهُم. وهكذا الجدلُ الضئيلُ يَصُدُّ عن السبيل.

وهَدْيُ السَّلَفِ: الكفُّ عن كثرةِ الخِصَامِ والجِدَالِ، وأنَّ التوسُّعَ فيه من قِلَّةِ الوَرَعِ، كما قال الحَسَنُ، إذ سَمِعَ قومًا يتجادلون: «هؤلاء ملُّوا العبادةَ، وخَفَّ عليهم القولُ، وقلَّ وَرَعُهم، فتكلَّموا». رواه أحمد في «الزُّهد»، وأبو نُعَيم في «الحلية»[2].

وهذا مهم، الحذر من الجدل البيزنطي، وهو الجدال العقيم، الذي لا فائدة منه، أو الجدل الذي يؤدي إلى التنطع في المسائل والتعمق فيها بدون أن يكلفنا الله ذلك، فدع هذا الجدل واتركه، لأنه لا يزيدك إلا قسوة في القلب وكراهة للحق، إذا كان مع خصمك وغلبك فيه، فلهذا دع هذا النوع من الجدل.

(١) «معجم التراكيب»: (ص ٢٨٠).
(٢) وذكره الحافظ ابن رجب في «فضل علم السلف على الخلف».

أما الجدل الحقيقي الذي يُقصد به الوصول إلى الحق، ويكون جدل مبني على السماحة، وعدم التنطع. فهذا أمر مأمور به. قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥).

ثم ذكر المؤلف ـ وفقه الله ـ مثالاً للجدل العقيم: جنس الملائكة ما هم؟ يجادل هؤلاء المتكلمون: جنسهم من كذا، وجنسهم من كذا.

ونحن نعلم أنهم خلقوا من نور وأنهم أجسام وأنهم لهم أجنحة وأنهم يصعدون وينزلون إلى آخر ما ذكره الله في الكتاب أو ما ذكره الرسول ﷺ في السنة من أوصافهم، ولا نتعد في أمور الغيب غير ما بلغنا، ولا نسأل: كيف ولم؟ لأن هذا أمر فوق العقل، وأيضًا سمعنا قصة مماثلة، كان العدو على أبواب المدنية، وكان الناس يتجادلون: أيما خُلق أولاً: الدجاجة أم البيضة.

ومن ذلك أيضًا، ما ابتلي به أهل الكلام فيما يتعلق بالعقيدة وصاروا يتنطعون ويقولون مثلاً، كلام الله هل هو صفة فعلية أم ذاتية، وهل هو حادث أو قديم وما أشبه ذلك. من الكلام، وهل نزول الله إلى السماء الدنيا حقيقة أو مجاز وهل أصابعه حقيقة أم مجاز، وكم أصابعه وما أشبه ذلك. والله يا أخوة إن هذا البحث يقسي القلب وينتزع الهيبة ـ هيبة الله عزَّ وجلَّ ـ وتعظيمه وإجلاله من القلب.

إن كان الإنسان يريد أن يتكلم عن صفات الله كأنه يشرح جثة ميت!! سبحان الله!! الناس قبل أن يدخلوا في هذا الأمر تجدهم إذا ذكر الله اقشعر جلده من هيبة الله وعظمته.

كل هذا البحث فيه عقيم، كن كما كان الصحابة ﷺ لا يسألون عن مثل هذه الأمور، لأنهم إذا سألوا وبحثوا ونقبوا، فإن الضريبة هي قسوة القلب، مؤكد. لكن إذا بقى الرب عزَّ وجلَّ محل الإجلال والتعظيم في قلبك، وعدم البحث في هذه الأمور صار هذا أجل وأعظم، فاستمسك به فهذا إن شاء الله هو الحق.

٦٥ ـ لا طائفيةَ ولا حزبيةَ يُعقدُ الوَلاءُ والبَراءُ عليها[1]:

أهلُ الإسلامِ ليس لهم سِمَةٌ سوى الإسلامِ والسلامِ: فيا طالبَ العلمِ بارك اللهُ فيك وفي عِلْمِك، اطلُبِ العلمَ، واطلُبِ العَمَلَ، وادعُ إلى اللهِ تعالى على طريقةِ السلَفِ.

ولا تكُن خرَّاجًا ولاَّجًا في الجماعاتِ، فتخرُجَ من السَّعَةِ إلى القوالبِ الضَّيِّقَةِ، فالإسلامُ كُلُّه لك جادَّةٌ ومَنْهَجٌ، والمسلمون جميعُهم هم الجماعةُ، وإنَّ يَدَ اللهِ مع الجماعةِ، فلا طائفيةَ ولا حزبيةَ في الإسلامِ. وأُعيذُكَ باللهِ أن تتصدعَ، فتكونَ نهابًا بين الفِرَقِ، والطوائفِ، والمذاهبِ الباطلةِ، والأحزابِ الغاليةِ، تعقدُ سُلْطانَ الوَلاءِ والبراءِ عليها.

فكُن طالبَ علمٍ على الجادَّةِ، تقفُو الأثرَ، وتتَّبعُ السُّنَنَ، تدعو إلى اللهِ على بصيرةٍ عارفًا لأهلِ الفَضْلِ فضْلَهم وسابِقَتَهم. وإنَّ الحزبيَّةَ[2] ذاتَ المساراتِ والقوالبِ المُستَحدَثَةِ التي لم يَعْهَدْها السلفُ من أعظمِ العوائقِ عن العلمِ، والتفريقِ عن الجماعةِ، فكم أوهَنَتْ حَبْلَ الاتحادِ الإسلاميِّ، وغشيَتِ المسلمين بسببها الغواشي. فاحْذَرْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ أحزابًا وطوائفَ طاف طائفُها، ونَجَمَ بالشرِّ ناجمُها، فما هي إلاَّ كالميازيبِ، تجمعُ الماءَ كَدَرًا، وتُفرِّقُه هَدَرًا، إلاَّ مَن رَحِمَه ربُّك، فصار على مِثْلِ ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم.

(١) انظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣/ ٣٤١-٣٤٤، ٤١٥-٤١٦، ٤١٩) فهو مُهِمٌّ، و(٤٦,٤-١٥٤) مهم أيضًا، و(١١/ ٥١٢، ٥١٤، ٥١٥)، (٣/ ٣٤٢-٤١٦-٤٢١) فهرسها و(٣٦/ ١٧٩، ١٨٠)، و(٣٧/ ٢٨).

(٢) وفي «حكم الانتماء» لراقمه فوائد وزوائد.

قال ابنُ القَيِّم - رحمه اللهُ تعالى - عند عَلامَةِ أهلِ العبوديةِ [١] : (العَلامَةُ الثانية: قولُه: «ولم يُنسَبوا إلى اسم»، أي: لم يَشْتهروا باسمٍ يُعرفون به عند الناسِ من الأسماءِ التي صارت أعلامًا لأهل الطريق. وأيضًا، فإنَّهم لم يتقيَّدوا بعَمل واحد يجري عليهم اسْمُهُ، فَيُعْرَفُون به دون غيرِهِ من الأعمال، فإنَّ هذا آفةٌ في العبوديةِ، وهي عبوديةٌ مُقيَّدَةٌ.

وأمَّا العبوديةُ المُطْلَقَةُ، فلا يُعْرَف صاحبُها باسمٍ معيَّنٍ من معاني أسمائها، فإنَّه مجيبٌ لداعيها على اختلافِ أنواعِها، فَلَهُ مع كُلِّ أهل عبوديةٍ نصيبٌ يَضْرِبُ مَعَهم بسهم، فلا يتقيَّد برسمٍ ولا إشارةٍ، ولا اسمٍ ولا بِزِيٍّ، ولا طريقٍ وَضْعِيٍّ اصطلاحيٍّ، بل إن سُئل عن شيخِه؟ قال: الرسولُ. وعن طريقِهِ؟ قال: الاتِّباعُ. وعن خِرْقَتِهِ؟ قال: لباسُ التقوى. وعن مذهبِهِ؟ قال: تحكيمُ السُّنَّة. وعن مقصدِه ومطلبِه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ . وعن رباطِهِ وعن خانْكاهُ؟ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (سورة النور: ٣٦-٣٧) . وعن نَسَبِهِ؟ قال:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سِواهُ ❖❖❖ إذا افتخَرُوا بقيسٍ أو تَميمِ

وعن مأكلِهِ ومشربِهِ؟ قال: «مالَك ولها؟ مَعَهَا حِذاؤُهاو سِقاؤُهَا، تَرِدُ الماءَ، وتَرعى الشجرَ، حتى تَلْقَى ربَّها».

وَاحَسْرَتَاه تَقَضَّى العُمْرُ وانصَرَمَتْ ❖❖❖ ساعاتُهُ بين ذُلِّ العَجْزِ والكَسَلِ

والقَوْمُ قد أَخَذُوا دَرْبَ النجاةِ وَقَدْ ❖❖❖ سارُوا إلى المَطْلَبِ الأعْلَى على مَهَلِ

(١) «مدارج السالكين»: (٣/ ١٧٢).

ثم قال: قولُه: «أُولئك ذخائرُ اللهِ حيثُ كانوا»، ذخائرُ المَلِك: ما يُخَبَّأُ عنده، ويَدْخره لمهماتِهِ، ولا يبذلُهُ لكل أحدٍ، وكذلك ذخيرةُ الرجلِ: ما يَدْخَرُه لحوائجِهِ ومهمَّاتِهِ. وهؤلاء لَمَّا كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غَيْرَ مُشارٍ إليهم، ولا مُتَمَيِّزين برسمٍ دونَ الناسَ، ولا مُنتَسِبينَ إلى اسمِ طريقٍ أو مذهبٍ أو شيخٍ أو زِيٍ، كانوا بمنزلةِ الذخائرِ المخبوءةِ.

وهؤلاء أبعدُ الخَلْقِ عن الآفاتِ، فإنَّ الآفاتِ كُلَّها تحتَ الرُّسومِ والتقيُّدَ بها، ولُزوم الطُّرُقِ الاصطلاحيَّةِ، والأوضاعِ المُتداوَلَةِ الحادثةِ. هذه هي التي قَطعت أكثرَ الخَلْقِ عن اللهِ، وهم لا يَشْعُرون. والْعَجَبُ أنَّ أهلَها هم المعروفون بالطَّلَبِ والإرادةِ، والسَّيْرِ إلى الله، وهم - إلاَّ الواحدَ بعد الواحدِ - المَقْطوعون عن اللهِ بتلك الرسومِ والقُيودِ. وقد سُئل بعضُ الأئمَّةِ عن السُّنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السُّنَّة». يعني: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ ليس لهم اسمٌ يُنسَبون إليه سواها.

فَمِنَ الناس من يتقيَّد بلباسِ غيره، أو بالجلوسِ في مكانٍ لا يجلسُ في غيرِهِ، أو مِشْيةٍ لا يمشي غيرها، أو بِزِيٍ وهيئةٍ لا يخرجُ عنهما، أو عبادةٍ معينةٍ لا يتعبد بغيرِها وإن كانت أعلى منها، أو شيخٍ معيَّن لا يلتفتُ إلى غيرِهِ وإن كان أقربَ إلى اللهِ ورسولِهِ منه.

فهؤلاء كُلُّهم مَحْجوبُون عن الظَّفَر بالمطلوبِ الأعلى، مَصْدودون عنه، قد قَيَّدتْهم العوائدُ والرسومُ، والأوضاعُ، والاصطلاحاتُ عن تجريدِ المتابعةِ، فَأضْحَوا عنه بمعزِلٍ، ومنزلتُهم منها أبعدُ منزلٍ، فترى أحدَهم يتعبَّد بالرياضةِ، والخَلْوةِ، وتفريغِ القلبِ، وَيَعُدُّ العلم قاطعًا له عن الطريق، فإذا ذُكر له الموالاةُ في الله، والمعاداةُ فيه، والأمرُ بالمعروف، والنهيُّ عن المنكرِ، عَدَّ ذلك فُضولاً وشرًا، وإذا رَأَوْا بينَهم من يقومُ بذلك، أخرجوه من بينِهم، وعَدُّوه غَيْرًا عليهم، فهؤلاء أَبَعَدُ الناسِ عن اللهِ، وإن كانوا أَكْثَرَ إشارةً. واللهُ أعلم» أهـ.

هذا فصل مهم، وهو تخلي طالب العلم عن الطائفية والحزبية، بحيث يعقد الولاء والبراء على طائفة معينة أو على حزب معين، فإن هذا لاشك خلاف منهج السلف، السلف الصالح ليس عندهم حزبية كلهم حزب واحد، كلهم ينضمون تحت قول الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (سورة الحج:٧٨).

فلا حزبية ولا تعدد ولا موالاة ولامعاداة إلا على حسب ما جاء في الكتاب والسنة.

فمن الناس مثلاً من يتحزب إلى طائفة معينة، يقرر منهجها ويستدل عليه بالأدلة التي قد تكون دليل عليه، وقد تكون دليل له ويحامي دونه، ويضلل من سواه حتى ولو كانوا أقرب إلى الحق منها ويأخذ بمبدأ: من ليس معي فهو عليَّ.

وهذا مبدأ خبيث، يعني بعض الناس يقول: إذا لم تكن معي فأنت عليَّ، هناك وسط بين أن يكون لك أو عليك، وإذا كان عليك في الحق فليكن عليك فإنه في الحقيقة معك، لأن النبي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[1]. ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم، فلا حزبية في الإسلام. ولذلك لما ظهرت الأحزاب في المسلمين تنوعت الطرق وتفرقت الأمة، وصار بعضهم يضلل بعضًا ويأكل لحم أخيه ميتًا، فالواجب عدم ذلك.

الآن مثلاً يكون بعض الناس طالب علم عند شيخ من المشايخ، ينتصر لهذا الشيخ بالحق وبالباطل. وما في سواه يضلله ويبدعه ويرى أنه - شيخه - العالم المصلح، ومن سواه إما جاهل وإما مفسد، وهذا غلط كبير، خذ الحق من أي إنسان، وإذا استروحت نفسك لشخص من الناس فالزم مجلسه، لكن لا يعني ذلك أن تكون معه على الحق والباطل، وأن تضلل من سواه وتزدريهم أو ما أشبه ذلك فإن هذا غلط.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) كتاب الإكراه/ باب يمين الرجل لصاحبه.

يقول الشيخ: «أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسلام» صحيح ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (سورة الحج:٧٨). كلنا مسلمون، فهذه سِمَة المسلم وعلامته: مسلمًا لله، مستسلمًا له، قائمًا بأمره تابعًا لرسوله. هذا هو سمة المسلم.

فيا طالب العلم بارك الله فيك وفي علمك اطلب العلم واطلب العمل، لا تكن مثل بعض الناس، ليس إلا كتبٌ مجموعة، يحفظ كثيرًا ويفهم كثيرًا، لكنه يعمل قليلاً. فهذا لا يُنتج.

كن طالبًا للعلم عاملاً به، داعيًا إلى الحق. ثلاثة أشياء: صدق الطلب، العمل به، الدعوة. لابد من هذا، أما مجرد أن تحشر العلوم ولا ينتفع الناس بعلمك، فهذا نقص كبير.

وادعُ إلى الله على طريقة السلف. وما هي طريقة السلف في الدعوة إلى الله؟ هي التي أرشدهم الله إليها بقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل:١٢٥). لين في موضع اللين، وشدة في موضع الشدة.

قال: «**ولا تكن خرَّاجًا ولاجًا في الجماعات، فتخرج من السعة إلى القوالب الضيقة، فالإسلام كله لك جادَّة ومنهج**».

يقول: إن بعض الناس يكون ولاَّجًا خرَّاجًا، بينما تجده منضمًا إلى قوم أو فئة، اليوم تجده خارجًا منها ووالجًا في جهة أخرى، وهذا مضيعة للوقت، ودليل على أن الإنسان ليس له قاعدة يبني عليها حياته.

يقول: «**المسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد الله مع الجماعة، فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام**». بل يجب أن نكون أمة واحدة، وإنْ اختلفنا في الرأي، أما أن نكون أحزابًا: هذا إخواني - يعني من الإخوان المسلمين - وهذا سلفي، وهذا تبليغي.

وهذا لا يجوز، الواجب أن كل هذه الأسماء ينبغي أن تزول. وتكون أمة واحدة، وحزب واحد على أعدائنا.

قال: «**وأعيذك بالله أن تتصدَّع، فتكون نهاباً بين الفرق، والطوائف، والمذاهب الباطلة، والأحزاب الغالية، تعقد سلطان الولاء والبراء عليها**». هذه أيضًا طريق سيئة، أن يكون الإنسان نهابًا بين الفرق والطوائف، يأخذ من هذا، ومن هذا ثم لا يستقر على رأي. فإن هذا آفة عظيمة، والواجب على الإنسان أن يكون مختاراً ما هو أنسب في العلم والدين ويستمر عليه وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**من بورك له في شيء فليلزمه**». وهذه في الحقيقة قاعدة لمنهاج المسلم يجب أن يسير عليها، من بورك له في شيء فليلزمه وليستمر عليه حتى لا تتقطع أوقاته يومًا هنا ويومًا هنا.

يقول: «**فكن طالب علم على الجادَّة، تقفو الأثر، وتتَّبعُ السُّنَن، تدعو إلى الله على بصيرة عارفًا لأهل الفضل فضلهم وسابقتهم**».

هذه أيضًا وصية نافعة، أن الإنسان ينبغي له أن يتبع الأثر وأن يدع الأهواء والأفكار الواردة على الإسلام والتي هي في الحقيقة دخيلة على الإسلام وبعيدة الوضوح.

ثم نقل كلام ابن القيم: (**العلامة الثانية**) **قوله**: «**ولم يُنسبوا إلى اسم**» أي: لم يشتهروا باسم يُعرفون به عند الناس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق.

وأيضًا، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة، فلا يُعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها.

هذا هو الصحيح، العبودية المطلقة أن يعبد الإنسان ربه به على حسب ما تقتضيه الشريعة. مرة من المصلين، ومرة من الصائمين، ومرة من المجاهدين ومرة من المتصدقين حسب ما تقتضيه المصلحة، ولذلك تجد النبي صلى الله عليه وسلم هكذا حاله، لا تكاد تراه

صائمًا إلا وجدته صائمًا ولا مفطرًا إلا وجدته مفطرًا، ولا قائمًا إلا وجدته قائمًا. يتبع المصلحة، أحيانًا يترك الأشياء التي يحبها من أجل مصلحة الناس، فإياك أن تكون قاصرًا على عبادة معينة، بحيث لا تتزحزح عنها.

قال: «**فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها**». فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزيٍّ، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سُئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الاتباع. وعن خرقته؟ قال: لباسُ التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. وعن رباطة وعن خانكاه؟ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (سورة النور: ٣٦-٣٧). وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ❖❖❖ إذا افتخروا بقيس أو تميم

وعن مأكله ومشربه؟ قال: «**مالك ولها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وترعى الشجر، حتى تلقى ربها**».

هذه قالها النبي صلى الله عليه وسلم في ضالة الإبل، لما سُئل عن التقاطها غضب عليه الصلاة والسلام. وقالك: «**مالك ولها؟ دعها فإن معها حذاؤها وسقاؤها ترد وترعى الشجر حتى تلقى ربها**»[(١)].

ابن القيم ـ رحمه الله ـ نقلها إلى هذا المعنى الجليل، يعني: هؤلاء العباد الذين تفنوا في العبادة وأخذوا لكل نوع منها نصيب. لو سُئل من أين يجري عليك الرزق. يجيب: مالك ولها دعني!! يرزقني الله عزَّ وجلَّ.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٠) ومالك في كتاب الأقضية حديث (٤٦)، والبخاري في كتاب العلم باب/٢٨. ومسلم في كتاب اللقطة حديث ١، ٢، ٥، ٧، ٨، ٩.

وَاحَسْرَتَاه تَقَضَّى الْعُمْرُ وانصَرَمَتْ ❖❖❖ ساعاتُه بين ذُلِّ العَجْزِ والكَسَلِ

والقَوْمُ قد أَخَذُوا دَرْبَ النجاةِ وقَدْ ❖❖❖ ساروا إلى المطلَبِ الأعلَى على مَهَلِ

ثم قال: قولُه: «أولئك ذخائرُ اللهِ حيثُ كانوا». ذخائرُ المَلِك: ما يُخَبَّأُ عنده، ويَدَّخِرهُ لِمهماتِه، ولا يبذلُهُ لكل أحد، وكذلك ذخيرةُ الرجل: ما يَدَّخِرُه لحوائجِه ومهمَّاتِه. وهؤلاء لمَّا كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غَيْرَ مُشارٍ إليهم، ولا مُتَمَيِّزين برسمٍ دونَ الناس، ولا مُنتسبين إلى اسم طريقٍ أو مذهبٍ أو شيخٍ أو زيٍ، كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة. هؤلاء أبعدُ الخلْقِ عن الآفت، فإنَّ الآفاتِ كلَّها تحتَ الرُّسومِ والتقيُّدِ بها، ولزومِ الطُّرُقِ الاصطلاحيةِ، والأوضاعِ المُتداوَلَةِ الحادثة. هذه هي التي قطعت أكثرَ الخلْقِ عن الله، وهم لا يَشْعُرون».

صحيح هذا .. لاشك أن الأمر كما قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هؤلاء الذين لهم مراسم معينة، ولهم طقوس معينة، وأشكال معينة، هؤلاء لاشك أنهم ينقطعون عن الله عزَّ وجلَّ بحسب ما معهم من هذه الرسومات الإصطلاحية وما أشبهها، تجد الواحد منهم إذا رأيته قلت: من هذا الرجل؟ من هذا العالم. لكنه عالم بالزي والشكل فقط، وليس عنده علم راسخ، بل وربما نقول إيمانه ضعيف أيضًا، وإلا لكان يعتمد على ما عنده من العلم والإيمان والدعوة والصلاح. قال:

«والعَجَبُ أنَّ أهلَها هم المعروفون بالطلَبِ والإرادةِ، والسَّيْرِ إلى الله، وهم ـ إلاَّ الواحدَ بعدَ الواحدِ ـ المَقْطوعون عن اللهِ بتلك الرسومِ والقيود».

العجب من أن الإنسان يستغرب أن يكون هؤلاء الذين أخذوا العلم بالرسوم والإصطلاحات الحادثة، هم المعروفون بالطلب والإرادة لأنهم يغرون الناس بلباسهم ونبرات كلامهم، وغير ذلك.

ثم قال: «وقد سُئِل بعضُ الأئمةِ عن السُّنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السُّنَّة»». يعني: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ ليس لهم اسمٌ يُنسَبون إليه سواها. فَمِن الناس من يتقيَّد بلباسٍ غيره، أو بالجلوس في مكانٍ لا يجلسُ في غيره، أو مشيةٍ لا يمشي غيرها، أو بزيٍ وهيئةٍ لا يخرجُ عنهما، أو عبادة

معينةٍ لا يتعبد بغيرها وإن كانت أعلى منها، أو شيخٍ معيَّن لا يلتفتُ إلى غيرِه وإن كان أقربَ إلى الله ورسولِه منه. فهؤلاء كلُّهم مَحْجوبون عن الظَّفَرِ بالمطلوب الأعلى، مَصْدودون عنه، قد قَيَّدَتْهم العوائدُ والرسومُ، والأوضاعُ، والاصطلاحاتُ عن تجريدِ المتابعة، فأَضْحَوا عنه بمعزلٍ، ومنزلتُهم منها أبعدُ منزلٍ، فترى أحدَهم يتعبَّد بالرياضة، والخَلْوة، وتفريغِ القلب، ويَعُدُّ العلمَ قاطعًا له عن الطريق، فإذا ذُكر له الموالاةُ في الله، والمعاداةُ فيه، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، عدَّ ذلك فُضولاً وشرًا، وإذا رَأَوْا بينهم من يقومُ بذلك، أخرجوه من بينهم، وعدُّوه غيرًا عليهم، فهؤلاء أبعدُ الناسِ عن اللهِ، وإن كانوا أكثرَ إشارةً. واللهُ أعلم» أهـ.

قوله: «يتعبد بالرياضة» المراد: الرياضة القلبية على زعمهم، فتجدهم منعزلين عن الناس، بعيدين عن الناس، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يتعلمون ظنًا منهم أن هذا هو الخير، ولكنهم في الواقع ضلوا، الخير أن تتبع الخير حيث ما كان.

فتارة في مجالس العلم، وتارة في مصارف الجهاد، وتارة في الحسبة، وتارة في الصلاة وتارة في القرآن، حسب ما ترى أنه أنفع لعباد الله وأخشى لقلبك، لكن من الناس مَنْ لا يتحمل، فتجده يركن إلى شيء معين من العبادة يدعي أن فيه صلاح قلبه ويستمر عليه.

٦٦ ـ نواقض هذه الحلية:

يا أخي! ـ وقانا الله وإياك العثرات ـ إن كنت قرأت مثلاً من «حلية طالب العلم» وآدابه، وعلمت بعضًا من نواقضها، فاعلم أنَّ من أعظم خوارمها المفسدة لنظام عقدها:

١ ـ إفشاء السر.

٢ ـ ونقل الكلام من قوم إلى آخرين.

٣ ـ والصَّلَفُ واللَّسانة.

٤ ـ وكَثْرةُ المُزاح.

٥ ـ والدُّخولُ في حديثٍ بين اثنين.

٦ ـ والحِقْد.

٧ ـ والحَسَد.

٨ ـ وسوءُ الظَّنِّ.

٩ ـ ومُجالَسة المبتدعة.

١٠ ـ ونقل الخُطَى إلى المحارم.

فاحْذَر هذه الآثامَ وأخواتِها، واقْصُر خُطاك عن جميع المُحرَّمات والمحارم، فإن فَعلت، وإلاَّ فاعلَم أنك رقيقُ الديانة، خفيفٌ، لَعَّابٌ، مُغتابٌ، نَمَّام، فأنَّى لك أن تكونَ طالبَ علم، يُشار إليك بالبَنان، مُنَعَّمًا بالعلم والعمل؟

سَدَّدَ الله الخُطَى، ومنحَ الجميعَ التقوى وحُسْنَ العاقبةِ في الآخرة والأُولى.

وصلى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ وسلَّمَ.

بكر بن عبد الله أبو زيد

في ١٤٠٨/١٠/٢٥هـ
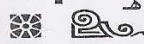
هذه النواقض والخوارم التي ذكرها هي في الحقيقة خَدشٌ عظيم لطالب العلم وللعامة أيضًا.

١ ـ **إفشاء السر محرم**: لأنه خيانة للأمانة. فإذا استكتمك الإنسان حديثًا فإنه لا يحل لك أن تفشيه لأي أحد كان، واحذر أن يخدعك أحد، لأن بعض الناس يظن أنه أُفشِيَ إليك بحديث، ثم يأتي إليك وكأن الأمر مسلَّم أنه علم بذلك. فيقول مثلاً:

ما شاء الله، من أدراك عن كذا وكذا، فيُبهت الآخر، فيظن أنه قد علم ثم يُفضي له السر وهذه طريقة تجسس من بعض الناس.

فاحذر هذا، فما دمت استكتمك صاحبك فإذا جاء أحد يبهتك بمثل هذا الأسلوب، فلا تخف. قل: أبدًا، ما صار هذا، وأنا أبرىء إلى الله منه ـ وتقصد منه ـ هذا الكلام الذي قلت، لأنه تجسس.

قال العلماء: وإذا حدثك الإنسان بحديث والتفت، فقد استأمنك، فهو أمانة وسر، فلا يجوز أن تفشيه. حتى وإن لم يقل لا تخبر أحدًا. لأن التفاته يعني أنه لا يريد أحدًا يسمعه. فإذا أفشيته فهذا من إفشاء السر.

٢ ـ **ونقل الكلام من قوم إلى آخرين**: وهذه هي النميمة، وقد قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[1]. أي: نمام، ومرَّ بقبرين يعذبان، وذكر أن أحدهما كان يمشي بالنميمة[2]. فهي من كبائر الذنوب.

يأتي الشخص لآخر ويقول: فلان يقول فيك كذا وكذا. لكن إذا كان المقصود بذلك النصيحة. كيف النصيحة؟! يعني: أن هذا الرجل مغتر بالشخص ويفضي إليه أسراره ويستشيره في أموره، فجاء إنسان وقال: يا فلان، أنا رأيتك تفضي سرك إلى فلان وتثق به، والرجل ليس بأمين، الرجل يفشي كل ما تقول. فهل يعتبر هذا نميمة؟ هذه نصيحة!

٣ ـ **والصَّلَفُ واللَّسانة**، الصلف: يعني التشدد في الشيء، يكون الإنسان غير لين لا بمقاله ولا بحاله. بل هو صلت ولَسِن، يعني رفيع الصوت، أو يعني عنده بيانًا يبدي به الباطل ويُخفي به الحق.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب حديث (٤٨٧١) وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٦٤) وانظر طرقه وشواهده في بذل الإحسان لشيخنا أبي إسحاق الحويني. رقم (٣١).

وأما قوة الصوت وارتفاعه، فإنه ليس إلى اللَّسانة، هذه من خلقة الله عزَّ وجلَّ، ولما أنزل الله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النَّبيِّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ (سورة الحجرات: ٢). كان ثابت بن قيس رضي الله عنه ـ وهو من أحد الشعراء والخطباء ـ كان جهوري الصوت، فلزم بيته يبكي، ولم يكن له وجه يخرج إلى الناس، ويقابل الناس به، فـفقده النبي ﷺ فسأل عنه وأرسل إليه رسولاً، فقال: «إنَّ الله أنزل هذه الآية وإني خفت أن يحبط عملي وأنا لا أشعر». فأرسل إليه النبي ﷺ فقال له: «إنه يحيى سعيداً، ويُقتل شهيداً، ويدخل الجنة».

٤ ـ **كثرة المزاح:** ولم يقل المزاح لأن المزاح في الكلام، كالملح في الطعام إنْ أكثرت منه فسد الطعام، وإن لم تجعل فيه الملح لم يشتهى إليه الطعام. فكثرة المزاح تذهب الهيبة، وتنزل مرتبة طالب العلم. أما المزاح القليل الذي يقصد به إدخال السرور على صاحبك فهو من السنة، فكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًا.

جاء رجل يريد أن يحمله على بعير يجاهد عليها في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «إنا حاملوك على ولد الناقة» قال الرجل كيف؟! فقال النبي ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق»[1]. فهذا مزح ولكنه حق.

وقال لأبي عمير ـ غلام صغير ـ معه طير يلعب به، فمات الطير. فدخل النبي ﷺ عليه ذات يوم فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[2].

أما ما يفعله بعض الناس، كل كلامه مزح، فهذا كما أنه لا يليق بالرجل العاقل فضلاً عن طالب العلم، فإنه يجعل كلامه مزحًا حتى أن المخاطبين يقولون له أنت صادق أم تمزح؟ لأنه يجعل كل كلامه مزحًا.

٥ ـ **الدخول في حديث بين اثنين:** فإن بعض الناس إذا رأى اثنين يتحدثان، دخل بينهما وهذا كالمتسلق للجدار، لم يأت البيوت من أبوابها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧) وأبو داود (٤٩٩٨) والترمذي (١٩٩١) في سننه، وفي الشمائل (٢٣٨) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٤٨) كتاب الشهادات/ باب المزاح لا ترد به الشهادة.

(٢) سبق تخريجه.

ولهذا كان من آداب حاضر صلاة الجمعة ألاَّ يفرق بين اثنين كما جاءت به السنة، فالتفريق بين إثنين في الكلام وفي الحديث من خوارم المروءة، وكذلك أيضًا لا ينبغي إذا رأيت اثنان يتحدثان أن تقترب منهما، بل من الأدب والمروءة أن تبتعد، لأنه ربما يكون بينهما حديث السر ويخجلان أن يقولا لك أبعد، فالحديث سر، أو إذا كانا لا يستطيعان ذلك عدلاً عن حديث السر فقطعت حديثهما.

٦ ـ **الحقد:** والحقد يعني الكراهية والبغضاء، فإنَّ بعض الناس إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة حقد عليه، مع أن هذا الذي أنعم عليه لم يتعرض له بسوء، لكن حاقد عليه. وما قصة ابني آدم بغريب علينا.

قربا قُربانًا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. فقال الذي لم يتقبل منه إلى الذي تقبل منه لأقتلنك. كرهه وحقد عليه إلى حد أنه أودى بحياته، فقال له ذلك: ﴿إنَّما يتقبَّلُ اللَّهُ من المتَّقين﴾ (سورة المائدة: ٢٧). وليس بيدي تزكية نفسي أو لثناء عليها.

وإنما يريد أن يحث ذلك على التقوى حتى يُقبل منه. كأنه قال له: اتق الله يُقبل منك. ولكن: ﴿فطوَّعت له نفسُه قتل أخيه فقتله﴾ (سورة المائدة: ٣٠).

فلا يجوز للإنسان أن يحقد على أخيه المسلم، ولاسيما أن يكون سبب الحقد ما منَّ الله عليه من النعمة سواء دينيًا أو دنيويًا.

٧ ـ **الحسد:** من أخلاق اليهود، وبئس الخلق خلق الحسد، فما هو الحسد. الحسد قيل هو: أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره.

يتمنى فقره إذا كان أنعم الله عليه بالمال، ونسيانه وجهله إذا كان أنعم الله عليه بالعلم، وفقد أولاده وعقم زوجته إذا كان الله منَّ عليه بالأولاد وما أشبه ذلك.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «الحسد كراهة نعمة الله على غيره». يعني ما يتمنى زوالها، لكن يكره أن الله أنعم على هذا الإنسان بهذه النعمة، فأما لو تمنى أن يرزقه الله مثلها، فليس هذا من الحسد بل هذا من الغبطة، التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين»[1]. ومضار الحسد إحدى عشرة وهي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧) في كتاب التفسير/ تفسير سورة عبس.

١ ـ أنه من كبائر الذنوب.

٢ ـ أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. والحديث ضعيف[1].

٣ ـ أنه من أخلاق اليهود.

٤ ـ أنه ينافي الإخوة الإيمانية.

٥ ـ أنه فيه عدم الرضا بقضاء الله وقدره.

٦ ـ أنه سبيل للتعاسة.

٧ ـ الحاسد متبع لخطوات الشيطان.

٨ ـ يورث العداوة والبغضاء بين الناس.

٩ ـ قد يؤدي إلى العدوان على الغير.

١٠ ـ فيه إزدراء لنعمة الله على الحاسد.

١١ ـ يشغل القلب عن الله.

٨ ـ **سوء الظن:** أن يظن بغيره ظنًا سيئًا، مثل أن يقول: لم يتصدق هذا إلا رياءً، لم يلق هذا الطالب هذا السؤال إلا رياءً ليعرف أنه طالب. وكان المنافقون إذا أتى المتصدق من المسلمين بالصدقة ـ إن كانت كثيرة ـ قالوا: مُرائي، وإن كانت قليلة، قالوا: إن الله غنيٌ عن صدقة هذا، فهم يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم. فإياك وسوء الظن.

فالواجب إحسان الظن بمن ظاهره العدالة، أما من ظاهره غير العدالة فلا حرج أن يكون في نفسك سوء الظن به، لكن مع ذلك عليك أن تتحقق حتى يزول ما في نفسك من هذا الوهم. لأن بعض الناس قد يسيء الظن بشخص ما بناءً على وهم كاذب لا حقيقة له.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣). والبخاري في التاريخ (١/١/٢٧٢) وعبد بن حميد في المنتخب (١٥٣-١٥٤) وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٦/١٢٤). وابن ماجة (٤٢١٠). وابن عدي في ترجمة عيسى الحناط (٥/١٨٨٧) الكامل في الضعفاء. وأخرجه أبو الشيخ في التنبيه والتوبيخ بسند ضعيف (٦١، ٦٢)، والسيوطي في الدرّ المنثور (٦/٤١٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٤٧) وعبد الرزاق (١/٤٥) والخطيب في تاريخه (٢/٢٢٧) والعجلوني في كشف الخفا (١/٤٢٦). والحديث ضعفه الألباني ـ رحمه الله ـ في ضعيف الجامع (٢١٩٦).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾ (سورة الحجرات: ١٢). ولم يقل كل الظن، لأن بعض الظنون لها أصل ولها مبرر ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٢). وليس كل الظن، فالظن الذي يحصل فيه العدوان على الغير هذا لاشك أنه إثم، والظن الذي لا مستند له، هو أيضًا إثم.

٩ ـ **ومجالسة المبتدعة:** وليته عمم: مجالسة كل من تخرم مجالستهم المروءة، سواء كان ذلك لابتداع أو سوء أخلاق أو انحطاط رتبة عن المجتمع أو ما أشبه ذلك.

فينبغي لطالب العلم أن يكون مترفعًا عن مجالسة من تخدش مجالستهم المروءة أو تخدش الدين. لكن كأنه خص ذلك بالمبتدعة لأن المقام مقام تعليم، فإذا وجدنا مبتدعًا عنده طلاقة في اللسان، وسحرٌ في البيان، فإنه لا يجوز أن يجلس إليه، لأنه مبتدع. لماذا لا يجوز؟

أولاً ـ لأننا نخشى من شره، فإن النبي ﷺ قال: «**إن من البيان لسحرًا**»[1]. قد يسحر عقولنا حتى نوافقه على بدعته.

ثانيًا ـ أن فيه تشجيع لهذا المبتدع أن يكثر الناس حوله أو أن يجلس إليه فلان وفلان من الوجهاء والأعيان، فهذا يزيده رفعة واغترارًا بما عنده من البدعة وغرورًا في نفسه.

ثالثًا ـ إساءة الظن بهذا الذي اجتمع إلى صاحب البدعة، وقد لا يتبين هذا إلا بعد حين.

١٠ ـ **نقل الخطى إلى المحارم:** يعني أن يمشي الإنسان إلى الأمور المحرمة، فإن هذا من خوارم هذه الحلية. إذ أن الذي ينبغي لطالب العلم أن يتجنب هذا، بل إن بعض العلماء يقول يتجنب حتى الخطى إلى أمر ينتقده الناس فيه، كما لو ذهب طالب العلم إلى مبيع النساء. النساء لها أسواق للبيع، فذهب طالب العلم لأسواق النساء، هل هذا مما يحمد عليه أو مما يُذم عليه؟ مما يذم عليه، يقال فلان طالب العلم يروح لأسواق النساء، حتى لو قال أنا أريد أن أذهب لأسواق النساء حتى أشتري

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٧) في كتاب الطب/ باب إنّ من البيان لسحرًا.

لأهلي من هذه الأثواب التي تباع بالأسواق. قلنا وكلّ من يشتري عنك، أما أنت طالب علم ينتقد عليك هذا الفعل، ويقتدي بك من نيته سيئة.

ثم قال: «**فاحْذَرْ هذه الآثَامَ وأخواتِها، واقْصُرْ خُطاك عن جميع المُحرَّماتِ والمحارم، فإن فَعَلت، وإلاَّ فاعلَم أنك رقيقُ الديانةِ، خفيفٌ، لعَّابٌ، مُغتابٌ، نَمَّام، فأنّى لك أن تكونَ طالبَ علم، يُشار إليك بالْبَنان، مُنَعَّمًا بالعلمِ والعمل؟**

يعني: ينبغي للإنسان أن يُنزِّل منزلتها وألاَّ يدنسها بالأخلاق، لأن طالب العلم شرَّفه الله تعالى بالعلم وجعله قدوة، حتى إن الله تعالى ردَّ أمور الناس عند الإشكال إلى العلماء. فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٤٣).

فالحاصل إنك يا طالب العلم محترم فلا تنزل نفسك إلى ساحة الذلِّ والضعة، بل كن كما ينبغي أن تكون.

فهذه الحلية لاشك أنها مفيدة ونافعة لطالب العلم وينبغي للإنسان أن يحرص عليها ويتبعها، لكن لا يعني ذلك أن يقتصر عليها بل هناك كذلك كتب أخرى صُنفت في آداب العلم ما بين قليل وكثير ومتوسط، وأهم شيء أن الإنسان يترسم خطى النبي ﷺ ويمشي عليها، فهي الحلية الحقيقية التي ينبغي للإنسان أن يتحلى بها، كما قال سبحانه وتعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

نسأل الله تعالى أن يختم لنا ولكم بصالح الأعمال، وأن يوفقنا للعمل بما يرضيه(*).

(*) انتهى سماحة الشيخ العلامة محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ من شرح هذه الحلية المباركة في الثامن من شهر صفر لعام ١٤١٦هـ.
وانتهى جمع هذا الشرح وتحقيقه والتعليق عليه في الأول من جمادى الأولى لعام ١٤٢١هـ.
نسأل الله حسن القبول وأن يثيب مصنفها وشارحها ومحققها وناشرها حسن الجزاء.

وكتب

أبو مالك / محمود بن حامد بن عبد الوهاب

منذر أبو سعيد

الفهـــرس

منذر أبو سعيد

الموضـوع | صفحة

الفَصْلُ السَّابِعُ

المحـاذير ٢٠٧

هاتف : ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨